رواية

د. عبد الإله بن عرفه

# بلاد صاد

مكتبة الرمحي أحمد ٧٨

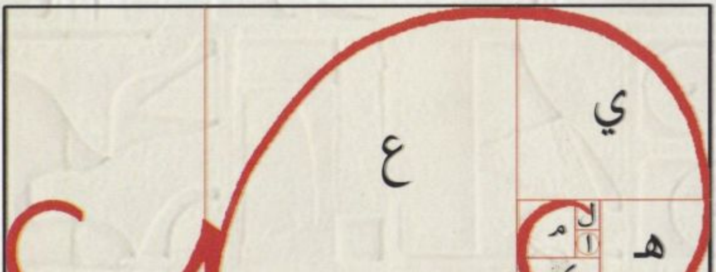


دار الآداب

عبد الإله بن عرفه

# بلاد صاد

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد ٧٨

https://t.me/ktabpdf

دار الآداب - بيروت

# إهداء

إلى سيّد المسافرين وأمير المتجرّدين، وعروس الفقراء، وبركة لابسي الخرقة الصّلحاء، وصَيْدِ الحقّ، الأمير الشاعر الفقيه، أبي الحسن علي بن عبد الله الششتري النميري الوادي آشي المغربي.

ثم إلى من حملتني شطرًا من الزمان، حتى عُرِكْتُ في بطنها بذكر أهل الجَنَان، المرأةِ الصالحة، سليلةِ العلم والفتوّة، الذاكرةِ آناء الليل، وأطراف النهار. إلى والدتي التي حوَّلَتْ ضُعْفَ يُتْمِها، وكَسْرَ جناحيها بفَقْدِ أخويها، إلى هِمَّةٍ عالية لِتَنْشِئَةِ أولادها تَنشِئَةً صالحةً، أهدي هذا العمل إجلالاً لدورها، وتقديرًا لصبرها ومُصَابرتها، وعرفانًا برسالتها.

# بين يدي القارئ

قد يتساءل بعض القرّاء لماذا هذا التقديم؟ ولهم الحقّ في ذلك، فمحاولة من هذا القبيل هي توجيه من الرّوائي للقارئ كي يسلك الطريق وفق مسار معيّن. والحقيقة أنّ هذا الاعتراض وجيه للغاية، إذ هذا المشروع، كما أَلْمَعْنا إلى فحواه في تقديم رواية «**بحر نون**»، يقوم على عدّة شروط، ذكرنا من ضمنها السلوك أو السفر. فتاريخ قراءة هذا النوع من الأدب محكوم بالسلوك على الطريق، كما هو مبثوث في آداب السلوك. وكلّ ما يجنح بالقراءة إلى بُنَيَّات الطريق يُعْتَبَرُ الْتِفَاتًا عن المقصود، وإحجامًا عن بلوغ المنبع المورود. إنّ الكاتب حين يكتب يتوقَّعُ قارئًا بذاته، يمكن أن نسمّيه قارئًا مثاليًّا، لإمكانيّةِ وجودِ قُرَّاءٍ من أصنافٍ أخرى، وغايتنا أن نُمِدَّ هذا القارئ بأدوات للقراءة حتى لا تَشْرُدَ به آلةُ التأويل إلى مواطنَ قَصِيَّة عن المطلوب. وأمْرُ الشرود هَيِّنٌ في ذاته لو أنّه حصَل أو يحصُل في أدب لا يقوم على السفر والسلوك. لكنّ هذا الأدب الذي نحن بصدده لا يتجاوز عن مثل

هذا الشُّرود لأنّه مُفْضٍ في النهاية إلى الخطأ والتيه والفساد. فجماليّة التَّلَقِّي عند القارئ يجب أن ترتفعَ إلى مستوى جماليّة الإلقاء، لكي يحدثَ التوحُّدُ والتحقّق، وتَفْنَى ثُنائيّة المُلقي والمُلْقَى إِليه في ذَات اللُّقْيَا، وَوِصال اللّقاء. وقد عرَّفْنا الأدب سابقًا في هذا المشروع بأنّه **جِمَاعُ كل خير**، لأنّنا نهدفُ أن نرتفعَ بالقارئ إلى مواطن الخير ومواهب الإحسان، ونَرْبَأُ بأنفسنا أن نعاملَه كمستهلك لمادّة مكتوبة لا يلبثُ أن يطرحها في دائرة النسيان أو الإهمال بعد ذلك، وهي لم تُنتِجْ له تحوّلاً ملحوظًا فقراءة هذا الأدب تتطلّب من القارئ أن يتحوّل إلى عاشق سالك مسافر، ويحقّق في ذاته هذا العشق وذلك السلوك وذاك السفر. ولهذا نحرص على مثل هذا التقديم لنضع أمام القارئ المفاتيح التي تجعله متوثّبًا متحفِّزًا متيقّظًا محترِزًا عن الخطأ في التقدير، والزَّلَل في التأويل، ومنخرطًا بالكامل في الطرق السرديّة، التي سَتَزُجُّ به ـ إن كان كما ذكرنا ـ في السُّبُل الإحسانيّة. فنحن ننطلق من مبدأ تَوَحُّدِ المعرفة في ذات العارف، فليس في تصوُّرِنا شيءٌ اسمه موضوع المعرفة، والعارف، والشيء المعروف. إنّ مثل هذا التَّشَظِّي المعرفي لا يُنتج إلاّ معرفة سطحيّة لا تنفذ إلى العمق. والهدف من المعرفة التوحّد والتحقّق. وبعد أن أَوْقَفْنَا القارئ اللّبيب على قَضِيَّة هذا الأدب، نبدأ فنقول، لقد اكتمل هذا المشروع الآن في إحدى صوره، وهي هذه الثلاثيّة: **جبل قاف**،

**بحر نون، بلاد صاد**. ولعلّ ما قاله الشيخ ابن ناصر الدَّرْعِي في رجزه الشهير:

**واجعلْ بصادٍ وبقافٍ وبِنُونْ** ألفَ حجابٍ منْ ورائها يكونْ

ما يجعلُ القارئَ يقتنعُ من أنَّ هناك نظامًا مُعَيّنًا لمثل هذه الكتابة. وأعترفُ بأنّ أمر هذا البيت لم يخطر لي على بال، منذ أن شرعتُ في الكتابة، بل وقفتُ عليه في حديث مع صَفِيٍّ لي حول هذا المشروع خلال كتابتي للرواية الثالثة، فذكَّرني بالبيت الذي أحفظُه في الدعاء المذكور. فارتأيتُ أن أجعلَه عنوانًا لهذه الثلاثيّة، جامعًا لهذا المقصود، ومقولةً أو وِعاءً يصِحُّ معه القولُ بأنّ هناك مشروعًا لثلاثيّة روائيّة واضحة الخصائص، ثابتة الأركان، معلومة الحدود. فإذا جرَّدنا الحروف الثالثة للمشروع أعطتْنا كلمة «**ق ن ص**». وعليه، فهذا العمل مُقْتنص من فواتح السور النورانيّة الأربع عشرة، والتي تُجمع في: **كلامُ حَقٌّ نَصْرُه يَسْطَعُ**. فهي تبتدئ بـ **ألم البقرة**، وتختتم بـ **ن القلم**. وقد يتساءل القارئ عن ترتيب هذا العمل، وله أن يلاحظ أنّ الترتيب الزمني لكتابة المشروع لا يوافق ترتيب ورود تلك الحروف في المصحف، لا صعودًا ولا نزولاً ولكنّنا نجيبُ فنقول إنّ سورة **ق** هي ابتداء ما يسمّى **القرآن المُفَصَّل** عند علماء القراءات، وعليه، فقد كانت البداية منه، ثم عَرَّجْنَا على **نون** الإجمال، وهو مقابل

للتفصيل في **قاف**. وأنهينا المشروع بـ **صاد** وهو الجمعيّة في الإنسان الكامل لحقيقتي التفصيل والإجمال. هذا أحد الوجوه التي يمكن بها ترتيب هذا العمل، لكنّ وجوهًا أخرى محتمَلة. وللقارئ أن يبدأ بقراءة ما شاء من هذه الثلاثيّة، حسب استعداده، فالكلّ مُفْضٍ إلى المقصود. فإنْ كان مِمَّن يُؤْثِرُ العروج فليبدأ **بجبل قاف**، وإن كان ممّن يفضّل السباحة فَلْيَشْرَعْ في العَوْمِ في **بحر نون**، وإن كان ممّن يَجْنَحُ للسياحة في الأرض الواسعة فَلْيَسْتَهِلَّ بـ **بلاد صاد**. ولعلّ هذا ما يميّز هذا العمل، وهو أنّه يُكَمِّلُ القارئ بِقَدْرِ ما يَكْتَمِلُ به، ويتيحُ له السفر في هذه الجغرافيّة الأدبيّة الخياليّة، ذات الأبعاد البرِّيَّة والبحريّة والهوائيّة.

وقد كنّا تحدّثنا عن الخيال في هذا الأدب، فنعود لنؤكّد أنّ الخيال عندنا من أوسع الحضرات التي تعطي المعرفة، وليس هو المخيال الهوسي والنمطي السائد في الكتابات المعاصرة. فالقوّة الخياليّة الخلاّقة التي نقصد هي مزيج وتركيب وتقليب للمحسوسات. وهي إمّا تَأْخُذُ المحسوسات من الحسّ أو من الفكر، على صورة ما من الصور في التقليب والتركيب. وفي هذا العالم يصحّ الجمع بين الأضداد، لكن ذلك الجمع يمتنع في الحسّ والفكر. ثم إنّنا بدأنا هذا المشروع بالاستفادة من جميع العلوم والمعارف نُقَلِّبُها ونُسَخِّرُها لتخدُمَ غرضَ الكتابة في هذا الأدب. ومن بين النصوص الكبرى التي أعدنا استثمارها كتاب

**ألف ليلة وليلة**، منذ الرواية الأولى مع الجبل المسمّى قاف، الذي يَرِدُ في كتاب «ألف ليلة وليلة» مُرادِفًا لجبل يقع خارج حدود العالم المعروف والمحسوس. ثم استفدنا من قصّة السندباد ومدينة النحاس في روايتنا الثانية، ووظّفنا هذه القصّة وربطناها مع أسطورة الجزيرة الأطلسيّة التي تكلّم عنها أفلاطون. كما اعتمدنا على الرمزيّة العدديّة لـ «ألف ليلة وليلة» في الرواية الثالثة، للإشارة إلى توافقها عدديًا مع وادي **آش** (١٠٠١)، موطن أبي الحسن الششتري، ومن وراء ذلك إلى **ألف ليلة أسمائيّة وليلة القدر** التي **يكتمل** بها كل عبد محقّق. ثم تحدَّثنا عن السمسمات السبع التي جَهِدَ الششتري في جمعها من جميع أقاليم الأرض. والأرض، في نهاية الأمر، هي ذات الإنسان التي هي أوسع أرض للعبادة ﴿يَا عِبَادِيَ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾. ونحن نشير بذلك إلى أرض السمسمة التي ورد ذكرها عند الحاتمي في الباب الثامن من **الفتوحات**، وعند الجيلي في **الإنسان الكامل**، وفي **جواهر المعاني** للشيخ أحمد التجاني، لدى شرحه على الصلاة المسمّاة **ياقوتة الحقائق**. واللّقاء بين هذه النصوص كشفنا عنه من خلال قصّة **علي بابا** التي لا توجد في الطبعة العربيّة لكتاب **ألف ليلة وليلة**، لكنّها موجودة فقط في النصوص الغربيّة المترجمة، بدءًا من النصّ الذي اعتمد عليه Antoine Galland في أوّل ترجمة إلى لغة غربيّة بداية القرن الثامن عشر. فقصّة الكهف والعبارة السحريّة: **افتح يا**

**سمسم**، هي إشارة إلى السمسمة، ومن خلفها إلى الرمز الخفي وراء كلّ هذا، وهو أنّ فتح كهف كنوز المعارف لا يتمّ إلاّ **بالاسم** المفرد (سم سم: مرّتين) = الله، الله. وفي الحديث «لا تقومُ الساعةُ وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله». **وعلي بابا**، مرآة وكناية عن سيّدنا **علي**، **باب** مدينة العلم، ومنه تنطلق جميع الأسانيد الروحيّة لذكر الاسم المفرد، الذي علَّمه إيّاه ﷺ. واللصوص الأربعون كناية عن الحجب المانعة من الوصول إلى بلاد الذات العليّة. وهذا الأدب الذي نؤسّس له قائم على **علم السفر** للوصول إلى مدينة العلم التي تتوحّد عندها كلّ الطرق القاصدة. فهذه بعض المفاتيح التي يجب أن نعيد على ضوئها إعادة امتلاك هذا النصّ التراثي الهائل وفق قراءة إحسانيّة جديدة، مسلّحين بهذه العدّة الواسعة من المعارف والعلوم والأسرار. وإنّنا نسجّل هنا أنّ جُلّ من تحدَّث عن قصص «ألف ليلة وليلة» لم يدركوا هذه الأبعاد الروحيّة الخفيّة، وتعاملوا مع هذا النص العظيم تعاملاً سطحيًّا، حيث صنّفوه في دائرة الآداب الشعبيّة والأسمار، وعوالم الاستبداد والمتعة الجسديّة والغرائبيّة، وغير ذلك من التصنيفات غير المنتجة. فهناك بنيات خفيّة في هذا الكتاب يجب إبرازها، تؤكّد على أنّ هذه القصص كانت نوعًا من السفر الروحي الذي أبدعه أدباء منتسبون، في قالب قصصي يسهل معه التلقّي، لأنّ الحكايات، كما يقال، جند من جنود الله.

ونطرح من جديد السؤال: مَنْ كَتَبَ «ألف ليلة وليلة»؟ أو لنقل على الأصحّ: من وضع الهندسة الروحيّة لهذه القصص الآفاقيّة؟ إنّ المهندس الذي جمع تلك القصص من تراث الأمم القديمة قد صاغها حقًّا في بناء روحي أضحت معه معراجًا للسلوك. ففي رحلة السلوك هذه تلوح للسالك حقيقة الإِسْفَار عن معاني الأَسْفار.

ومن أطرف ما حصل لي أثناء كتابة الرواية الثالثة **بلاد صاد**، التي قطب رحاها الأمير الفقيه الصوفي الشاعر أبو الحسن الششتري، قصّة عجيبة. فقد اسْتَعْصَتْ عليَّ الكتابة في إنهاء هذه الرواية، ثم قدَّر الله لي زيارة إلى القاهرة لم تكن في الحسبان ولا خطرت بالبال، فذهبت والنيّة الباطنة منعقدة على اكتشاف قبر هذا الرجل، مع أنّ جُلَّ من تحدّثوا عن هذا الإمام ذكروا أنّ قبره مجهول، ويذكرون أنّه لمّا حضرته الوفاة، وهو في الطريق من الشام إلى مصر، سأل عن أقرب موضع لهم، فقيل له: إنّهم بالقرب من طينة، وهي بلدة على بعد ثمانية عشر ميلاً من دمياط، فقال قولته الشهيرة **حَنَّتِ الطينة إلى الطينة**. وقد ذكر ماسينيون أنّه اكتشف قبره في دمياط سنة ١٩٣٦، من دون أن يقدّم أدلّة مقنعة. كما ذكر أنّ السلطات في دمياط ضحَّت بالمقام المنسوب للششتري لمّا شقَّت هناك أحد الطرق سنة ١٩٤٨ أما د. علي سامي النشّار محقّق ديوان الششتري، فخالفه، وقال: «وقد حاول

الأستاذ ماسينيون.     أن يكتشف مكان قبره بدمياط، وقطع بأنّه وجده ـ وحدّد مكانه ـ ولكن يعتقد محقّق الديوان أنّ الأستاذ ماسينيون لم ينجح في هذا، وأنّ قبر الششتري ما زال غير معروف لنا». وقد تمكّن ماسينيون، بمساعدة طه حسين، من الحصول على نسخة من وَقْفِ مسجد الششتري بخطط الموسكي **بحّارة الإفرنج**، علَّهُ يجد فيها ما يثبت زعمه السابق، لكنّ الوثيقة تذكر هي الأخرى «الشيخ حسن الشستي المعروف بحسن الششتري». ويُقِرُّ ماسينيون، جوابًا على مخالفة النشّار له، في أحد هوامش موسوعته عن الحلاّج، أنّ المشكلة ما زالت قائمة. ثم يتراجع بعد ذلك عمّا زَعَمَهُ سلفًا ليخبرنا، بعبارة تمريضيّة، أنّ قبر الششتري ربّما كان بالقرب من باب زويلة في القاهرة. ذهبت إلى القاهرة وسألت مَنْ أَعرِفُ بها مِنْ أصحاب الشأن الذين يعرفون تاريخ أحجارها ومساجدها العتيقة واحدًا تلو الآخر، ومنهم الأستاذ عبد الواحد يحيى الصغير، ابن الشيخ عبد الواحد يحيى الكبير (René Guénon). وسألت أيضًا الأستاذ محمّد عبد اللطيف، ود. عمر الفاروق، والصديق السيّد فيصل الشعبي، وكلّهم أطبقوا على عدم معرفتهم بوجود قبر الششتري بالقاهرة أو بغيرها   وفي يوم مغادرتي، بعدما كدت أيأس من العثور على قبره، طلبت منهم مرافقتي لأداء صلاة الظهر في مسجد سيّدنا الحسين، ثم سألنا بعض من يعرف القاهرة العتيقة، فلم نظفرْ بما كنّا نرجوه. وكنت

قد قرأت عند محقّق ديوان[1] الششتري د. سامي النشّار، وعند ماسينيون، أنّ في حي الموسكي في القاهرة شارعًا قديمًا يُعرف بشارع أبي الحسن. ذهبنا إلى الموسكي لكنّنا لم نجد الشارع المذكور بسبب تبدُّل العمران والأسامي بعد مرور أكثر من خمسين سنة على كلام ماسينيون والنشّار. وبعدما بحثنا في كلّ مكان، أزمعتُ الذهاب إلى مطار القاهرة للمغادرة، فسمعتُ هاتفًا باطنيًا يأمرني بالالتفات جهة اليمين، فأجبتُ داعيَ الصِّدْقِ، والتفَتُّ

(١) صدر عن دار الثقافة في الدار البيضاء (٢٠٠٨)، طبعة جديدة لديوان الششتري، بعناية د. محمّد العدلوني الإدريسي، ود. سعيد أبو الفيّوض، بعد الطبعة الأولى للمرحوم الدكتور علي سامي النشّار سنة ١٩٥٨ في منشأة المعارف بالإسكندريّة. ومع أنّ إعادة طبع الديوان أمر محمود ومشكور، خاصّة بعد نفاد الطبعات السابقة منذ مدّة غير يسيرة، فقد استوقفني في الطبعة الأخيرة هنَاتٌ لا يجمُل السكوتُ عنها، منها كسور تكاد لا تحصى عددًا في القصائد والتواشيح والأزجال، ممّا لو تُرك لترتّبت عنه مفاسد وتشغيب على عامّة المشتغلين على هذه النصوص. ونرى أنّ إخراج مثل هذا العمل يحتاج إلى جهد جماعي من ذوي الاختصاص العلمي والفنّي، والاستعانة بصفوة أرباب السماع، لإخراج الديوان في حلّة علميّة وعرفانيّة وفنِّيّة تليق بصاحبه. وقد سبق أن أشرت، على المسؤول عن إخراج الطبعة الأخيرة في التروّي والاستعانة بأرباب السماع، لكن يظهر أنّ ذلك لم يؤخذ بعين الاعتبار. وأرى أنّه قد آن الأوان لإنشاء مؤسّسة لفنّي المديح والسماع تُعنى بجمع هذا التراث وحفظه وتدوينه ونشر نصوصه وتعليمه، لما له من قيمة حضاريّة عليا في عصر العولمة والتدافع الحضاري.

لتلك الجهة فإذا ببصري يقع على لوحة صغيرة كُتب عليها: «مسجد سيدي حسن التستري الشهير بأبي الحسن الششتري». ناديت على رُفْقَتي، ونحن لا نصدّق ما حصل، دخلنا المسجد الصغير الذي ذَكَرَ لي عنه محمّد عبد اللطيف أنّه لم يترك مسجدًا قديمًا في القاهرة المُعِزِّيَّة إلاّ وصلّى فيه ويعرف قصّته وتاريخه، إلاّ هذا المسجد الذي يبدو من الخارج حديث البناء، بسبب المبادرات الفرديّة المشكورة للترميم، لكنّها لا تنضبط وللأسف، بمعايير المحافظة على التراث الإسلامي. دخلنا المسجد الصغير، فإذا هو ذو طابع مملوكي من الداخل، ثم وجدنا، في زاوية منعزلة على اليمين، حوشًا صغيرًا بداخله قبر، وعليه ثوب أخضر مكتوب عليه: «هذا مقام سيدي أبي الحسن الششتري رضي الله عنه». قد يتساءل الإنسان قائلاً ربّما كان هذا قبر رجل آخر يعرف بحسن التستري كما أَصَرَّ ماسينيون في البداية على ذلك، مُدَّعِيًا أنّه اكتشف قبر الششتري مُهْمَلاً في مكان مهجور من دمياط، لكنّ المصادر التاريخيّة تخالفه في هذا الأمر. والواقع هو أنّ الششتري قد عُرِفَ بالتستري في كثير من الكتب القديمة. فنجد مثلاً في **جواهر المعاني** نقلاً عن الشيخ أحمد التجاني قوله: «وكقول التستري رضي الله عنه:

انْظرْ أنا شيءٌ عجيبٌ لمنْ يراني ... أنا المحبُّ والحبيبُ ما ثَمَّ ثاني»

مكتبة الرمحي أحمد

فهو يسمّي الششتري بالتستري في هذا الموضع، وفي موضع آخر من هذا الكتاب. والبيت المذكور مقطوع بنسبته للششتري. أمّا حسن التستري (توفّي عام ٧٩٧ هـ)، فرجل آخر من رجال القرن الثامن الهجري، فهو متأخّر بقرن ونصف تقريبًا عن الششتري. وكان للتستري مكان يتعبّد فيه في الموسكي. وتذكر اللّوحة التي تؤرّخ لبناء المسجد، أنّ الأمير الظاهري السّلاحْدار قد شيّده عام ٧٤٨ هـ (سبعين سنة بعد وفاة أبي الحسن الششتري). كما نقرأ فيما تبقّى من النصّ المنحوت على اللّوحة إشارة إلى وجود قبر بداخل المسجد: «ومن أوقفها **للقبر**». ومعلوم أنّ التستري توفّي بعد ٤٩ سنة من تاريخ بناء المسجد ودفن في زاويته لا في المسجد، كما يقول الشعراني في **الطبقات الكبرى** «توفّي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين، وسبعمائة، ودفن في زاويته في قنطرة الموسكي على الخليج الحاكمي»، فلا يُعقل أن يُبنى له قبر قبل وفاته بنصف قرن، لكنّنا نرجّح أنّ زاويته كانت قريبة من هذا المسجد فتداخلت النسبة بين الرجلين، خصوصًا أنّ الاسمين يكادان يتّفقان في حروفهما، وششتر هي نفسها تستر، مدينة فارسيّة. وزقاق الششتري كان معروفًا في وادي آش، بلد الششتري، لكون بعض أهل تستر هاجروا إليه وسكنوه. ودليل آخر على هذا التداخل أنّ احتفال المولد الذي يقام كلّ سنة في مسجد حسن التستري بالموسكي يوافق تمامًا التاريخ الذي توفّي فيه

الششتري، وذلك في شهر صفر من كلّ عام. ثم وجدتُ في مخطوط **روضة الأزهار** لكريم الدين البرموني (٨٩٣ ـ توفي بعد ١٠٠٥ هـ)، الذي يعكف أخونا الفاضل الأَخْيَر د. عبد الحميد الهرامة على تحقيقه ـ والكتاب يترجم فيه مؤلّفه لشيخه السيّد عبد السلام الأسمر (ت ٩٨١ هـ) ـ قولَه عن أبي الحسن الششتري «وذكر غيره[1] أيضًا في طبقاته في أهل القرن السابع. أنّه دُفن بقرافة مصر، وقبره بها ظاهر يزار». كما أورد البرموني بيتين للأسمر:

بالله بالله رُوفْ لحْالِي  يا شُشْتري يا بو قبرين
بالله بالله اشرحْ بالي  أنت وشيخك ابن سبعين

فهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّه كان للششتري قبران، واحد في موضع دفنه الأوّل، ونفترض أنّ أصحابه المصريّين نقلوه من طينة ودفنوه مرّة أخرى في القاهرة، حتى لا يتعرّض لعبث جيوش الصليبيّين في تلك المنطقة، خصوصًا أنّ دمياط كانت منطقة وصول سفنهم من أوروبا، فكيف يُعقل أن يتركه أصحابه، أو أمّه التي حضرت وفاته، في دمياط ليعبث به العابثون، خاصّة أنّه أبلى البلاء الحسن في جهاد الصليبيّين وبنى رباطًا لهذا الغرض بدمياط؟ ويؤكّد ذلك البرموني، نقلاً عن المناوي في طبقاته، بأنّ قبره نقل

(١) يشير إلى عبد الرؤوف المناوي في كتاب الطبقات الكبرى.

إلى القاهرة «وقبره ظاهر يُزار بها». وأخيرًا فإنّ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ) يذكر في كتابه **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، سعادَتَهُ بالعثور على قبر الششتري في **حارة النصارى**، شرق باب زويلة بالقاهرة. ولَعَمْرِي، إنّ ما ذكره النابلسي لا يعدو أحد احتمالين؛ إمّا أنّه كان يقصد الزاوية التي بناها سعد الدولة، كاتب الجاشنكير[1] بيبرس، لتلميذ الششتري، أبي يعقوب بن مبشر، وقد كان الششتري يجتمع بابن مبشر قرب باب زويلة، أو أنّ النابلسي كان يقصد (وهذا هو الأقرب) حارة النصارى أو الإفرنج، في حيّ الموسكي. ويجدر التنبيه إلى أنّ الوثيقة الوقفيّة التي طلبها ماسينيون من طه حسين تتحدّث عن وجود مسجد الششتري في حارة الإفرنج. وبعد هذا التحقيق، لا مناص من القول إنّ قبر الششتري هو كما ذكرنا، مع تصحيح الأمر من ذلك الهاتف الإلهي بالالتفات جهة اليمين، ولا شكّ عندي أنّها رُوحُ أبي الحسن الششتري المرفرفة جاءت تدعوني لزيارته والترحّم عليه وحصول الإذن في كتابة هذا الكتاب **بلاد صاد**، عنه. ثم عدت بعد ذلك إلى بلدي وقد انطلق القلم يخطّ من جديد ما كان قد استعصى من قبل.

---

(١) الجاشنكير كلمة تركيّة تعني الشخص الذي كان يذوق الطعام للسلطان قبل تناوله. وكانت تلك وظيفة بيبرس بريسباي قبل تولّيه السلطة.

وفي الختام، أرجو أن يكون هذا التقديم قد أنار للقارئ الكريم بعضًا من أسرار الكتابة في هذا الأدب، الذي يعيد ذكرى كبار أعلام الثقافة الإسلاميّة والإنسانيّة الذين كان لهم دور كبير في تاريخ هذه الأمّة، ولهم دور روحي أكبر في عصر العولمة وانفلات مردة التنميط والمسخ والنسخ من القَمَاقِم. ويكفي بيانًا على أهمِّيّة الرجل أنّ الناس ما زالوا يتغنّون بأزجال الششتري وموشّحاته من طنجة إلى جاوة. بل إنّ في العراق والجزيرة العربيّة مقامًا موسيقيًّا يسمّى الششتري، وفي تونس وطرابلس آلة تُعرف بالششتريّة. أمّا المغرب، فلعلّي أستعير في الإخبار عن اهتباله بهذا العَلم، قول الششتري: **افهمني قَطْ**.

وأخيرًا، فقد نظمت القصيدة التالية في حرف الصاد، وأقصد به الإنسان الكامل الذي هو صيد الحقّ، وسمّيتها صاد المثاني لأنّ الصاد لم يذكر في الفاتحة إلاّ في كلمة الصراط، فنسأل الله أن يجعلنا ممّن مشى على الصراط المستقيم.

لستُ أَبْغِي طَرِيقَ أَهْلِ الأَوَانِي — مُذْ صَفَا لِي طَرِيقُ أَهْلِ المَعَانِي
يـا أَنَـا لا تَـقُـلْ أنـا عَـنْ فَـخَـارٍ — فـالأَنَـا فـي بـحـار نُـونٍ طَـوَانِـي
أَدْعِـيَـاءَ الـهـوى بِـلا بَـيِّـنَـاتٍ — إِنَّـنـي أُشـهِـدُ الـمَـلاَ بـافْـتِـتَـانـي
ظَـبْـيُ حُـسْـنٍ على فُؤَادِي زُلالٌ — يَـرْتَـوِي جُـمْـلَـةً كُـؤوس الأمـانـي
سَـرَقَـتْـهُ الـفَـلاةُ يَـوْمًـا فَـبِـتْـنَـا — نَـقْـتَـفِـي ثَـعْـلَـبًـا بِـأَرْضِ الـصَّـوَانِ

حَسِبَتْهُ العُيونُ طَيْفًا عَزِيزًا فَغَدَا مِثْلَ ذِئْبِ يَعْقُوبَ جَانِ
يَا خَلِيلَيَّ هَلْ سَمِعْتُمْ بِلَحْنٍ صَامِتٍ أَنْبَضَتْهُ أَيْدِي الغَوَانِي
قَالتِ القَوْمُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ غَابَتْ عنَانِ[1]
قُلْتُ عِنْدِي رَبَابُهَا فِي قِرَابٍ يَبْتَغِي عَاجِلاً وِصَالَ البَنَانِ
كَهْفُ صَدْرِي طَوَى جَنَاني زَمَانًا وَبِدُهْنٍ أَضَاءَ حُمْرَ القَنَانِ
فَافْتَحُوا البَابَ سِمْسِمَاتِي لِحِينٍ لِأَرَى مَا حَوَتْهُ أَرْضُ الكِيَانِ
صَادَنِي مَنْ هَوَاهُ فِي كُلِّ نَادٍ صَادَنِي مَنْ سَنَاهُ فِي كُلِّ شَانِ
صَانَنِي دُرَّةً عَلَى سِيفِ بَحْرٍ فَالْتَقِطْهَا تَفُزْ بِحُورِ الجِنَانِ
فَارْفَعُوا حُجْبَنَا قَلِيلاً تَرَوْنَا قَدْ نَشَأْنَا عَلَى الطَّرِيقِ الفُلاَنِي
صُمْ بِذِكْرٍ وَجُلْ بِفِكْرٍ تُنَادَى مِنْ قَرِيبٍ فَأَنْتَ صَادُ المَثَانِي

والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

**عبد الإله بن عرفه**

---

(١) عنان على وزن حَذَامِ، أَمَة شاعرة، وأخبارها في كتاب **الأغاني**.

## ﴿ص والقُرْآنِ ذِي الذِّكْر﴾

في الصَّادِ نُورٌ لِقَلْبٍ باتَ يرقُبُه | عند المنام وسِتْرُ السُّهْدِ يَحْجُبُهُ
فنَمْ فإنَّك تَلْقَى نورَ سجدتِهِ | يُنيرُ صدرَك والأسرارُ ترقُبُهُ
فذلكَ النُّور نورُ الشُّكر فارْتَقِبِ الـ | مَشكورَ فَهْوَ على العاداتِ يَعْقُبُهُ
اسمعْ كلامًا مُلتَقطْ | افهمني قَطْ افهمني قَطْ.
وقلْ هُوَ اللهُ فقطْ | افهمني قَطْ افهمني قَطْ

# ١

صادَ عسكرُ اللّيل ذيولَ النّهار إلى بحر نون فانطفأتْ شمسُ الكون وأضاءت شمس الجَوْن.

لمّا حضرتِ الوفاةُ السلطانَ يعقوب المنصور الموحّدي جَمَعَ وجوه أهل بيته ورجال الدولة من شيوخ الموحّدين والأعيان، وكلّ أهل الخدمة، وأوصاهم خيرًا بالمسلمين، والعمل بكتاب الله وسُنّة رسوله وبالغ في تذكيرهم وحضّهم على الوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يُعيِّن لهم خليفة من بعده، إذ قال لهم انظروا رحمكم الله وأعانكم على طاعته من تُقدِّمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين، فخنقتِ الناسَ العبرةُ وأجهشوا بالبكاء إلى أن تكلّم الشيخ أبو موسى بن محمّد بن الشيخ أبي حفص وذكَّر بالعهد الذي كان قد قلَّده يعقوب المنصور لولده أبي عبد الله سنة ٥٨٦ هـ، حتى قال: وما ربطناه في حياتكم فنحن باقون عليه إلى أن تلحق نفوسُنا بنفوسكم وهو خليفتُكم علينا بعدَكم. وتكلّم شيوخ الموحّدين بعده وكلُّهم على الخطّة نفسها، فوافقهم إلى ما انتهوا إليه وذكَّرهم

بحداثة سنّ ولده حين بيعتِه إذْ كان له من العمر أقلّ من عشر سنوات، وهو ما دعاه لتجديد مشورتهم اليوم بشأن إمارة المؤمنين، ثم طلب منهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال والتوفيق، ثم أوصاهم أن لا يتركوه لرأيه حتى يتنبَّهَ ويرشُدَ عقلُه ويكتملَ، ويفعلُ الله بعد ذلك ما يشاء. ثم أقرَّ أبا الحسن وأخاه أبا زيد ابني السيّد أبي حفص على ما كانا عليه إبّان عهده وما ربطه لهما في حياته من مسؤوليّات جسام. كما أقرّ الشيخ أبا زكريّا وأبا محمّد على مشيختهما لوليّ عهده محمّد وعَوْنًا له في أمور فلا يُقْطَعَنَّ أمرٌ من دونهما كما أوصى وبالغ بعدم التفريط في أبي الغمر بن عَزّون ومحمد بن إسحاق اللذين كانا غائبين عن هذا المجلس.

وبعد أن اطمأنّ على خلافة الأمر من بعده، تحوّل إلى موضوع الأندلس فقال لهم، بعد أن أطرق ساعة يبكي، أوصيكم بالأيتام واليتيمة، فسُئل عنهما فقال اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكّانها المسلمون، فإيّاكم والغفلةَ فيما يصلُح به أمرُها من تشييد أسوارها وحمايةِ ثغورها وتربيةِ أجنادها وتوقير رعيّتها، فليس أعظمُ في نفوسِنا من همِّها، وقد استوْدَعْنا اللهَ تعالى وحسنَ نظرِكُم فيها ثم أوصى ببقيّة رجالات الدولة في القضاء وغيره، وبالأجناد والقبائل وإشغالهم بالحركة والجهاد وعدم تركهم للعطلة والراحات. ثم ختم كلامه بأن قال لهم: ترانا نذهب عنكم إلى دار البقاء ونترككم

في دار الفناء وقد أزلنا من أعناقنا وجعلنا في أعناقكم هذه القلادةَ نطلبكم بها بين يدي الله تعالى، فانظروا في أمر المسلمين على مقتضى الشريعة الغرّاء وأوامر الله وسُنّة نبيّه محمّد ﷺ، وإيّاكم والباطل، والله تعالى يعينكم ويلهمكم لما فيه صلاحكم. ثم دعا للناس وخرج الموحّدون عنه فلم يره أحد بعد ذلك اليوم رحمة الله عليه.

ثم خرج ذات يوم إلى رياضه الكبير وبين يديه أولاده وهم نحو خمسة عشر ولدًا فنظر إليهم وقال لهم: رأيت البارحة في منامي والدي أمير المؤمنين وهو في هيئتي وعلى شبه صورتي هذه التي نحن فيها معكم، وأولاده معه كما أنتم معي وكلّمني فقال لي: يا يعقوب: لم قتلت أخاك وعمّك؟ وكرّرها عليّ يعاتبني عتابًا، ثم قال لي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ثم بكى المنصور واعتذر من أهل المقتولين وبعث لهنّ رُسلَه بذلك. ومنذ هذه الرؤيا خلع المنصور نفْسَه عن الملك فقدّم ابنه محمّدًا الناصر، وبقي يعبد الله حتى توفّاه الله سنة خمس وتسعين وخمسمائة في مراكش ثم نقل إلى تينمل فدفن بها

وبعد موته تصدّعت الأفئدة لفقده فحاك الناس حوله الحكايات من مكذّب بموته، إلى قائل بأنّه صار مرابطًا متخفّيًا ببلاد الأندلس، إلى ثالث يدّعي أنّه حجّ وجاور هناك. بل إنّ هذا الأمر

انتقل إلى المشرق فادّعى أهله أنّه مدفون في لبنان بالشام.

بعد وفاة السلطان يعقوب المنصور بويع ابنه محمّد الناصر بعد أسبوع من وفاة والده، ثم استوزر أبا زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان، وقدّم السيّد أبا زيد الحسن بن أبي حفص على بجاية وسائر أنظارها وجهاتها، وقدّم أخاه أبا محمّد على إشبيلية. فكان أوّل امتحان تعرّض له الخليفة الجديد هو استيلاء ابن غانية على إفريقية وقت اشتغال الموحّدين بغزو الروم. فكان أن جهّز الناصر جيشًا لقتال ابن غانية لكنّ الجيش الموحّدي انهزم في المعركة بغدر قبائل الأعراب. لكنّ الناصر استطاع أن يخمد ثورة ابن غانية في سنة ٦٠٠ هـ، بعد أن وجّه حملة بحريّة كبرى على الجزائر(١) الشرقيّة وهي جزر ميورقة ومنورقة ويابسة، وبقي عليه أن يقطع فروع هذه الثورة في إفريقية والمغرب الأوسط، فتمّ له ذلك في ٦٠٢ هـ، ودخل الموحّدون تونس والمهديّة وقضوا على فتنة بني غانية. واختار محمّد الناصر أحد أكفأ رجالاته لولاية إفريقية وهو أبو محمّد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي الذي بقي يحكمها حتى وفاته سنة ٦١٨ هـ. أمّا يحيى بن غانية فقد تحوّل إلى لصّ وتحالف مع البدو الهلاليّة، يغيرون أحيانًا على البلاد ثم

---

(١) الجزائر: هي الجزر التي كانت شرق الأندلس، وتسمّى اليوم جزر البليار، ولا علاقة لها بدولة الجزائر.

يفرّون إلى الصحراء إلى أن خبا نجمه. لكنّ حركة ابن غانية قد أضعفت كثيرًا الموحّدين وامتصّت دماءهم وقوّاتهم بدل أن يُوَجَّهَ كلّ ذلك الجهد للعناية باليتيمة والأيتام كما أوصى يعقوب المنصور. وبنو غانية أغلبهم من القبائل المرابطيّة مثل مسوفة وجدالة وتارجا، التي قامت على الموحّدين مدّة نصف قرن من الزمان ثم يفرّون إلى موطنهم في الصحراء. وقد عُرِّبَ اسم قبيلة تارجا إلى طارقة وإليها ينسب الطوارق أصحاب اللّثام الأزرق.

إنّ انشغال الخليفة الجديد بأمر إفريقية منذ توليته قد حال دون عبور الجيوش الموحّديّة للأندلس، ممّا سيؤذن بسقوطها بعد ذلك. وكان لهذا التغيير المفاجئ في السياسة الموحّديّة أثره على ملوك الفرنجة؛ فتشجّع ألفونسو الثامن ملك قشتالة وأغار على أطراف الأندلس بعد انتهاء الهدنة التي كان قد عقدها مع المنصور والتي انتهت سنة ٦٠٦ هـ. وأمام هذا الخطر المتزايد قرّر الناصر إعادة مجد والده المنصور في غزوة الأرك فعبر إلى الأندلس بجيش جرّار سنة ٦٠٧ هـ، واستقرّ في إشبيلية وجمع قوّاته بجيش بلغَ تعدادَ جيشِ معركةِ الأرك المجيدة. وكان ألفونسو الثامن يريد أن يثأر لهزيمته في المعركة السابقة فعقد هدنة مع ملوك النصارى واستنجد بالبابويّة فتوحّدت القوّات المسيحيّة وأتته الإمدادات من كلّ أوروبا. والحقيقة أنّها كانت حملة صليبيّة في الغرب الإسلامي.

تحرّك الناصر سنة ٦٠٨ هـ، واحتلّ جيان ثم توجّه إلى خانق مطرد الكلب وهو الباب المؤدّي من قشتالة إلى حوض الوادي الكبير. والواقع أنّ الاستيلاء على هذا الخانق كان سيمكنه من قطع الطريق على القوّات المسيحيّة وعدم إمكانيّة دخولها إلى بلاد الأندلس بقوّات كبيرة. وبعد جيان تمكّن الناصر من الاستيلاء على حصن شلبطرة القريب من أبدة، وكان معقل فرسان الداوية أو فرسان الهيكل، ثم عاد إلى إشبيلية وأتمّ استعداده واتّجه أخيرًا نحو مطرد الكلب في محرم ٦٠٩ هـ، واتّجهت القوّات النصرانيّة كلّها نحو هذا الموقع، وفيها ملوك قشتالة وليون ونافار وأرجون وكبار فرسان إسبانيا وقوّات ألمانيّة وفرنسيّة وبرتغاليّة. وقد تمكّنت هذه القوّات من الاستيلاء على قلعة رباح التي كان يحميها القائد الأندلسي أبو الحجّاج يوسف بن قادس. فلمّا بلغ الخبر إلى الناصر أمر بقتل ابن قادس ومن معه، وكان لهذا الفعل الطائش أثره في نفوس الأندلسيّين الذين قرّروا أن يغدروا به في المعركة.

فلمّا انطلقت معركة العِقاب (جمع عَقَبَة) في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ، حاول النصارى التسلّل من الجانب الغربي من الميدان لكنّ محاولتهم باءت بالفشل فكرّروا صنيعهم من الجهة الغربيّة وفيها الأندلسيّون ومعهم العرب، ففرّ الأندلسيّون أوّلاً ثم تبعهم العرب ثانيًا فانكشفت هذه الجهة واخترق النصارى صفوف الجيش الموحّدي فاختلّ نظامه وكُشفت عورته، ووصلت طلائعهم إلى

فسطاط الناصر نفسه، وأعملت القوّات المسيحيّة في المسلمين ضُروبًا من القتل والذبح فانخرم عقد هذا الجيش العظيم وتبدّد نظامه. وبانهزام المسلمين في هذه المعركة كان ذلك مُؤشّرًا على انتهاء أمرهم في الأندلس. وقد توفّي الناصر بعد ذلك بأشهر قليلة في شعبان ٦١٠ هـ. وبموته انتهت قوّة الموحّدين.

## ٢

في هذه الأجواء الحزينة ولد علي الششتري في ششتر، إحدى قرى وادي آش سنة ٦١٠ هـ.

كان عبد الله الششتري النميري أميرًا من أمراء الجند في الجيش الموحّدي، وكان له النظر في وادي آش تحت إمرة والي غرناطة لذلك الوقت أبي عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص الذي عيّنه الناصر. وغرناطة بلغة البلد الرمّانة، وهي في مَوْسَطَةِ الأندلس مع قرطبة وطليطلة وجيان وألمرية ومالقة. ومن أعمال غرناطة وادي آش، وحصن المنكب على الساحل، ولَوْشة، وفنتيانة، وحصن لبسة، وحصن جليانة، ويُضاهي المدن، وعُرِفَ بتفّاحه الجُلياني الشهير، وهو كبير الحجم ذكيّ الرائحة لذيذ الطعم. لكن أهمّ أعمال غرناطة هو وادي آش ويقال له وادي الأشات. وهي تقع على نهر ينحدر من جبل شِلير، أي المُشَمَّس، وذلك عند انعكاس الشمس على الثلوج التي تغطّيه. وتحدق بالمدينة الحقول والبساتين وبها منتزه الرملة، ويكثر فيها شجر القسطل، بل إنّ فيها

منه شجرة عظيمة جلس بوسطها حائك ينسج الثياب. وبوادي آش قرى كثيرة منها بَادِي وبُجَانِس وششتر.

بعد هزيمة المسلمين في معركة العقاب أنجبت أمّ علي وليدها في أجواء من الحزن والغمّ بتغلُّب العدوّ وموت الخليفة الناصر كان أبو علي عبد الله الششتري أَشَدَّ أهلِ بيتِه حُزنًا، ولم ينج من الموت إلاّ بالألطاف الخفيّة. وقد أنكر ما صنعه بعض الأندلسيّين حين غدروا بالخليفة وتركوا العدوّ يخترق جيش الموحّدين حتى وصلت رماحهم إلى الناصر فلم ينج إلاّ بقدرة قادر، لكنّه أسلم الروح لباريها بعد أشهر قليلة من شدّة الغمّ والكمد.

فلمّا رُزق أبو علي بولده أذهب الله ما كان به من غمّ وحزن، وفرح فرحًا كبيرًا به، وسعِدَ به غاية السعادة. ولم يكن أبو علي يتعمّم، بل كان أغلب وقته حاسر الرأس على عادة الجند وسائر الناس في الأندلس، بل كان دأبهم ترك العمائم، بل إنّ أهل شرق الأندلس خاصّة كانوا يتسامحون في ذلك بمن فيهم العلماء، على عكس أهل غربها وأمّا الذؤابة فلم يكن يرخيها إلاّ العالم خصوصًا، ولم يكونوا يصرفونها بين الأكتاف بل يرسلونها من تحت الأذن اليسرى.

والنميريّون، نسبة إلى نُمير بن عامر بن صعصعة، وكان وصولهم إلى الأندلس لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بها، وتمَّ فتحُها

فصرفَ أهلُ الشامِ وغيرُهم من العرب هِمَمَهُمْ للحلول بها، فنزل بها جماعات وسادات أورثوها أعقابهم. وآل نمير من قيس عيلان، وهم من العدنانيّة. وقد نزل أسلاف عبد الله في قرية شُشتر بوادي آش ونُسبوا لها حتى عُرفوا بالشُشتري، وزقاقهم هناك معروف. وقد استرسل الحُكم فيهم لتلك الأصقاع منذ ذلك التاريخ فلم يَبِينُوا عن وادي آش، وبها تَأَثَّلَ أمرُهُمْ هناك.

كان عبد الله يسكن في بيت فخم من تلك البيوت المحفور بعضها في الجبل، وتلك خاصّيّة امتازت بها بيوتات وادي آش. فكان يمتلك من أسباب المناعة ما يحول بينه وبين الهجمات المباغتة، أضف إلى كونه كان يشرف على الوادي، وحوله البساتين والحقول.

واحتفالاً بوضع زوجته، أقام عبد الله الششتري حفل عقيقة دعا إليه جملة من الوجهاء والعلماء وذوي الشأن، أُقيمت العقيقة بهذه الزيادة الكريمة التي أَنْسَتْهُ الهزيمة المُرّة التي مرّت بهم. وكان من بين ضيوفه جماعةٌ من بني نزار الذين كانوا يحكمون وادي آش وقاضي وادي آش، لذلك الوقت أحمد بن علي الهواري، وهو من أهل مالقة، وقد استُقضي مرّتين بوادي آش. وكان رجلاً أديبًا وشاعرًا مجيدًا، دَيِّنًا كثير الرواية. وكان عبد الله الششتري يولع بمجالسة العلماء والأدباء. وحضر العقيقة شاعر وادي آش أبو

الحسن ناهض بن إدريس، وله مدائح في الخليفة الناصر، والأديب أبو الكرم جودي بن عبد الرحمن، كما حضر جماعة من عقب عذرة بن عبد الله الفهري، وهم أهل نباهة وأدب، وبيتهم مؤصّل ومجدهم مؤثّل في وادي آش.

وعَزَفَتِ المعازفُ وَنثَرَ الشُّعراءُ نَدِيَّ أنظامِهم بهذه المناسبة، وطعِم الجمعُ من لذيذ المطاعم.

# ٣

شبّ علي بن عبد الله الششتري في هناءة ودعة، وقد ساعدت الأوضاع الهادئة في الأندلس على ذلك، إذ وافقت ولادته اعتلاء الخليفة المستنصر بالله، يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. بويع له بالخلافة وسنّه عشرة أعوام. وقد كان يكلأه مشايخُ الموحّدين، كما أوصى بذلك أبوه الخليفة محمد الناصر. ولم يكن في فترة دولته غزوات ولا حركات، بل كانت فترة هادئة، وتولّى أعمامه وقرابته البلاد الغربيّة والأندلسيّة. ولعلّ ما يخصّ وادي آش هو أنّه نقل السيّد أبا إبراهيم إسحاق الملقّب بالأمير الظاهر ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من ولاية غرناطة، ووادي آش تابعة لها، إلى فاس في المغرب الأقصى. كما عيّن أبا محمد بن الخليفة المنصور، الملقّب بالعادل على غرناطة وأعمالها

وقد قام بعض الأدعياء على الموحّدين إلى أن تمّ إخماد فتنتهم، كما عقد المستنصر هدنة جديدة مع ملك قشتالة ومال إلى

موادعته. وكان سفير ملك قشتالة إلى المستنصر وزيره اليهودي إبراهيم بن الفخار الإسلامي[1] وكان لهذه الهدنة أثر كبير في استتباب الأمن والرخاء في الأندلس وتحسّن أحوال الناس فانصرفوا إلى ما درجوا عليه.

لكن قبائل بني مرين بدأت تظهر في بلاد المغرب، فشنّوا هجومهم على فاس وقبضوا على واليها الأمير الظاهر ثم أطلقوه بعد ذلك.

كان علي في شغل عمّا كانت عليه أوضاع البلاد، فقد كفاه أبوه عبد الله مؤونة ذلك، فشبّ تَرِفًا يقصد مجالس المؤدّبين والفقهاء. ومن بين أساتذته الذين كان يختلف إليهم الفقيه أبو الأصبغ عيسى ابن هشام، أخذ عنه الحديث خاصّة. كما أخذ القرآن عن أبي عبد الله محمّد بن منصور الصنهاجي المقرئ في المَعْمَرَة، وهي الكُتَّاب. وهذه المؤسّسة الدينيّة التي كان يقصِدُها مُلاصِقَةٌ لجامِعِ بلده. وهي عبارة عن قاعة يجتمع فيها أبناء البلدة إلى مُعلّمهم أبي عبد الله الذي كان يلقّنهم رواية ورش عن نافع. وقد اسْتَقَرَّت هذه الرواية منذ أن أدخلها الغازي بن قيس الأموي، الذي رحل إلى الشرق وسمع من الإمام مالك الموطّأ، وقرأ على الإمام نافع

---

(١) الإسلامي لقب كان يُطلق في الأندلس والمغرب على اليهود الذين يُظهرون الإسلام ويخفون اليهوديّة.

وصحَّحَ مصحفه عليه، ثم قفل إلى بلاده فصار يدرّس أبناء الأمراء في قرطبة، وحَمَلَ الفقهاء المدرّسين على تعليم القرآن بقراءة نافع. لكنَّ الأمر استقرّ أخيرًا على هذه الرواية في الأندلس مع محمّد بن وضّاح القرطبي. كان جدار المعمرة الداخلي ضاربًا للسواد من جَرَّاء إيقاد النار في الكانون الذي يتوسّطها، لقصد تدفئة ماء وضوء الفقيه أو للتدفئة في أيّام البرد القارس.

كنت أذهب للمعمرة كل يوم خلا أيّام العطل، وهي الخميس والجمعة، وسائر العطل الأخرى التي تبلغ في مجموعها ثلاثًا وستّين يومًا في السنة، على عدد عمر سيّدنا محمّد ﷺ. والمجيء إلى المعمرة يختلف بحسب السنّ والتقدّم في الحفظ، فهناك من يُبَكِّرُ قبل صلاة الفجر ليوقد النار وتدفئة الماء للوضوء والاستعانة بنورها على حفظ البالية، أي الوجه الثاني للّوح الذي حُفظ في زوال السابق، واستظهار الأحزاب الخمسة الجديدة. ثم هناك المتوسّطون الذين يحضرون بعد صلاة الفجر، وهم الذين يستظهرون الحزب الجديد، ويتأكّدون من حفظ البالية. وبعد صلاة الصبح يحضر الصغار، فيستظهرون الماحية، ويتأكّدون من حفظ البالية. وكنت في البداية أحفظ كلّ يوم ثمن حزب كسائر من هم في مستواي، ثم انتقلت إلى الفئة المتوسّطة فالكبيرة. وأقصى ما يحفظ المُجِدُّونَ في اليوم نصف حزب.

كنتُ أدخلُ على الفقيه فأجده جالسًا على يمين المعمرة فوق مصطبة فأُقَبِّلُ يده، ثم أناوله نَوْبَتَهُ اليوميّة. وكثيرًا ما كانت متميّزة عن وجبته المعتادة من الطعام الذي يحضره الأطفال إلى الفقيه، إذ غالبًا ما تضع له والدتي بعض اللحم، إضافة إلى الخبز واللّبن وطبق من القطنيّات. يأخذ الكلّ فيضعه في نافذة داخليّة تسمّى باسم وظيفتها أي نوبة الفقيه لأنّه يضع فيها طعام الغداء والعشاء، الذي يحضره الأطفال بالتناوب. كما يضع فيها دواة وأقلامًا قصبيّة مُعدّة للكتابة على ألواح الأطفال. بعد أن نستظهر الواجب اليومي يجيزنا المعلّم المقرئ في ما استظهرناه، ثم يأمرنا بمحو الألواح ويذهب هو لتناول وجبة الفطور. فكنّا نخرج من فضاء المعمرة حُفَاةً تعظيمًا لحُرمة القرآن، إلى مكان منعزل عن حركة الناس والدوابّ، يدعى المحّاي أو المَمْحَى، فنقوم بمحو ألواحنا بالماء الذي يجري بعد ذلك في قناة إلى أصل شجرة أو حوض من أحواض بعض المغروسات، فيسقيها بهذا الماء الطاهر الذي امتزج بصمغ وصلصال وماء وحروف قرآنيّة جَهِدْنَا في ترديدها حتى انْطَبَعَتْ في صدورنا كان المحو في الألواح دليلاً على الإثبات في الصدور. كانت هذه الفسحة استراحة نَنْعَمُ فيها بتناول الطعام وتبادل الملاحظات وحكايات المعمرة البسيطة، ثم نُصَلْصِلُ مرّة أخرى الألواح ونُعَرِّضُهَا لأشعّة الشمس حتى تجفّ ثم نسطرها. وبعد ذلك نعود إلى المعمرة لنكتب الثمن الجديد ونعطيه

للمعلّم حتى يصحّحه، ثم نبدأ في الترديد والحفظ، وبِيَدِ كلّ واحد منّا قطعة خشبيّة تسمّى الكَرَّاك، يمرّرها على اللّوح جيئة وذهابًا من أعلى إلى أسفل، لمساعدتنا على تثبيت الحفظ في الصدور. وفي ختام كلّ يوم نختم بالصلاة على النبي ودعاء التشهّد والقنوت وجواب القبر. ويذكّرنا الفقيه ببعض قواعد عقيدة التوحيد، ثم يختم ببعض المُلَحِ والحِكَم، فننصرف لصلاة العصر ثم نغادر إلى بيوتنا أمّا الكبار فملزمون بقراءة الحزب بين العشاءين. وفي بداية تعليمي كان الفقيه يحرص أن يلقّن أمثالي من المبتدئين بطريقة القراءة التي نسمّيها القراءة السَّرَّابِيّة، أي إظهار إعراب آخر الكلمات حتى نتمكّن من ناصية إعراب آخر الكلمات. ثم بعد ذلك ننتقل إلى القراءة بالوقف. وأتذكَّرُ أنّني لمّا حفظت الفاتحة لأوّل مرّة أقام والدي وليمة في البيت دعا لها الفقيه ووجهاء البلد واشترى لي ثيابًا جديدة وحلوى، كما وَصَلَ الفقيهَ على عمله. وقد كانت هذه الولائم تتكرّر بحسب حِذْقِ الطلبة لمحَطّاتِ حِفْظِ القرآن الكبرى. فكانت وليمة أَلَمْ نَشْرَحْ، ووليمة سَبِّح، ووليمة عَمَّ، ووليمة قُلْ أُوحِيَ، ووليمة تَبَارَكَ، ووليمة الرَّحْمَن، ووليمة يَس، ووليمة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ﴾، ووليمة آخر ثمن من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. فكان الآباء يحرصون على وليمة تُذبح فيها بقرة، وهي ختمة القرآن وأمرها عجيب ولها آداب، إذ هي عنوان الدخول في هيئة الفقهاء

والباب الذي يلج بصاحبه إلى أن ينخرط في سلك العلماء. وحين يكتب الطالب هذا الثمن فإنّه يُزَرْكِشُ لوحتَه ببديع الألوان، ويُنَمِّقُها بمختلف الأشكال ويزهو بها ويذهب بها لأهله ويقول لهم: لقد وصلتُ البقرةَ الكبيرة، بعد أن حُزْتُ البقرةَ الصغيرة وهي نصف السَّلْكة[1] أو الختمة ﴿قال ألم أقل﴾. وتقام الوليمة يوم الجمعة الأولى لانتهاء ختمته. ويتكافل الموسرون مع الفقراء، فيأتي الجيران بما يستطيعون لمساعدة الأسر المعوزة. ويكون هذا اليوم يوم عطلة وأكل وشرب وتنافس بين الطلبة في القدرة على الحفظ، حيث يتبارون في قدراتهم. ويصلُ الناسُ الفقيهَ، كلٌّ حسب قدرته.

وبعد أداء صلاة الجمعة يخرج الطفل الطالب محفوفًا بأصدقائه لابسين البياض وهم يردّدون:

الحمد لله والشكر لله ... ما خاب عبد قصد مولاه

كلام الله حق علينا ... وما محمّد إلاّ نبيّنا

(١) السّلكة: بفتح السّين على وزن فعلة الدالّ على اسم المرّة من سلك الطريق إذا ذهب فيه، فاستعير الطريقُ للقرآن الذي هو صراط الله استعارة مكنيّة لجامعٍ بينهما وهو إمكانيّة الوصول إلى القصد بسهولة ويسر بسلوكهما شِرْعةً ومنهاجًا؛ فكان الطلوع في القرآن حِفْظًا سَلكة، والهبوط فيه متابعةً للحفظ أو القراءة سَلكةٌ ثانية، ومعاودة قراءته من أوّله إلى آخره سَلكة ثالثة.

ارحمنا يا الله وارحم وَالْدينا والـلّي قَرَّاوْنا وارْضَاوْ عْلِينَا

أخذ عليّ الششتري العربيّة عن أبي بكر يحيى بن محمّد بن أرقم النميري، من أهل مدينة وادي آش وذوي بيوتها العلميّة وحسبائها. وقد أخذ هذا الشيخ الجليل عن أكابر علماء وقته كالقاضي أبي الحسن بن عليّ بن حسين الصدفي، وأبي الحسن ابن خروف، وأبي علي الرندي وأبي عليّ الشلوبين. وكان يدرس عليه كتاب سيبويه، فشبّ عليٌّ حاذقًا ماهرًا في علم العربيّة. كما أخذ عن ابن المرابط أبي بكر يحيى المرادي الأوريولي لمّا وُلّي قضاء وادي آش. وكان من جِلَّةِ من أخذ عنهم عدالةً وفضلاً وتمسّكًا بالسُّنّة عقدًا وفعلاً، كما كان كاتبًا جليلاً وأديبًا بارعًا متورّعًا سريًّا، خاتمة القضاة في العدل. أمّا في الزهد والتصوّف والرقائق فقد أخذ عن أبي الحسن علي بن محمّد بن بقي الغسّاني، الذي أودع في الفتى حبّ أهل الله والزهد في الدنيا والإقبال على الله في كلّ شيء. ومن بين من تأثّر بهم كثيرًا وليُّ الله أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي، وكان يأتي كثيرًا إلى بُجانِس، وهي من قرى وادي آش ليزور قرابته في هذه القرية، وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسي. وكثيرًا ما كان يجلس إليه عليّ فيؤثّر فيه بكلامه ويحضّه على الخدمة وطرْحِ النفس. وممّا يذكره له إعجابه الشديد بمحيي الدين بن العربي الحاتمي، وكان يحفظ أشعاره الكثيرة، ويردّد عَلَى عَلِيّ قصيدته

التي أنشدها في تونس لصديقه عبد العزيز المهدوي:

أنا القرآنُ والسَّبعُ المثاني ... وروحُ الروح لا روحُ الأواني
فؤادي عنْدَ مَعلومي مقيمٌ ... يناجيهِ، وعندكُمُ لساني

ثم يذكر لهم إنكارهم عليه، وعدم فهمهم لمقصوده لمّا رحل إليهم سنة ٥٩٠ هـ، فَلَمْ يطّلِعُوا على مَقامه لِمَا أَعْطَاهُ مِنْهُ ظاهرُ الحال وشاهدُ النصّ. وكان الشيخ أبو مروان يفيض في هذا الحديث كما لو أنّه يريد أن يبلّغ رسالةً، أو ينقش في نفْسِ عليّ نفْسَ ما حصل للحاتمي مع أكابر وقته، إذ لم ينفذوا ببصائرهم لمعرفة ما يحوم عليه وما ينطوي عليه. فما أنشد الحاتمي أوّل بيت من تلك الأبيات إلاّ وقد كاد عبد العزيز المهدوي أن يصعق من هَوْل ما سمع، وعِظَمِ المقام الذي رامه. ولم يفطن لمقام الحاتمي إلاّ الشيخ ابن خميس الجرائحي، فتكاشفا معًا في حضرة عليّة. ولكنّ الحاتمي كان يحبّ صديقه المهدوي فكتب له ولأصحابه كتاب مشاهد الأسرار القدسيّة، يحتوي على مقدّمة فيها بيان لعلوم الأولياء التي يخاطبهم بها الحقّ في سرائرهم.

كان الششتري يتعجّب كثيرًا من هذا الشيخ الذي لا يذكر له شيوخًا درس عليهم، بل كان عصاميًّا. وكان الغالب عليه اليقين، وكثيرًا ما كان الشيخ يتكلّم مع الششتري في هذا المقام. ومرّة سأله قائلاً: كيف حصّلت كلّ هذه العلوم يا سيّدي مع أنّك لم

تجالس العلماء أو المشايخ؟ فأجابه أبو مروان قائلاً: سأطلعك على سرّ لم أخبر به أحدًا سواك. يا ولدي إنّ وراثتي من العلم النبوي هي من نعت أمّيّة الرسول ﷺ. إنّه لم يأخذ عن آدمي بل علّمه الله من عنده. ومنذ عقلت وأنا أدرج على هذا السَّنَن، فكنت دائمًا أسأل الله أن يعلّمني من علمه.

وكيف كنت تصنع حينما تعرض لك أمور متشابهة؟

فأجاب الشيخ: أقام الله تعالى من باطني شيخًا

فقال عليّ: وكيف ذلك؟ فقال أبو مروان: كنت إذا عرض لي أمر من الأمور نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك، أحدهما محمود والآخر مذموم، فأتجنّب المذموم وآخذ بالمحمود. فإذا وصلت بلدًا سألت العلماء فوافقوني إلى ما فعلت.

ثم كان ينصح عليًّا بقوله: يا بنيّ، من حافظ حوفظ عليه، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه، ومن أخلص العبوديّة لربّه قام الأحرار خَدَمة بين يديه. يا ولدي اعمل بهذا الذي قلت لك وسترى العجب. وإنّي أرى عليك أمارات الفتح إن شاء الله، فاجتهد.

كان مقام أبي مروان اليقين وبعد أن عَبَّ عليّ من علوم القوم

مع شيخه وارتوى منها، انتقل إلى تحصيل المقامات، بالعلم والعمل. فكان يدرس معه اليقين من كتاب كان يأتي به كلّما حضر، حتى عرَّجا على جميع فصوله. وفي اليوم الذي أنهياه، أعلمه أبو مروان أنّ صاحب الكتاب هو الشيخ محيي الدين بن العربي المغربي نزيل دمشق. وحكى له قصّة تأليفه لهذا الكتاب بعد مذاكرة جرت بينهما في الطريق إلى الخليل، فقام يقرأ في ذكر سبب التأليف: «كان سبب إنشائي لهذا الكتاب أنّي زرت الخليل عليه السلام، ثم خرجت من عنده قاصدًا زيارة لوط عليه السلام، أنا وصاحبي الشيخ العارف الصوفي صائن الدين أبو العبّاس أحمد ابن إبراهيم بن عبد الملك بن مطوف المرّي، وعفيف الدين أبو مروان عبد الملك بن محمّد بن حفاظ القيسي، فمررنا في طريقنا بمسجد اليقين موضع إبراهيم عليه السلام، فأقام الله في خاطري أن أضع جزءًا في اليقين في هذا المسجد المعروف باليقين. فاستخرت الله تعالى وقيّدت هذه العجالة بالموضع المذكور في يوم الزيارة، وذلك يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة اثنتين وستمائة. وأسمعته صاحبيّ لقراءتي، وصلّينا الظهر في ذلك اليوم وانصرفنا إلى لوط عليه السلام. نفعنا الله وإيّاهما وجميع المسلمين بالعلم آمين بعزّته».

فقال عليّ: أسأل الله أن أحصّل هذا المقام كما حصّلته مع الشيخ ابن العربي. فقال الشيخ عفيف الدين: بل إنّك قد حصّلته

يا ولدي. نفع الله بك. فأرجو أن **تَسِمَ سمةً** في هذه البلاد **ويصيد** سرُّك عين اليقين. واحرص يا عليّ كلّ الحرص أن تجمع السمسمات السبع من طباق الأرض السبعة. فقال عليّ: وأين هي تلك السمسمات يا شيخ؟ فقال أبو مروان: أنت الآن حصّلت السمسمة الأولى في الإقليم الأوّل، وبقي أن تجمع باقي السمسمات لتفتح باب بلاد صاد. فاسرح في أرض الله الواسعة وستجد الباقي في أرض اليقين.

ثم سأل عليّ شيخه عن سبب تسمية ذلك الموضع بمسجد اليقين فقال أبو مروان: سُمّي كذلك يا ولدي لأنّ الملائكة لمّا بشّرت إبراهيم الخليل عليه السلام بإسحاق، تركته في ذلك الموضع وأخبرته أنّها تسير لإهلاك قوم لوط، وأمروه بلزوم ذلك الموضع حتى يأتي إليه لوط عليه السلام. فلم يزل في ذلك الموضع حتى أبصر مدائن قوم لوط في الهواء وسمع ضجيجهم وهو قوله تعالى ﴿فجعلنا عاليَها سافِلَها﴾. فعندما أبصر ذلك سجد لله في هذا الموضع، وأثّر بروكُه في تلك البقعة اليابسة، وقال: أشهد أنّ هذا هو اليقين، فسُمّي مسجدًا لأنّه موضع سجوده، وسُمّي اليقين لقوله: هذا هو اليقين. وفي نهاية الجلسة تفضّل الشيخ على تلميذه بنسخة من الكتاب رجاء أن يحقّقه الله بمقام اليقين ويَعْتَصِر زيْتَه من سِمْسِمَتِهِ في أرض الله الواسعة. وكان عليّ يلحّ في السؤال ويطلب من الشيخ أن يُفهمه الفرق بين علم اليقين

وعين اليقين وحقّ اليقين. فكان يجيبه على قدر آنيته، لكنّ الفتى كان يطرح على الشيخ أسئلة تدلّ على رسوخه من قبيل: هل اليقين رتبة متميّزة في العلم والإدراك أم أنّه ملازم لكلّ رتبة؟ فيقول الشيخ: بل لكلّ رتبة يقينها، فالجاهل له يقينه، والظانّ له يقينه، والشاكّ على رغم شكّه له يقين في ذلك الشكّ. فكلّ واحد من هؤلاء صاحبُ يقينٍ، قاطعٌ بحاله، علمًا كان أو غير علم. فقال الفتى: فأين المزيّة والفرق بين الجاهل والعالم؟

أحسنت يا ولدي، المزيّة في شرف اليقين، وشرفُه بشرف المتيَقَّنِ، ولهذا أمر الله تعالى رسوله قائلاً ﴿واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيكَ اليقين﴾ فجاء به معرَّفًا غير مضاف. فقلت: يا سيّدي هذا مقام العارفين، لكنّ اليقين قد يأتي بلا ألف لام لأهل الملام، كقوله ﴿وما قتلوهُ يقينًا﴾، فهذا اليقين الثاني ليس له محلّ يقوم به إلاّ القتل وهو معنى، وقد تأكّد لمعنى القتل أنّ عيسى عليه السلام لم يُقتل. وهذا مبحث لطيف حول جواز قيام المعنى بالمعنى من عدمه.

هكذا كان عليّ يرتوي من هذا الشيخ الذي غرس فيه اليقين على حداثة سِنّه ووُسْعِ مداركه وتَنَوُّرِ استعداده.

# ٤

ومن بين أقرانه الذين كانوا يدرسون معه في ذلك الوقت صديقه عبد العزيز بن منيع الضرير. وكان عليّ يَبُرُّ به ويقتاده إلى شيخهما في القرآن. وقد بدأت أمارات النباهة تبدو على عليّ، فقد شفَّ أقرانه الآخرين في القراءة والتحصيل. وكان أساتذته قد عيّنوه سارِدًا لديهم، فكان يسرد الحديث ويتلو القرآن بصوت نديٍّ عذب النغمات، مؤتلف الوصلات. وكان لقراءته أثر في القلوب، كما وهبه الله كتابة حسنة وخطًّا جميلاً تعلَّمه من مؤدّبه أبي الكرم جودي بن عبد الرحمن. ومن بين أساتذته الآخرين الخطيب أبو الحسن محمّد بن أبي عبد الله محمّد بن بالغ. وكان هذان الأستاذان يُدرِّسان أيضًا ببسطة، شمالي شرقي وادي آش، فحين تسنح الفرصة بذلك كان الولدان عليّ وعبد العزيز يذهبان للأخذ عنهما هناك. وقد تكلّم الأستاذان في الأمر مع والد علي الششتري في هذا الأمر، وبيّنا له وجه المصلحة في انتقال عليّ وصديقه الضرير إلى بسطة، حتى يسمح لولده بذلك، لأنّهما كانا متشبّثين

بالسارد عليّ وصديقه الذي كان ينوب عنه في بعض الأحيان، فأقرّهما على الأمر وأوصى بعض رجاله باصطحابهما لبسطة والعودة بهما بعد ذلك في اليوم الموالي. كان لهذا الأمر الجديد أثره في نفسيّة عليّ بحيث كانا يسلكان الوادي الذي يفضي إلى بسطة من ناحية الشمال، ويتركان الجبال المكسوّة بالثلوج إلى الجنوب، والتي كانت تفصل بين وادي آش وبسطة.

لقد ساعدت الهدنة التي عقدها المستنصر على التنقّل بحرِّيَّة وأمان في مختلف هذه المناطق. ومع ذلك، فلم يكن عبد الله يأمن على ولده إلاّ بعد تأكّده من توفير الحماية اللازمة له ولصاحبه. وخلال هذه السفرات التي كان يقوم بها الولدان تفتّقت قريحة الشعر لدى عليّ من هذه المناظر الجميلة، فكان يتبارى مع صديقه عبد العزيز على حفظ الأشعار التي كانت متداولة وقتها، وخاصّة ما تعلّق منها بوادي آش وشعرائه. ومن ذلك حفظه لقول أبي الحسن بن نزار:

وادي الأشات يهيج وجدي كلّما ... أذكرتُ ما قضَّتْ به النعماءُ
لله ظلُّكَ والهجير مسلَّطٌ ... قد بَرَّدتْ لفحاتِه الأنداءُ
والشمسُ ترغب أن تفوزَ بلحظةٍ ... منه فتطرف طرفَها الأفياءُ
والنهر يبسِمُ بالحَبَابِ كأنّه ... سِلْخٌ نَضَتْهُ حيَّة رقشاءُ
فلذاكَ تحذرهُ الغصونُ فميلُها ... أبدًا على جنباتِه إيماءُ

كما كان عليّ يحفظ شعر حمدة بنت زياد بن بقي العوفي، خنساء المغرب وأديبة الأندلس وإحدى المتعففات المتأدّبات. وكانت حمدة تسكن وادي الحمة بقرية بادي، وكانت من أهل الجمال والمال والصون، فكانت تخرج للنزهة في الرملة من وادي آش. فكلّما مرّ عليّ وصديقه من هناك، كان يصرّ على تحيّة حمدة وأختها زينب، إذا صادف وجودهما، فتبادله التحيّة وتدعوهما في بعض الأحيان للجلوس إليها وإسماعهما بعض الشعر تحت شجر القسطل الذي كان منتشرًا في وادي آش، بل كانت بعض الأشجار في غاية الضخامة. وكان عليّ يحبُّ ازْدِرَادَ ثمر القسْطل الذي كانت تشويه حمدة وتناوله للصبي المتلهّف لهذه الجلسات التي تشعره بحرِّيَّته المتزايدة واستقلاليّته المتنامية. وكان الجندي المرافق للصبيّين يتأبّى في بعض الأحيان من موافقتهما لمجالسة حمدة، لكن واقع الحال كان يدفعه لمثل هذه الجلسات، يسترق خلالها السمع ويملأ أصماخه بالأخبار الأدبيّة والنكت النسويّة. ومن ذلك ما حصل لحمدة ذات يوم وقد ذهبت تسبح في النهر. وكان عليّ مع صاحبه عبد العزيز، أمّا الجندي فقد ذهب لزيارة بعض أقاربه وتواعد أن يعود إليهما بعد ساعة. وبينما كان الفَتَيَانِ يتنزّهان إذ وصل إلى سمعهما ضحك نسائي، فاسترقا السمع ليعرفا الموضع الذي أتت منه تلك الضحكات، وبينما هما يتجسّسان على مصدر الصوت إلى أن أزاحا غصن شجرة أُمّ الشُّعُور فتبدَّت لعليّ حمدة وقد نَضَتْ عنها

ثيابها كما ينضو الثعبان عنه إهابه، ورمت بهذا القدِّ المائس في الوادي سابحة، رفقة صبيّة كانت تصحبها. فلم ينبس عليّ بشيء وكان صاحبه عبد العزيز يلحّ عليه ليطلعه على جليّة الأمر، لكنّه لم يذكر له شيئًا ممّا رأى، وطلب منه أن يصمت حتى يستطلع أمر النسوة. أمّا الفتى الضرير فلم يصبر على صاحبه إلى أن قال له عليّ: إنّ بعض نساء وادي آش يتنزّهن في الوادي. ثم طلب منه أن لا يبرح مكانه حتى يذهب لمعاينة الأمر والتحقّق منه. اقترب عليّ من حمدة والصبيّة وأمعن النظر في كمال خِلقتهنّ ووُفور أجسامهنّ وبضاضة إِهَابِهِنَّ، فأحسّ بنشوة لم يعهدها من قبل، ورغب في السباحة معهنّ، لكنّه كان يكبت مشاعره حتى ذُهل عن وضعه، فبينما هو يتقدّم بين الأغصان التي كانت تواريه عن الأعين إذ داس بنعله غصنًا يابسًا فانكسر الغصن وأحدث فرقعة قويّة، فَتَلَفَّتَتْ حمدة والصبيّة مذعورتين، لكن حمدة حافظت على رباطة جأشها على الرغم من وضعها المحرج فقالت: مَنْ هناك؟ لكنّ الفتى لم يجرؤ على الكلام ولم يستطع الفرار، فبقي مُسَمَّرًا في مكانه. ثم ألَحَّتْ حمدة في السؤال وثنّتْ بالوعيد وقالت: أنت يا فلان، اُخرجْ من مخبئك وإلاّ ناديت على أهل البلد فيفتكون بك. حينها، خشي الصبي من سوء العاقبة فدفع برجليه بارزًا حتى كشفت عنه أمّ الشعور أغصانها، كاسفَ الوجه، حائرًا فيما سيصنع. وبينما هو غارق في هذا الضمور، انفجرت حمدة وصاحبتها بالضحك. فلم يتمالك

الصبي أن فار الدم في عروقه وصعد إلى دماغه، وقال لهما: وما يضحككما؟ لكنّ حمدة استمرّت في الضحك من هذا الفتى المتجاسر، فقالت له: أنسيتَ أنّك كنت تتلصَّصُ علينا وأنّنا ضبطناك متلبّسًا بهذه الجريرة يا عليّ؟ لكنّ الفتى لم يسكت لهذا الاتّهام، فقال لها: لم أكن أقصد أن أتجسّس عليكما، لكنّني كنت مارًّا من هنا كالعادة مع صاحبي عبد العزيز، فبلغت أصماخنا قهقهاتكنّ، فخشينا على نسوة البلد وغرضنا الهبوب للنجدة، وعُجنا نستطلع الأمر، لكنّي تركت صاحبي خلفي وجئت بمفردي حتى وقفتُ على ما كنتما عليه. فقالت له حمدة: لا بأس عليك يا عليّ، ولكي تُطمْئِنَهُ قالت له: اذهب فَائْتِ بصاحبك حتى لا يتعثَّر بحجر فيسقط في مسيل الوادي. لم يكد عليّ يصدّق ما يسمع فراح مهرولاً ثم عاد يقتاد عبد العزيز، والضرير يريد أن يضع صورًا ذهنيّة لما لا يستطيع إبصاره. ولعمري إنّ لذّتَه أكبر، ولهفَه أعظم بفعل الخيال المجنّح الذي يسرح به في كلّ اتّجاه، فلذّته معنويّة. إنّ خياله دائمُ الاشتغال، وتنفتح أمامه خيارات كثيرة في وضع مثل هذا، فهل هو إزاء إنسيّتين أو جِنِّيَّتين أو غير ذلك. كان خياله يصوّر له احتمالات كثيرة فكان يسرح مع كلّ احتمال حتى يستوفيه، ثم ينطلق مع احتمال ثان وثالث، فلم تكن لذّته لتشبع أبدًا. لمّا وقفا حيث كانت تستحمّ الصبيّتان، دعتهما حمدة إلى التجرّد والسباحة معهما بدأ عليّ يسلخ عنه ثيابه وتبعه عبد العزيز لكنّه انتهره قائلاً: ماذا تفعل يا

عبد العزيز؟ لكنّ الضرير لم يجبه إلاّ بحاله. فقال عليّ: أنسيت أنّك لا تحسن السباحة، ولربّما ذهب بك التيّار وأنا لا أقوى على حملك وإنقاذك من الغرق، فاثبتْ حيث أنت وضعْ ثيابك عليك. لكنّ الضرير لم يجبْ على اعتراض صاحبه إلاّ ببضع همهمات ساخطة. لقد كان عبد العزيز يعلم أنّ هذه الآفة التي دهمته وهو صبي، ولم تكن ذاكرتُه قد بلغتْ أشدّها وقتها، بحيث لم تكن له قدرة على تَذَكُّرِ ما فتح عينيه عليه وهو صغير. عضَّ المسكين أصبعه حسرة على عاهته وقَرَعَ أنْمُلَهُ بحِدَّة، وفكّر في حاله البئيس، فالمكفوف بين المبصرين أشبه برجل أعزل في ساعة القتال، فهم يتندّرون عليه ويسخرون منه ويتغامزون عليه، وهو لا يَفْطن لصنيعهم، وإن فطن لذلك حين تصدر عنهم أصوات مكتومة، فليس له إلاّ الحزن والكمد. وليس له سبيل لتحقيق أغراضه إلاّ بمعونتهم، فهو عاجز عن تحصيل شؤونه من دون مساعدتهم وبِرِّهِمْ. وإذا أعانوه أهانوه بكلامهم وأوامرهم. وإن أعانوه استوجب منه حمدهم وشكرهم. وإن شكرهم خالط شكرَه الأسى والحزن، حتى إنّه ليفضِّل أن يبقى محرومًا بدل أن يمنّوا عليه بعونهم. وحتى إن لقي منهم الرأفة والرحمة فإنّها إهانة لديه، إذ تُذكِّره بخصوصيّته وتفرّده وعزلته، وهو لا يرغب إلاّ في أن يعامَل كسائر الناس. هكذا تلقّى عبد العزيز ملاحظة صديقه، لكنّه كتم غيظه وألمه في نفسه.

ولسرعان ما ألقى عليّ بنفسه في الوادي فرشقته الصبيّتان بالماء

ولعبوا ما وسعهم الأمر، والأعمى جالس على الشطّ، مسندٌ وجهه إلى كفّه، والحسرة تكاد تقتله. كان المسكين يتمنّى أن ينضمّ إلى هذا الجمع، لكن عاهته حالت بينه وبين هذا المبتغى، فأطلق العنان لخياله. فهو يسمع الجمع يتحدّث عن جمال الطبيعة وانسجام الألوان وخضرة الأشجار، والمزاوجة الحاصلة من الوصف بين الجواري ذوات القدود والخدود وحمائل العيدان والورود، وقسْ على ما ذُكر من أنواع المناسبات بين السماء والأرض والنجوم والأنهار، فمن أين له أن يدرك معاني كلّ هذه الأشياء وهو قد حُرِمَ البصر بها والنظر إليها، فليس له إلاّ خياله المجنّح ولا شكّ أنّه قد يورده مواطن الرَّدى والهلاك. فخيرٌ له أن يقلِّد غيره في حفظ الأوصاف الجارية، ومن أين له بصناعة النثر أو النظم، إلاّ إنْ آثر السلامة في التقليد، فلا يُذْكرُ في المطبوعين، وإنّما يُنسب إلى جملة المقلّدين، المُمَخْرقين بأنواع البديع وصناعة الكلام. استمرَّ اللعب والدعابة والتراشق بالماء ساعة من الزمن، ثم خرجوا أخيرًا وجفّفوا الماء. وبعد أن جلسوا على البساط الذي أحضرته النسوة استيقظ واعزُ النظم عند الجماعة فقال عليّ لحمدة: هلاّ أنشدْتِنا شعرًا بالمناسبة؟ اطَّلعتْ حمدة بفضل حدس أنوثتها على مَخْبر عليّ ورأت دموع فرحته التي حاول أن يواريها بنَضْح ماء الوادي على وجهه، وعاينت إعجابه بالصبيّة التي كانت ترافقها، وكانت تلك الصبيّة تقاربه سنًّا، فرفعت حمدة صوتها قائلة

على لسان المحبّ المستتر، غزلاً رقيقًا في الصبيّة التي سدلتْ ذُؤابةَ شعْرها تريدُ تسريحَه وتجفيفَه من ماء الوادي:

أباحَ الدمعُ أسراري بوَادي ... لهُ للحسنِ آثارٌ بوادي
فَمِنْ نهرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ... ومِنْ رَوْضٍ يَرفُّ بكلِّ وادي
ومنْ بين الظِّباءِ مهاةُ إنْسٍ ... لها لُبِّي وقَدْ مَلكَتْ فؤادي
لها لحظٌ تُرقِّدهُ لأمْرٍ ... وذاكَ الأمرُ يَمْنَعُني رُقادي
إذا سدلَتْ ذَوائِبَها عليها ... رأيتَ البدرَ في جُنْح الدَّآدِي[1]

---

(١) الدآدي: ثلاث ليال من آخر الشهر القمري.

# ٥

بعد هذه اللقاءات مع حمدة، طلب عليّ من والده أن يأذن له في أن يختلف إلى المؤدّب أبي الكرم جودي بن عبد الرحمن الأديب، عملاً بوصيّة حمدة التي تأدّبت عليه هي الأخرى. وكان هذا المؤدّب راوية مكثرًا، حافظًا للقرآن، عالمًا بالعربيّة. وكان يجمع إلى ذلك معرفة بالنبات، مع اشتهاره بالآداب وتفنّنه فيها ومنه تعلّم عليّ حسن الخطّ وفاق غيره في ذلك. كما تعلّم منه أسماء النباتات وخصائصها وأشكالها، وصار يُكثر من استعمالها في نظم الشعر ووصف العيون بالنرجس والنهود بالسفرجل، والسرر بالتفّاح والقدود بأعواد قصب السكر، والمباسم بقلب الجوز، ممّا درج عليه الاصطلاح عند أهل الأندلس. لقد كانوا يعيشون في جنّة دائمة قطوفها دانية؛ ففي النهار يتمتّعون بالبساتين والجنان والرياض، وفي الليل يخلدون إلى جِنان ما متّعهم الله به من السحر الحلال في خدور أزواجهنّ. فترى الواحد منهم دائم التنزّه، يقطف هذه الثمرة ويشمّ تلك الزهرة وينظر في تلك

النرجسة، ويلمس تلك التفّاحة ويقضم تلك السفرجلة. وقد أكسبتهم هذه الحياة شاعريّة كبيرة، وأدبًا جمًّا، ورخاوة في السلوك، وإحساسًا فنّيًّا بالجمال، وتذوّقًا لكلّ جميل في الكون.

أخذ الفتى من أستاذه بضاعته ومهارته، وأخذ يصحبه في جولات تعليميّة وأدبيّة إلى منتزهات وادي آش، فيصادفون في بعض الأوقات حمدة أو قد يتواعد عليّ معها بغية أن يرى مهجة، وهي الصبيّة التي كانت ترافقها ولم يكن يُعَكِّرُ عليهم صفْوَ مجالسهم إلاّ ما كان يبلغهم من أخبار خروج التتار في بلاد الإسلام وحلول المَسْغَبة والمجاعة. وكان مؤدّبهما يأتي إليهم بهذه الأخبار مرّة بعد الأخرى حتى لا يشبّ الجمع في غفلة عمًّا كان عليه أمر المسلمين.

وكان المؤدّب يترك لهم الفرصة لاستطلاع آرائهم، على ما هم فيه من الغفلة بهذا النعيم الذي يرتعون في رياضه. وكانت طريقته تلك مدخلاً إلى إيقاظ مشاعر النجدة والشجاعة والجلال، فكان عمله محمودًا، له أثر عظيم في نفسيّة هؤلاء الفتيان والصبايا فمن قائل بتوحّد المسلمين لصدّ الغزاة، ومن ضارع بالدعاء، وثالث لا يرى بدًّا من الهجرة والفرار أمام زحف هؤلاء البرابرة. وبتنوّع هذه الآراء كان يتشكّل وعي هؤلاء وتتّسع مداركهم.

وممّا زاد الأمر مرارة، تكالب الأمم على المسلمين، المغول

من الشرق الأقصى، والفرنج من المغرب. كان المؤدّب يطرق هذه المواضيع حتى لا يذهب الأدبُ بالغضب، ولا الغضبُ بالأدب. فعلى الرّغم من الهدنة المعقودة بين الموحّدين وملك قشتالة، إلاّ أنّ خطرهم قادمٍ، واستعداداتهم بادية للعيان، والمسلمون سادرون في غيّهم، لا يَهُمُّ وُلاتِهِم سوى المناصب والكراسي، بل قد يتحالف بعضُهم مع عدوّهم ضدّ إخوتهم في الدين، فيستأسدون عليهم ويُعملون فيهم السيف، لا يهمّهم سوء العاقبة يوم تبلى السرائر والعلائن.

ولمّا اشتدّ الغلاء، واشتكى منه الظاعن والمقيم، منع عبد الله ابنه من مغادرة شِشتر، مخافة أن يفتك به قُطّاع الطرق، فلزم الفتى بيته وقريته، ولم يعد يخرج للمنتزهات التي لم تعد كما كانت بسبب الجفاف. وقلَّ الماء وشحَّتِ الأرض بخيراتها، وتناهى الحال في زيادة الأسعار إلى ما لا نهاية له، وتضرّر الناس من هذا، لكنّ الخليفة المستنصر بالله فتح المخازن المعدّة لخزن الطعام وفرّق على الناس، وبيعت بثمن للأغنياء وبثمن أقلّ للفقراء، كلّ حسب طاقته على مواجهة هذه الكارثة. وزاد إقبال الناس على المساجد، وحثَّ الصوفيّةُ وأهلُ الصلاحِ الناس على الرجوع إلى الله وإقامة رسم الدين، واجتناب المنكرات والمناهي وفعل الخيرات، والإقبال على الله في كلّ دقيق وعظيم. وكان لهذه الأحداث دورها في رجوع كثير من الناس إلى الله واقتداء

كثيرين منهم بالأخيار والصالحين حتى فرَّج الله هذه الضائقة.

ولم تكد تنتهي هذه الأزمة حتى أسلم الخليفة المستنصر بالله الروح إلى باريها وهو لم يجاوز العشرين من عمره. وبويع بعده لعبد الواحد المخلوع، وكان شيخًا، فلم يُوفّ عامَه حتى خُلع وقُتل مخنوقًا بعد أيّام من خلعه. وقد خالف عليه ابن أخيه عبد الله الملقّب بالعادل، والي مرسية، فتخلّص الأمر بالخلافة إليه بعدما بويع بالأندلس حتى قُتل عبد الواحد المخلوع، فوصلته بيعة الموحّدين.

لم تؤثّر كثيرًا هذه الحوادث على وضع أسرة الششتري، فقد أُقِرَّ عبد الله في مكانه ولم يُنقل إلى مكان آخر. لكنّ تحالفَ والي قرطبة الجديد مع النصارى وقيامَهُ بخلع بيعة العادل أفضى إلى قلاقل كثيرة، حيث قام عبد الله البياسي الوالي على تلك الحاضرة، فأدخل النصارى قيجاطة وغيرها، ودلَّهم على عورات المسلمين، فتملّكوا الأموال وسبوا النساء والأطفال. بل إنّ هذا الوالي اللّعين قد خرج عن دين الإسلام ودخل في ملّة الكفر على شيخوخته. ولا شكّ أنّ في اسمه شيئًا من إبليس، فليس غريبًا أن تصدر منه تلك الشنائع، والعياذ بالله. وتمادى التطاول بهذا اللّعين حتى حاصر إشبيلية. وكان واليها أبو العلا المأمون، أخو الخليفة. ودارت بين الفريقين معركة انهزم فيها البياسي وفلوله.

وبعد أَوْبَتِهِ إلى قرطبة قام عليه أهلها وقتلوه وبعثوا رأسه إلى والي إشبيلية الذي بعث رأس الخائن إلى مراكش. لم تهدأ القلاقل، فقد قامت بعض قبائل الموحّدين على العادل وقتلوه، وقبل ذلك كان أخوه المأمون قد خلع بيعته من عنقه، فلمّا قُتل خلا له الجوّ ودعا لنفسه بالخلافة. كما أنّ قبائل الموحّدين في مراكش بايعت لأبي زكريّا يحيى الناصر. ونكث الموحّدون بيعاتهم فجاز إليهم المأمون وجلس في مراكش وهزم يحيى الناصر الذي فرّ إلى الجبال. وأمام نكث بيعاتهم أمر المأمون بزوال اسم المهدي من السِّكَّة والخطبة، ومحا ذكرَه في جميع البلاد. وكاتبهم في هذا الشأن بقوله «ولتعلموا أنّا نبذنا الباطل وأظهرنا الحقّ، وأنّ لا مهدي إلاّ عيسى بن مريم، وما سُمّي مهديًا إلاّ أنّه تكلّم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها».

ومن أعظم البلايا التي حدثت في الأندلس خروج ابن هود. وكان في أوّل أمره من كبار الجند في مرسية، فاتّحد مع أحد اللصوص، اسمه القائد الغشتي. وكان تحت هذا اللّص جماعة من أراذل اللصوص يعيثون في الأرض فسادًا، ولم ينج منهم مسلم ولا نصراني. فاجتمع ابن هود بالغشتي وأخبره بأخبار المنجّمين في حقّه وظهوره على الموحّدين واستعانته به. ولمّا سمع الغشتي بهذه البطولات، وكان يؤمن بهذه الخرافات، سرّه شأنها فأعان ابن هود على تملّك البلاد وأخذوا يشنّون الهجمات على المدن

مكتبة الرمحي أحمد

الأندلسيّة ويكسبون المعارك والغنائم حتى بويع ابن هود في مرسية. فلمّا تسامع به الناس وفدوا مبايعين لعلمهم بما كان عليه أمر الموحّدين من الخلع والقتل بعضهم لبعض. فهزم والي مرسية وبلنسية ودعا بدعوة العبّاسيّين، ورفع شعارهم وهي الراية السوداء. فلمّا سمع به الناس هَبُّوا لنجدته وخلعوا بيعة الموحّدين، فملك البلاد وجنَّد الأجناد، واستولى على إشبيلية وأقام صاحبه الغشتي قائدًا حربيًّا، وأعطاه قيادة أسطولها والنظر في أحوالها وتسمّى ابن هود بمعزّ الدين وتلقّب بالمتوكّل على الله. وقد كان المأمون قد غفل عنه لاشتغاله بأمر الموحّدين في مراكش، وهي قاعدة ملكهم. وقام ابن الرميمي لدعوة ابن هود في ألمرية، فطاعت له غرناطة ومالقة وأكثر البلاد، وطورد الموحّدون في كلّ ناحية وقُتلوا، واستأصلهم الناس، إلاّ من ستره الله.

# ٦

بعد تكاثر الأحداث وتناوب الأمر بين الأدعياء وقيام الفتن والثورات المتتالية، صرف عبد الله ولده عن شؤون الدولة ليشتغل بالتجارة. وكانت نفس عليّ توّاقة للتجوال في بلاد الأندلس، كما كان يحبّ التجارة. ولمّا كان يختلف إلى بسطة كان يشتري من هناك بعض الثياب المحرّرة، وخاصّة منها الملبّد المختّم ذا الألوان العجيبة، ويتاجر بها لفائدة والده فشبّت نفسه على حبّ الجمال. كانت الجولات التي يقوم بها إلى المدن المجاورة لوادي آش سببًا في الوقوف على كثير ممّا لم يكن له به عهد في بلده. فكان يلتقي بالعلماء ويأخذ عنهم، كما يخالط التجّار ويحذق بمخالطتهم شؤون التجارة. وكان يجلس إلى الأدباء والشعراء ويروي عنهم. ولقد أكسبته هذه الجولات المتكرّرة دربة وفطنة وأدبًا وعلمًا وبدأ ينظم الشعر حينما تسنح له سانحة أو يَرِدُ عليه خاطر ربّاني وهو واقف على وادي آش يستشعر عظمة الخالق، فمن ذلك قوله:

كـنـتُ عـلـى شـاطـئ وادي حـتـى سـمـعـتُ الـمـنـادي

أعـطـيـتـكُـم يـا عـبـادي مـن قـبـلِ أن تـسـألـونـي

وقد استقرّ مدّة في مدينة مالقة للعلم والتجارة في المنسوجات. وقد عرفت مالقة بفخّارها المالقي ومنسوجاتها الرفيعة. أمّا الفلاحة، فقد ازدهرت فيها زراعة التين واللوز والكروم والزيتون. والتقى في هذه المدينة بعلمائها وأدبائها. ومن بين جلسائه وشيوخه الشريف الحسني أبو عبد الله محمّد بن عيسى المومناني السبتي. كان عليّ يختلف إليه كثيرًا ويسمع منه، ويستعير بعض كتبه التي لم تكن عند أحد في الأندلس، فوقف على كثير من العلوم والمسائل والقضايا. ولم يكن أبو عبد الله من أهل مالقة إلاّ أنّه استقرّ بها أيّام الأمير ابن هود. كما كان يختلف إلى أبي بكر ابن خميس المالقي وخاله أبي عبد الله محمّد بن عسكر. وكانت الرياسة العلميّة والقضاء في مالقة لابن عسكر. وكان عليّ يدرس في مالقة ويقرئ القرآن بالقراءات. ومرّة قرأ بعض طلبته عليه ﴿إنّني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني﴾، فأصابه حال عجيب وأنشد للتوّ:

انظر لِلَفْظِ أَنَا يَا مُغْرَمًا فيه من حَيْثُ نَظْرتُنا لَعَلَّ تَدْرِيهِ

خَلِّ ادِّخارَكَ لا تفخرْ بعارية لا يستعيرُ فقيرٌ مِنْ مَوَالِيهِ

جُسومُ أَحْرُفِهِ للسِّرِّ حاملةٌ إنْ شئتَ تعرفهُ جرِّبْ مَعَانيه

استيقظتْ في عليّ دواعي الرجولة، فكان يختلف مع بعض أقرانه إلى منازه تلك المدن يشرئبّ إلى طلوع البدور الحسان من هناك. ومن دواعي تَسَلِّيهِ معاكسةُ الروميّات، لذلك كان يتواعد مع بعضهنّ في دور عبادتهنّ حيث لا رقيب ولا حسيب. وكانت الفرنجيّات في غاية الرقّة والجمال، بشعورهنّ المذهّبة الشقراء وأجسامهنّ المكتملة وقدودهنّ الرفيعة، وظرفهنّ وطنزهنّ المألوف. فلم يكن فيهنّ خفر الأندلسيّات العربيّات، بل كانت بهنّ قِحَةٌ تثير الشباب والفتيان فيعاكسونهنّ حتى في كنائسهنّ. وبدل أن ينصرفن إلى العبادة كنّ يسدلن خُمُرهنّ ويتنقّبن فلا يكدن يُعرفن، فيأتي الفتى أو الشابّ ويتواعد مع واحدة منهنّ، وهي جاثية على ركبتيها تتصنّع الخشوع، فيهمس لها أو يناولها بطاقة يُعرب لها فيها عن مشاعره ويضرب لها موعدًا في موضع يجتمعان فيه. وكان هذا الأمر شائعًا بين شباب أهل الأندلس، فلم يشذّ عليّ عن القاعدة، وكان الجميع يعلم بذلك. أمّا القساوسة فلم يكن بإمكانهم منع حدوث مثل هذا الأمر لأنّ الاختلاط بين المسلمين وغيرهم كان شائعًا، والأنكحة بينهم متعدّدة. كان الفتيان يتنكّرون في ثيابهم ويدخلون إحدى تلك الكنائس ويجلسون على المقاعد المرصوصة في اتّجاه المذبح حيث يُقام القدّاس. وحينما كان يدخلون يستقبلهم ماء المعموديّة، فيلقون عليه نظرة خاطفة ويتسلّلون حتى لا يبهتهم أحد القساوسة أو يأمرهم بالتعميد

ثم يجلسون سريعًا في الخلف قرب السواري الضخام. وممّا كان يسهّل مأموريّتهم الظلامُ الذي كان يكتنف عادة الكنائس. فالشمّاسات لم تكن تسمح بمرور الضوء الكافي، وهذا من حسن حظّ هؤلاء الفتيان والفتيات. وقد أولع عليّ بفتاة روميّة جميلة، وقد رآها مرّة في سوق الثياب من مدينة ألمرية فأُغرم بها، لكنّه لم يستطع محادثتها، فمشى خلفها بين الأزقّة وهي تتهادى في مشيتها وقد علمت الفتاة أنّ عليًّا يترصّدها من خلفها فزادت في الدلال والغنج، والمسكين يتقطّع من الحرقة والولع، ثم ما لبثت أن وصلت إلى زقاق يُعرف بسبع لَوْيَات، وهو زقاق شديد الضيق لا يمرّ منه إلاّ شخص واحد، وبه سبع انعطافات، فكأنّه سبعة أزقّة. سالت الفتاة في الزقاق وتبعها عليّ، وفي الانعطافة الأولى للزقاق باغَتَتْهُمَا امرأة من الجهة المقابلة، فتوقَّفتِ الفتاةُ حتى تمرَّ المرأة ثم أكملت مسيلها في الزقاق. وكان عليّ يلهث خلف صاحبته لعلّه يظفر بها في هذا المكان الذي هو مظنّة الاختلاء والبوح بالأسرار وقطف القبلات، لكنّ المرأة داهمته، فركن في مكانه عند زاوية الانعطافة الأولى حتى يسمح لها بالمرور، لكنّ حركتها كانت بطيئة، كما أنّ آداب المرور في هذا الزقاق واضحة، والأسبقيّة للنساء، وما على المرء إلاّ أن ينتظر ويتنحّى في أحد مداخل الدُّور حتى يخلو الطريق. مرّت المرأة بعد أن أخذت وقتًا كافيًا بسبب حركتها البطيئة. وبعد أن جازت عاد عليّ يركض في

الزقاق، لكنّ الفتاة كانت قد اختفت من أمام عينيه. لفّ المسكين في هذا الزقاق العجيب لكنّه لم يعثر على صاحبته، وعاد خائبًا مستاءً من حظّه العاثر.

وفي اليوم الموالي عاد للسوق ليشتري بعض الأغراض مؤمّلاً أن يصادف حمَامَته التي فرّت من بين يديه، لكن بدون جدوى. وبينما هو سادِرٌ في ما حصل له بالأمس، إذ أقبل عليه أحد أقرانه ممّن كان لهم باع في معاكسة الفرنجيّات. فلمّا عاين عليًّا سأله عن سبب حزنه، لكنّه تأبّى عليه وأخفى سبب كآبته. عندها أراد هذا الصديق أن يُسَرّيَ عنه فقال له: تعال معي نمرح ساعة مع بنات الفرنج في كنيسة البلد. لكن عليًا كان مهمومًا بصاحبته فأراد الاعتذار. ولم يكن صديقه ممّن يقبل اعتذاره، فقد كان عازمًا أن يُسَرّي عنه وأن يمزحا بعض الوقت، وما لبث أن أقنعه بذلك، فكان يجرّه جرًّا وفي حيّ النصارى بالمدينة دخلا الكنيسة على غفلة من الناس وجلسا على كرسيّين متجاورين. بدأ القدّاس وكان القسّيس ينشد صلواته باللاتينيّة ويقرأ في كتابٍ بعضَ حكايات الإنجيل، ويناوله قسّ آخر ما يحتاج إليه. كما كان بعض الأطفال الصغار ينشدون جماعة، وهم يرتدون جلابيب بيضاء. وفي وقت الغناء استأذن صديقُ عليّ من صاحبه، وقام حتى جلس قريبًا من إحدى الفتيات، ولعلّها إحدى عشيقاته، فلمّا اقتربَ منها أشاحتْ بوجهها عنه تصنُّعًا للدلال، لكنّها لبَثَتْ في مقعدها ورفعتْ عقيرتَها

بالغناء مُماشاةً لباقي الحاضرين. كان عليّ يجلس في جانب مظلم من الكنيسة، التي كانت مكتظَّة بالرُّوَّاد، وكان أغلبهم من النساء والأطفال. وبينما كان القدّاس يتوالى، دخلتْ فتاة متنقِّبَةٌ فجلستْ بجانب عليّ، إذ لم يكن مكان فارغ غير ذلك الموضع بجانبه، التفتَ عليٌّ نحوها بسرعة لكنّه لم يَتَلَبَّثْ في تحديقه، ولم يظفر بهويّة الجالس. سايرت الفتاة الجمع في الإنشاد، وكان صوتها رخيمًا عذب النبرات، فطرِب لذلك عليّ، رغم أنّه لم يكن يفقه ما يقال إلاّ ما كان من بعض الكلمات التي كانت شائعة في بلده. ولشدّة طربه كان يُهَمْهِمُ بالإنشاد هو الآخر مُصَانِعًا لتلك الفتاة، التي تنبَّهتْ لصنيعه فتبسَّمَتْ والتفتتْ نحوه حتى تُشجِّعه على المُضِيِّ في الغناء. وكان صوت عليّ رقيقًا حسن النغمات، واسع المساحة، فأدركتِ الفتاة هذه الطاقة على الرّغم من انحباسها في الهمهمات التي كان يرجِّعها في حنجرته وبخياشيمه. ثم ما لبثتِ الفتاة أن اقتربتْ منه فلامستْ بفخذها فخذَهُ فهبَّ مذعورًا لكنّه ثبت في مكانه. ولمّا رأتْ فعلَه ضحكتْ ضحكةً ساخرة كَتَمَتْها بمشقّة. ثم عاودتْ صنيعها معه فجمد وهمد في موضعه، لا يدري ما يصنع، هل يجاريها في أَرَبِهَا، ولعلَّ ذلكَ منْ بَعْضِ أَرَبِهِ، أم يقومُ ويذهبُ لحال سبيله. لكنّه قرَّر أن يبقى حتى لا يثير حفيظة الحاضرين بخروجه المباغت أثناء القدّاس. أحسّ عليّ بحرارة جسم الفتاة فأضرمتْ في جسده لذّة عارمة لم يستطع أن يكبِتها إلاّ

برفع صوته وحشرجته حتى يخفي ما به. وأحسّتِ الفتاة بنار اللّوعة في صاحبها، ثم سلَّت من تحت ثيابها بطاقة وأعطتها له، مكتوب فيها إن القسّ يريد محادثتك بعد القداس في المثواة أو كرسي الاعتراف المحاذي لمخرج الكنيسة.

أُسقِط في يدي عليّ، ماذا يقول وكيف يجيب، وهو الذي لم يكن ينتظر مثل هذه الدعوة لدخول مكان مخصّص للمذنبين من أبناء دين المسيح. وكيف يصنع وهو على غير ملّة النصارى؟ وماذا لو اكتُشف أمره هناك؟

أسئلة كثيرة راودت الفتى، وهو يُقَدِّرُ حجمَ المخاطرة التي تدعوه لها هذه البطاقة الغريبة. وبدا وكأنّ الإحجام سيكون قراره، لكنّه قال في نفسه: لا تخفْ، فليس هناك من أحد سيزعجني في غرفة الاعتراف، ولأتظاهرْ بأنّي نصراني. ثم التفتَ يحصي غرف الاعتراف فوجد أنّ بالكنيسة خمس غرف معدّة لهذا الغرض، وعدد القساوسة ثلاثة فقط، وهم لا يجلسون إلاّ في المثاوي التي بقرب المذبح. أمّا المثواة التي بقرب المدخل فلا يدخلها أحد إلاّ إذا أراد الاختلاء للمناجاة.

لمّا مرَّتْ به هذه الخواطر تشجّع عليّ ووطّن نفسه على هذه المغامرة. ثم ما لبث القدّاس أن خُتم ووزّع القسّ الأكبر رقائق الخبز، وقامت الفتاة واختفت في زحمة المصلّين.

بقي عليّ جالسًا في مكانه، وكانت هذه أوّل مرّة يشهد فيها قدّاسًا بالكامل، بمختلف محطّاته التسع، حيث يبدأ بقراءة الإنجيل، ثم طواف القرابين أو ما يُسمّى الزيَّاح، وفي المرحلة الثالثة صلاة التقدمة أو التقديم في القدّاس، وبعدها مرحلة وضع اليدين على الرأس للتبريك، وخامسًا تقديس الخبز ثم تقديس النبيذ، وسابعًا نهاية صلاة القربان المقدّس، وثامنًا كسر رقائق الخبز، وأخيرًا تناول القربان.

ثم ما لبث أن قَدِمَ إليه صاحبه منتشيًا بصيْده الجديد، واستأذن منه على أن يلتقيا في يوم الغد، فأقرّه عليّ على هذه الخطّة وتظاهر بعدم المبالاة. خرج الصديق وهو يتابع بنظراته فتاة روميّة ممتلئة الأرداف حتى لتكاد تقعدها عن الحركة، وهي تتحاملها في ترف ودلال.

# ٧

أقفرت الكنيسة من زوّارها وعادت إلى ما كانت عليه مقفرة مخيفة بتماثيلها وأصنامها وصورها وصلبانها وبرودتها وظلمتها، على الرغم من الشموع الموقدة. وأحسّ عليّ بالغربة في هذا المكان الذي كان يعجّ بالناس قبل فترة. وبينما هو غارق في هذا التفكير، إذ رأى شخصًا يمرّ بسرعة وأهداب ثوبه الداكن تُرَوِّحُ الهواء بنسيم لطيف، فدخل في المثواة. تلفَّتَ الفتى يمنة ويسرة ورأى القساوسة قد انشغلوا ببعض الزوّار واقتادوهم إلى غرف الاعتراف، فلم يبق أحد في الكنيسة سواه. قام عليّ من مكانه وتعقّب ذلك القسّ الغريب ودخل المثواة من الجهة المقابلة لتلك التي دخل منها ذلك الشخص، إذ لكل مثواة مدخلان وبابان منفصلان، فلا يعلم الجالس مَنْ يجالس. جلس عليّ على الكرسي المنجّد المعدّ داخل المثواة، ولبث هناك حتى فتح الشبّاك الفاصل بين طرفي المثواة، لكنّه لم يستطع معاينة مخاطبه لأنّ المشربيّات كانت تحجز الرؤية. وقد وضعت

الكنائس هذه المثاوي لمنع الاطّلاع على هويّة المعترف، امرأة كان أو رجلاً

ولمّا استقرّ عليّ والقسّ الغريب داخل الغرفة سأل هذا الأخير قائلاً بصوت فيه رخاوة: باسم الربّ، آمرك أن تقسم بقول الحقيقة قبل أن تعترف بخطاياك.

استغرب أوّل الأمر من هذا الأمر وذاك الصوت الملتبس، لكنّ الفضول كان يدفعه لمعرفة آخر القصّة، فقال: أليست هناك شروط دينيّة للاعتراف؟ فاجأ السؤالُ المباغتُ السائلَ بعد أن كان ينوي مباغتة مخاطبه المذنب، لكنّه أردف قائلاً: نعم هناك شروط، ولكنّي أنا من يطرح الأسئلة، لا أنت. فقال عليّ: لا بأس، لكنّ أسئلتي هي مجرّد استفسارات عن كيفيّة حصول الاعتراف. فقال الغريب: حسنًا، أطلب منك إذن أن تفكّر في صمت وتُشَخِّصَ الصليب أمام عينيك وتجول في أخطائك التي ارتكبْتَ هذا الأسبوع ثم تطلب الغفران من الربّ. فقال عليّ: إنّ الاعتراف أو سرّ القربان المقدّس هو، من جهة، عقد صُلْحٍ بين الإنسان وذاته لتقدير الجمال والحقّ، وبينه وبين ربّه من جهة ثانية لأنّه تسبّب في إغضابه. إنّ الاعتراف هو لقاء بين حُبّين، الحبّ الذي يعترف ليغتفر، والحبّ الذي يعرف ليغفر. فماذا اقترفتُ يا سيّدي القسّيس؟ كتم الغريب ضحكتَهُ وهو ينصتُ لأحابيل الفتى، فقال

له: لقد بلغني أنّك كنت تترصَّد فتاة فرنجيّة بالأمس؟ هل يسمح لك دينها أو دينك بهذا؟

فقال: ومن أخبرك بأنّي على غير دين تلك الفتاة التي تذكر خبرها؟ وليكن، فإنّ ديني، لا أراه يمنعني من ذلك، أمّا عن دين تلك الفتاة، فالحق أنّ دينها كما يقولون يحثّ على المحبّة. ولا أظنّ أنّ هناك دينًا يمنع المحبّة بين الناس. فقال الغريب: وما يدريك بشرائع كلّ الأمم؟ فقال عليّ: إذا كانت الشرائع سماويّة، فلا يمكن أن تختلف في هذا الأمر لأنّ مصدرها واحد. ومهما اختلفت صورها فهي واحدة بالنظر إلى هذا المصدر. وما كان متّحدًا في المصدر فلا يمكن أن يختلف في هذه الأصول الكبرى كالمحبّة. فقال الغريب: تفكير صائب، لكن فقهاء الملل المختلفة قد سيّجوا أسيِجة متعدّدة حول أتباع دياناتهم، وحرَّضوا على عدم الاختلاط. فقال عليّ: هذا غير صحيح بالنسبة لدين الإسلام مثلاً الذي يحكم أهلُه هذا البلد، فالمسلم يمكنه الزواج من الكتابيّة، وحتى ممّن أُلحق بأهل الكتاب من أصحاب الديانات الأخرى، التي تستند إلى كتاب تشريعي. ولكن لنعد إلى ما كنّا بصدده، فإنّي أرى أنّ الاعتراف عند المسيحيّين يجب أن يُسْبَقَ بمرحلةِ ندمٍ على الخطايا المرتكَبة، ثم طلب الغفران. وإنّي لا أرى خلافًا مع دين المسلمين في هذا الأمر، فالتوبة عندهم لها شروط أربعة، هي الإقلاع عن الذنب والندم على ما

ارتُكب، والعزم على عدم العودة مجدّدًا إليه، والشرط الرابع متعلّق بالوقت، أي حصول التوبة قبل الغرغرة. ففي النهاية ليس هناك فرق بين المسلمين وبين المسيحيين إلاّ في الصورة والصيغة. فمثلاً المسيحيّون يشترطون الصمت واستحضار صورة السيّد المسيح على الصليب، والجزم بأنّه صُلب وضحّى بحياته من أجل تحمّل خطايا البشر، ثم يقرؤون آية من الإنجيل لإعادة ربط الصلة مع الإيمان، ويطلبون العون من السيّدة العذراء وروح القدس. والمسلمون، وإن اتّفقوا مع المسيحيّين في أصل التوبة، فهم يختلفون معهم في شكلها وصورتها إلى حدّ كبير يصعب معه التوفيق بين التوبة والاعتراف. فقال الغريب: أراك عالمًا بأسرار الاعتراف عند المسيحيّين والمسلمين، فهل أنت مسيحي أو مسلم أو يهودي؟ فإن كنت مسلمًا أو يهوديًا، فليست لك حاجة في كنائسنا، وإن كنت مسيحيًا، فأخبرني بقصّتك. والآن، ما هو اعترافك أو لنقل ما هي توبتك، وهل ما زلت مستعدًا لذلك؟ فقال عليّ وهو يخفي سخريّته: أعترف لك يا سيّدي القسّ بأنّني وقعت في حبائل فتاة من دين مخالف لديني، فهل يقبل الربّ أن يغفر لي؟

فقال الغريب وهو يتصنّع خطّة القساوسة: اسمع يا ولدي، عليك أن تتوب من خطيئتك الشنيعة وتؤوب إلى ربّك، وتردّد معي: إلهي إنّني جدّ متأسّف لأنّني عصيتك، فأنت ربّ غفور

رحيم، تكره المعصية، وإنّني أعاهدك على التوبة من معصيتي بفضلك ومنّتك ومغفرتك.

فقال علي: سمعًا وطاعة لك يا ربّي، اغفر لي ما قدّمت من ذنب، لكنّي لا أعتقد أنّك تعاقب على ذنب الحبّ، أليس كذلك يا أبانا؟

فقال الغريب: وضعك محرج بعض الشيء، ولست أدري إن كنتَ مذنبًا أو لا، لكنّي سأغلّب حسن الظنّ بك، ثم أزاح الغريب المسمار الذي يمنع فتح المشربيّة من جهته، وقال لعليّ: أخفض رأسك يا ولدي حتى أباركك ومدَّ يديه ووضعهما على رأس عليّ الذي أحسّ بقشعريرة عجيبة وغالبه الشكّ في هذه الأيدي، وبدأ الغريب يقرأ قدّاسَه، وعليٌّ رابضٌ متلذّذٌ بوَقْعِ الأنامل الرقيقة على رأسه. وبعد أن أنهى الغريب قال لعليّ: فليباركك الربّ، لقد حلَّلتُك من ذنوبك، فرفع رأسه ليعاين مخاطبه لأوّل مرّة. وكم كانت فرحته مضاعفة ومفاجأته عظيمة حين رفع الشخص الغريب غِفارته، فعاين عليّ فتاة وضيئة **كالصبح** نديّة كالروض، عيونها نُجل، ونَشْرُها طِيبٌ، وخدودها حُمْر، ومبسَمُها عقيق، وشعرها داج، فكأنّ هذه الوضاءة قد اسْتُلَّتْ من ليل بهيم. فَغَرَ فاهُ وكاد يصرخ لولا أن تداركته الفتاة فكمّمتْ فاهُ بسرعة فائقة، فأخذ اليد البضّة وقبَّلها ظَهرًا وبطنًا ومرَّرها على وجهه يشمُّ أرَجَ عِطرها

ونعومةَ ملمَسِهَا. وبعد أن أخذ حظَّه من هذه اللحّظات المستقطعة من الزمان، قالت له الفتاة:

هل تتذكّرني أيّها المذنب؟ بقي عليّ ساكتًا فقالت له: ألا تذكر يومَ أمس حين تَبِعْتَنِي في المدينة وفقدتني عند زقاق سبع لويات؟

لمّا سمعها تذكُر ما حصل له، انفرجتْ أسارير عليّ وتلفَّت ناحيتها ليعاين الفتاة التي ضاعت منه بالأمس، وأيِس من ملاقاتها مرّة أخرى، فإذا به يختلي معها في هذه الغرفة الخشبيّة ويتحدّث إليها. إنّه لوضع عجيب هذا الذي حصل. ثم قال لها: وكيف عرفتِ أنّي هنا في الكنيسة؟ فقالت الفتاة: لقد كنتُ أرقبُ حركاتِكَ في السوق، وأنا داخلَ محلٍّ لشراء الثياب، فرأيتُ صاحبَك وقد أتى إليك، ثم رأيت حزنَك وانصرافَكُما فتعقّبتكُما إلى حين دخلتُما الكنيسة، عندها لحقتُ بكما وكتبت البطاقة ثم جلستُ بالقرب منك وأنا واضعة النقاب حتى لا تتعرّف عليّ. فقال لها عليّ: وما اسمك يا فتاة؟ فأجابت: اسمي ماريّة.

فقال لها عليّ: هل تسمحين أن أناديك **صبح**؟ فقالت له: كما تريد، لقد **صادني** قلبك، فلا بأس أن تسمّيني باسم **يَصُونُ** هويّتي عن الفضوليّين. ثم قال لها أريد أن أراك إذًا في منتزه الوادي. فقالت له: سآتي مع صديقتي إيزابيلاّ التي كان يتعقّبها صديقك،

فلتطلبْ منه أن يرافقك. ثم خرجا من المثواة وأمسك بيدها لكنّها سحبتها في لطف وقالت له: مهلاً عليك يا فلان. ثم تذكّرت أنّها لم تسأله عن اسمه، فقالت له: ما اسمك؟ فأجابها: اسمي عليّ، وأنا من وادي آش. ثم قالت له: يجب أن لا تتعقّبني حينما نغادر الكنيسة، فإنّي أخشى أن يلحظنا بعض الفضوليّين. لم يتمالك عليّ فأخذ يدها مرّة أخرى وجذبها إلى شفتيه فقبّلها، لكنّ الفتاة تفلّتتْ منه وقالت له: إلى الغد يا عليّ.

خرجت ماريّة تركض وذهبت أدراج الرّياح. وبعد برهة، خرج في إثرها وسلك وجهة أخرى.

# ٨

انحبس المطر على البلاد، وحلّ الجفاف ومعه الغلاء، وتضرّر الناس، وخطب الخطباء على المنابر، وتناقل الناس أخبار المطاحنات على السلطة بين مختلف المتصارعين في أوجها ولم يكن خافيًا أنّ مصدر هذا البلاء هو بسبب خروج الناس عن الجادّة. فقد رأينا كيف أدّى تطاحن أبناء يعقوب المنصور الموحّدي على السلطة إلى ضياع ولايات الأندلس منهم وقيام ابن هود عليهم واستبداده بالأمر. كما أنّ سبتة قامت هي الأخرى، واستبدّ بها الحاج أبو العبّاس أحمد اليانشتي، وكان من التجّار الكبار وذوي المروءة واليسار، وتسمّى بالموفّق بعد أن طرد الغشتي قائد ابن هود. نودي في المساجد لصلاة الاستسقاء وضُرب موعد لذلك للخروج إلى المصلّى القديم لغرناطة، لكنّ ابن هود أراد أن يستغلّ هذا الجمع الربّاني ويقرنه بالدعوة إليه، فكتب إلى جميع الولاة والأمراء والعمّال والقوّاد أن يَشْخَصُوا إليه في غرناطة، ونُشرت البنود والراية السوداء، وتجمَّعَ الناس شُعْثًا

غُبْرًا وثيابهم معكوسة، كما جرت العادة بذلك، إظهارًا للذلّة والافتقار، والتزامًا بتغيير بواطنهم لتستقيم ظواهرهم. وكان ممّن دُعِيَ لهذه الصلاة والدي عبد الله الششتري، الأمير في بلدته، فاصطحبني معه. خرجنا بعد صلاة الصبح حتى وصلنا غرناطة التي تبعد بمرحلة عن وادي آش، مع صلاة الظهر، فرأينا الناس يضجّون بالاستغفار على صوت واحد، ويطوفون على الأزقّة والمساجد رافعين أصواتهم بالدعاء والذكر. والبعض الآخر خرج إلى رَبَضِ المدينة واصطحبوا معهم الصبيان والنساء، وعَلاَ الصياح والبكاء والتضرّع والخشوع. سألني الوالد عن سُنَّة الخروج على هذه الصفة، وقد فقِهتُ من أمر الدين ما أهّلني لمثل هذه الإجابة، فقلت له: إيه والدي، إنّ الخروج على هذه الصفة يرقّق القلوب، وإن لم يَرِدْ في الشرع مثل هذا لكنّه داخل في باب الإباحة، وإنّي أذكر أنّ أوّل من فعل هذا في بلاد المغرب موسى بن نصير لمّا استسقى بإفريقية، فخرج بالناس وجعل الصبيان على حدة، والآباء على حدة، والنساء على حدة، وأهل الذمّة على حدة، والبقر وسائر الدوابّ على حدة. وقد استحسن علماء الوقت صنيعَه ولم يُنكروا عليه. وقد أراد استجلاب الرقّة والرحمة. فنحن نَدْأَبُ على هذه السُّنَّةِ الحسنة منذ ذلك الوقت.

وبينما كنت أمشي إلى جنب والدي إذ أبصر وفدًا من أهل الذمّة، يهودًا ومسيحيّين خرجوا كباقي أهل المدينة. وكان بعض

أهل الذمّة من النصارى يلبسون ثيابًا بنّيّة داكنة ويعقدون جِبابَهُم بحبل ذي ثلاث عقد.

كانت هذه أوّل مرّة أرى فيها هذا الزيّ المسيحي، بل أغلب الأزياء التي كان قساوسة المسيحيّين يرتدونها إمّا جلباب أسود بغطاء للرأس، أو جلباب أبيض وعليه برنس أسود بغطاء يغطّي الظهر والصدر، أو جلباب أبيض وبرنس أحمر، وعادة ما يلبسه كبراؤهم. أمّا هذا الجلباب البنّي فغريب بعض الشيء، وفيه من مظاهر التقشّف أكثر من غيره، كما أنّ القساوسة، وجلّهم شباب، عليهم أمارات الزهد والفقر، وأعلى رؤوسهم حليق، ويبدو شكل تسريحتهم غريبًا، إذ تركوا سورًا من الشعر على طرف الرأس كما لو أنّهم يرتدون قبّعات. وأمام هؤلاء تقدَّمَتْ نساؤهم وأطفالهم، والكلّ خاضع ضارع. وبينما كنت أتأمّل هؤلاء إذ لاحت لي صبح بين صفوف نسوة من نساء ابن هود والأمراء، وكنت ما زلت ممتطيًا صهوة فرسي فأبصرتني ولوّحت بمنديل كان في يدها نحوي، لكنّي تجاهلتُ تحيَّتَها خوفَ افتضاحِ أمري وأَدَرْتُ رأسي في حركة أَفْهَمْتُهَا بها عَدَمَ التَّمادي في ما استهَلَّتْ به. أمام هذه الحشود ترجَّلَ والدي وفعلتُ مثل ما فعل، ثم أخذ بعضُ مُرافِقِي الوالد فَرَسَيْنَا، فتقدَّمْنا مع الجموع الرسميّة حتى وصلنا إلى المصلَّى القديم، وكان ابن هود يخطر في ثيابه السوداء مع حاشيته والراية السوداء مضروبة بإزاء المنبر. وبعد الصلاة، قام الخطيب

فاستنهض الهمم وقرأ قول الله تعالى ﴿يا قوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوّة إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين﴾ ثم قرأ قوله تعالى ﴿فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارًا﴾، ثم بالغ في التذكير وذكّر بحديث النبي ﷺ «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم». وهكذا أخذ الإمام الخطيب يُذَكِّرُ الناس بالرجوع إلى الله ويأمرهم بالاستغفار والإخلاص والتوبة والصدقة، ويثني على رجوعهم عن دعوة المهدويّة وإلغاء الدعوة للإمام المهدي. كما تخلص إلى الدعوة لابن هود وجمع شمل الأمّة وتوحيد كلمتها على إمام واحد بالدعوة للخليفة العبّاسي، ثم بشَّرَهُمْ بعطف خليفة المسلمين، الخليفة العبّاسي المستظهر بالله، عليهم وعلى اختيارهم لابن هود، وقرأ عليهم كتابه الذي أرسله لابن هود. وبعد الاستفتاح والصَّدْرِ والخُطبة والدعاء، أمرهم بإقامة الدين والاجتهاد في أمور الجهاد، وسمّى ابن هود مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين. وقال بعد كلام طَنَّانٍ «اِقْتَضَتْ آراؤُه. أَنْ يقلِّدَهُ أمْرَ جزيرةِ الأندلس وما يجري معها من البلاد. .». ولم يقرأ كتاب الخليفة بالكامل لأنّ الناس لم يخرجوا إلاّ لصلاة الاستسقاء ولم يكن يهمّهم أمر هذه الثورات المتالية على السلطة.

كان عليّ يتحيّن الفرصة ليصل إلى صبح التي افتقدها منذ مدّة بسبب سوء الأحوال وكثرة القلاقل وعَدَمِ أمْنِ الطريق. واستغلَّ انشغالَ والده بالحديث إلى رجالات الدولة، فتسلَّلَ بين الصفوف حتى شارف على الموضع الذي تقف فيه، ولاحظتْ صبح صنيعَه فتلفَّعَتْ في خِمارها ثم أسقطَتْ منديلاً كان بيدها فانحنى عليّ ليلتقطه وانحت صبح بدورها. وخلال هذه الفرصة المواتية التقط عليّ المنديل وسلَّمه لصاحبته قائلا: مَرِّرِي هذا المنديل في **عين الدمع**. تفضّلي يا سيّدتي واسكبي العبرات في هذا الموطن لعلّ الله يستجيب لنا بِدَرٍّ الغيث النافع بعد منصرفنا من مكاننا هذا بقليل. فأجابت صبح التي فَطِنَتْ إلى الموعد الذي ضربه لها عليّ في منتزه **عين الدمع** بعد انصراف الناس من المصلّى بقليل: شكرًا يا سيّدي على لطفك، وسَيَحُلُّ المنديل في **عين الدمع** حالاً

رجع عليّ إلى حيث يقف والده مع الحاشية، وعلامات الجذل بادية عليه. وكان القادة يُعلِّقون على كتاب الخليفة ويستقصون آخر الأخبار. همس عبد الله في أذن ولده: انظر إلى هؤلاء كيف يتسابقون إلى الدنيا حتى في مواطن الخشوع والضراعة. لقد خسرنا الأندلس يا ولدي، فأين نحن من موسى بن نصير وطارق ابن زياد، أو رجالات المرابطين مثل يوسف بن تاشفين، الذين فتحوا أو شيّدوا ملك هذه البلاد؟ إنّ الذئب لا يأكل إلاّ من الغنم القاصية. فكلّ واحد من هؤلاء لا يبغي سوى تحقيق مآرب آنيّة من

دون تَبَصُّرٍ بالمآل. فقد رأيتَ ما فعل أبناء الخليفة العظيم، يعقوب المنصور الموحّدي مع بعضهم، وكيف قام الواحد منهم على الآخر، بل إنّ أحدهم مال إلى دين النصارى ودلّهم على عورات المسلمين فأعملوا فيهم القتل والسبي وهتك الأعراض. ثم بعد انصراف الخليفة أبي العلاء إدريس المأمون إلى مراكش لإخماد الثورة عند قبائل الموحّدين وتثبيت ملكه هناك، اصطحب معه كبار جند الدولة فأفرغ الأندلس من رجالاتها، فلم يكن بُدٌّ أمام العدوّ إلاّ أن يهاجمنا ويقتطع أوصالنا إرْبًا إرْبًا. وبعد منصرفه، قام ثلاثة رجال لحماية ما تبقّى للمسلمين في هذا الجزء الجنوبي من الأندلس، بنو مردنيش أصحاب بلنسية، وهذا الرجل سيف الدولة محمّد بن يوسف بن هود، الذي يزهو بثيابه السوداء في موطن الخضوع والذلّة والاستغفار، ولا فكرة لديه عمّا يعانيه الناس من القحط وغلاء المعيشة. وثالث الرجال هو محمّد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقّب بالشيخ. فأمّا الأوّل فلا أراه يصمد طويلاً أمام مدّ النصارى، وأمّا هذا الذي يخطر أمامنا، فهو رجل شجاع لكنّه مغرور متهوّر، فلا أراه يصمد هو الآخر طويلاً وأمّا الثالث فلعلّه خير هؤلاء جميعًا وأسأل الله أن يجمع به شمل أهل الأندلس.

التفت عليّ لوالده يسأله: ولماذا تخبرني بكلّ هذا يا أبي؟ فأجاب عبد الله: اسمع يا ولدي، أقول لك هذا لتعلم أنّ الوضع

أصبح صعبًا أمام المسلمين في هذه البلاد، ومدّ النصارى لن يتوقّف، ولا أريدك أن تخالط الحكّام أو الولاة حتى لا تكون نهايتك مفجعة، بل أنصحك بأن تلازم العلماء وتهاجر إلى بلاد الإسلام الفسيحة وتنشئ أسرة لك هناك، فلن يطول أمد المسلمين في هذه البلاد. ويعلم الله أنّي لم أثبت في منصبي إلاّ بمصانعة الناس ومداراتهم حتى استطعت أن أربّيك وأحافظ على أسرتنا

فقال عليّ: سمعًا وطاعة يا أبتاه، ولتعلم أنّه لم يكن يخطر ببالي أن أخالط الحكّام والأمراء، بل إنّي أنفر من ذلك، وكلّ همّي أن أحصّل العلم والأدب، وكنت عاقدًا العزم على العبور إلى العدوة الجنوبيّة ثم التيمّم نحو الحجاز وأداء فريضة الحج.

تهلّلت أسارير عبد الله وقال لولده: يا ولدي، لقد أخبرتك بهذا ونحن في هذا الموطن، لأنّ الأمير قد فاتحني في أمرك وطلب منّي أن أقدّمك لابن هود حتى تشتغل في أحد الدواوين، فتعلّلتُ بأنّك ما زلت تدرس وتطلب العلم.

وبينما هما يتحدّثان إذ أبصر عليّ صديقه أبا الأصبغ عبد العزيز الضرير ووراءه شرذمة من الأطفال حاملين ألواحهم التي يحفظون منها القرآن، وهم يصرخون ويبكون ويتضرّعون ومعلّمهم يَحُضُّهُمْ على ذلك، وكان يمسك بيده أحد هؤلاء يقتاده حتى لا يسقط. فلمّا رآه عليّ استأذن والده وذهب إليه وأعلمه بنفسه، فتهلّلت

أسارير الضرير وعانق الصديقُ صديقه وتسلّلت دموعهما ثم سأل عليّ صاحبه عن حاله فأخبره عبد العزيز بأنّه أصبح معلّمًا للقرآن في وادي آش، كما أنّه تَحَرَّفَ قراءته على القبور. وقد طُلِبَ منه أن يأتي للاستسقاء فلبَّى النداءَ وحُمل خير مَحْمَلٍ حتى وصلَ غرناطة فالتحقَ به أطفالُها وصبيانُها، وصار يقودهم. وقد أخبر عبد العزيز صديقه بأنّه أتى مع جمع من فقهاء وعلماء وادي آش، من أبرزهم أبو الأصبغ عيسى بن شهاب. كان هذا الشيخ الجليل على مقربة من الصديقين فتقدّم عليّ وسلّم عليه ورأى على وجهه أمارات الصلاح والخير، وجرى بينهما حديث أمتع كليهما فهبّت نفس عليّ تريد الأخذ عن هذا الشيخ وطلب منه ذلك، فأجابه بأنّه سيَشْرُفُ لأن يكونَ عليّ أحدَ طلاّبه، وتواعدا على اللقاء في وادي آش قريبًا.

غادر الجميع واستأذن عليّ والده وأصدقاءه ثم التحق بمنتزه عين الدمع ليجد صبحًا في انتظاره.

## ٩

كان المنتزه على كدية في ضواحي غرناطة، تغصّ بالمروج والحدائق الغنّاء. وعلى الرّغم من الجفاف، فإنّ عين الدمع تبقى محتفظة باخضرارها ومائها الذي يأتيها من ذوبان الثلوج النازلة من جبل الفخّار المشرف على المدينة. لمّا عاين الحِبّ حبيبه، عانقه وارتمى في حضنه، وأمضيا وقتًا يخطران في هذا الموضع، في غفلة من الرقباء وانشغال الناس. وبعد غمرة الفرحة بدأ العتاب وصاحَبَهُ التَّعَلُّلُ كما في المعتاد. وفي هذه الغمرة أنشد عليّ قائلاً:

وَمِلْ بنا نحوَ عينِ الدّمعِ نشربُها حيثُ السّرورُ بكاسِ الأُنْس يَسقيني
حيثُ المنى وفنونُ اللّهو راتعةٌ والطيرُ منْ طربٍ فيها تُناجيني
وجدولُ الماء يحكي في أَجِنَّتِهِ صَوارِمًا جُرِّدت في يومِ صِفِّينِ
وأعينُ الزَّهر في الأغصانِ جاحظةٌ كأنّها بهوى الغِزلان تُغْريني

ولمّا خلا لنا الجوّ سلّتِ القلوبُ خيوطَ البثِّ مِنْ غَزْلِهَا،

وعَلِمَ كُلٌّ مِنَّا أمْرَ الآخر، ثم طالعتني صبح قائلة: إنّني أعيش الآن مع صديقتي في قصر ألمريّة. وقد أولع بها السلطان ابن هود، واتّخذها جارية له. وقد طلبتني لكي أعيش معها في القصر، فأنا الآن أعيش حياة الترف المصحوبة بالكيد والإيقاع والمؤامرات. لكنّي أريد أن أخبرك أنّ وزير ابن هود، أبا عبد الله محمّد بن الرميمي قد وقع في حبّ جارية مولاه، صديقتي التي بالقصر وأُغرم بها، وهي لا تدري ما تصنع لأنّ ابن الرميمي قد تحصّن في قلعة ألمريّة التي كان قد أغرى ابن هود بالقيام بأمر تحصينها، وغرضه أن يتحصّن هو من سلطانه لا من أعدائه الروم. وإنّي أريد أن تخلّصني من هذه الحياة المليئة بالمؤامرات، فهلاّ خطبتني وأخرجتني من هناك، فإنّي أشمّ رائحة الخيانة، ولن يسلم أحد منها، فأرجوك يا عليّ أن تخلّصني إن كنت تحبّني.

فقال علي: وهل تشكّين في حبّي لك. فقالت الصبيّة: أبدًا، لكنّك تعلم أنّه لا وجود للحبّ من دون أدلّة. فإن كنتَ تحبّني حقًّا، فبرهنْ لي عن هذا الحبّ بخطبتي وتسريحي من الأسر الذي أنا فيه، وإلاّ ناوَلَتْنِي حُميّا الغدر كأسَها وجرَّعتني المَنون طاسَها إنّني جزِعَة من فِعْلِ ابن الرميمي، ولو علِمَ السلطانُ ابن هود بخيانة وزيره، قَتَلَهُ وقتَلَ جاريتَه ومَنْ مَعَهَا.

حاول عليّ تهدئةَ صبح ووعدَها أن يسعى في خِطْبَتِها ومُفاتَحَةِ والدِهِ ليُكَلِّمَ السلطانَ بشأنها.

غادر الفَرْخَان عينَ الدَّمْعِ، والدَّمعُ ينهمل من أجفان الصبيّة، والسماء قد تلبّدت بالغيوم وأرسلتِ السُّحُبُ دموعًا غِزارًا تروي الأرض وتُحيي الموات، وتفجِّر العيون وتملأ الوديان والقيعان. هلَّل المهلّلون وكبَّر المكبّرون وتعانق الأحبّة واختلطت الدموع بالدموع وجرى الماء وفاضت المآقي وسَكَنَتْ باللقاء، وانصرف الفرْخان إلى أعشاشهما. وفي المساء صلّى الناس صلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا لاجتماع الظلمة والوحل والمطر، كما هو مقرّر لدى علماء المذهب، واستبشر السلطان ابن هود بأمطار الخير، ودعا كبراءَ دولته لحضور حفل عشاءٍ لتخليد المناسبة.

دخل عليّ على والده وفاتَحَهُ في أمر صبح. وكان الوالد يرغب في تزويج ابنه ليأمن عليه من البوائق، فلم يمانع كثيرًا في مطلب ولده، لكنّه سأله عن ديانتها فأخبره بأنّها على دين المسيح، لكنّه يرجو أن تؤوب إلى دين الإسلام كما هو شأن غالبيّة الجواري الروميّات المتزوّجات من المسلمين. استوثقَ الوالد من ولده في هذا الأمر، وكان عبد الله يثق بعليّ ويعلم ما هو عليه من الديانة والصلاح، فلم يبالغ في حرصه. وأخبره عليّ أنّ الفتاة تسكن المريّة على مرحلتين من وادي آش، وأنّها تسكن في قصر وزير ابن

هود مع صاحبتها جارية السلطان. وتخلَّصَ عليّ إلى ذكر قصّة ابن الرميمي مع جارية السلطان بأبلغ بيان، وأوقفَ والده على هذا السرّ. نبّه الوالد ولده إلى عدم إذاعة سرّ الجارية، ووعده خيرًا في تخليص محبوبته من هذه الورطة، وخرج إلى حفل العشاء في قصر السلطان.

صدحت العيدان والأوتار ورافقتْها المزامير والدفوف، وتنسَّم الجمع عبير الزهور، وقُدِّم الطعام بالمقبِّلات والأطباق والمُحلّيات. وبعد الأكل والشرب والغناء، رُفعت الأواني وانقلب السلطان مع رجاله إلى مجلس الملك حيث أقرّ كلّ واحد في مكانه وبدّل وغيّر، وعيّن آخرين، وأقرّ وزيره ابن الرميمي على ألمريّة. ثم سأل الرجال عن طلباتهم واحدًا بعد الآخر، ولبّى رغباتهم. وكلّ من أخذ أُعطيته انصرف. فلمّا وصل دور عبد الله قام إلى السلطان وأَسَرَّ له بطلبه فتعجّب ابن هود من تفاهة طلب أميره على وادي آش، وقال له: هذا أمر بسيط، ونحن نزيدك عليه بأن نجهّز لابنك العروس ونأمل أن يلحق بنا بعد أن يكمل تحصيله العلمي. سُرَّ عبد الله بنيل مراده وخرج مودّعًا. وطلب ابن هود وزيره الرميمي وسأله عن أحوال جاريته، وكان الرميمي قد اصطحبها إلى غرناطة مع جماعة من الجواري، فأخبره بأنّها بخير وأنّها تنتظر أن يؤوبَ إليها سيِّدُها متى انتهى منْ تشييد مُلْكه وتحصين بلاده. أمر ابنُ هود ابنَ الرميمي أن يسرّح صبح للزواج

من عليّ الششتري حسب رغبة والده. ثم بعد أن صرف ابن هود الجميع، طلب من عبد الله أن ينتظره في مجلس قصره، ثم دخل على جواريه، ونادى على جاريته التي عهد بها إلى ابن الرميمي في ألمريّة ففاتحها في شأن صاحبتها صبح، وأعلمها بخطبة عليّ الششتري لها. امتعضت الجارية من هذا الخبر لأنّها كانت تتسلّى مع صاحبتها في قصر الرميمي. وقد كانتا على ملّة المسيح عليه السلام، لكنّ الجارية نادت على صبح وأخبرتها الخبر فكادت تطير من الفرح، وتقدّمتْ نحو السلطان وأخبرته بموافقتها فأخذها إلى عبد الله وشهدتْ أمامهما بموافقتها على الخطبة. لكنّ عبد الله خاطبها قائلاً: يا ابنتي، أنا جدّ مسرور بموافقتك، لكنّ لديّ شرطًا لكي يتمّ الزواج بينكما فقالت الفتاة: وما هو الشرط يا سيّدي؟ فقال عبد الله: الشرط هو أن تدخلي في ملّة الإسلام. سكتت الفتاة برهة تُفَكِّرُ في الأمر. فعاود عبد الله السؤال عليها: هل تقبلين بهذا الشرط؟ فقالت الفتاة: أقبل لأنّي أحبّ عليًّا، وأنا مستعدّة للتضحية بكلّ شأن من أجل هذا الحبّ. فقال لها عبد الله: هنيًّا لك يا بنيّتي، وسوف تجدين أنّنا معاشر المسلمين نُكِنُّ كلَّ الاحترام والمحبّة للسيّد المسيح ووالدته السيّدة مريم، عليهما السلام.

تدخّل السلطان وهنّأَ عبد الله على أن هدى اللهُ على يديه هذه الفتاة، وقال لها أمّا أنا، فلستُ بأوفرَ حظًّا منْكَ يا عبد الله،

فهذه ريحانة ما زالت على دينها، وقد فاتحتها في الأمر لكنّها أبت وتمسّكت بدين آبائها. ولعل الله يفتح قلبها لدين الإسلام كما فتح قلب صبح. فقالت ريحانة: أنت تعلم شَرطي يا سيّدي للدخول في دين الإسلام. فأجابها السلطان: إنّني أعلم ذلك، ولكنّ الوقتَ غيرُ سانحٍ لهذا الأمر الآن. ثم توجَّه إلى عبد الله: إنَّ عليَّ تجهيز صبح لولدك عليّ، فلا تهتمّ بهذا الأمر. ثم استأذن عليّ في أن تصاحبه صبح من الغد إلى وادي آش، وسَيُسْكِنُها مع أهله حتى يحينَ موعدُ دخول عليّ بها. فقال له السلطان: الأمر بيدها، إن شاءت ذهبت معك وإن شاءت بقيت مع ريحانة حتى يتزوّجها ابنك. فقالت صبح: يا سيّدي، إنّني صبيّة يتيمة لا أهل لي ولا قرابة، وقد تربّيت في أحد الأديرة واعتنى بي الرهبان وأنشأوني نشأة صالحة. وإنّي أريد مصاحبة سيّدي الأمير أبي عليّ إلى وادي آش.

فقال السلطان: كما تريدين يا بنيّتي، وابتداء من الغد تأخذين جهازك. ثم استأذن عليّ في الانصراف وتواعد أن يرسل من يأخذ صبح إليه في يوم الغد. اختلت الجاريتان مع بعضهما للحديث حول الزواج وما يلزمه، وتضاحكتا كثيرًا تلك الليلة.

## ١٠

مرّت سنة على الخطبة ونشأت صبح، التي سمَّاها أهل بيت الششتري باسمها الجديد، بين ظهرانيهم في دعة وترف، وفتحتْ قلبها للدّين الجديد وسعِدَتْ بذلك أتمَّ سعادة، وحفظت بعض السور من القرآن، وفقهت ما يلزمُ مِثْلَها من فقْهِهِ لتقومَ بشأن نفسها في أداء ما فُرض عليها  وكان عليّ قد كلِف بها كلفًا شديدًا لمّا دخلت في دين الإسلام فكان يتحادث معها كثيرًا ويجلس إليها كثيرًا رغم رحلاته في طلب العلم والتجارة. وبعد أن اطمأنَّ الجميع على الفتاة وإخلاصها وحسن أخلاقها، تمّ الاتفاق على تعيين يوم لإقامة عرس حافل بمناسبة دخول عليّ بصبح، ودُعي إلى العرس كلّ أكابر أهل البلد والأصدقاء والأقرباء.

وكان عليّ يصطحب صبح معه في بعض الأحيان إلى ألمريّة للقاء ريحانة. لكنّ المسكينة كانت في غاية الضيق لأنّها كانت تَوَدُّ الزواجَ من السلطان، لكنّه، رغم كلفِه بها، كان قد عاهد زوجته ألاّ يتزوّج عليها أبدًا، وندم على عهده ذلك، لأنّ قلبه كان مفتونًا

بريحانة الروميّة. وكان أهل الأندلس من الأشراف والكبراء يتركون العصمة بيد بناتهم، فإذا ما أَقْدَمَ الرجلُ على الزواج مرّة ثانية فسَخَتْ زوجتُه الأولى عَقْدها بأيسر طريق شرعي. وكانت ريحانة في غاية الجمال، وهي بنتُ أحد كبراء الروم، وكان ابن هود يتحرَّق ويقْرَعُ ظُفْرَهُ أسفًا على عهده الذي قَطَعَهُ لزوجته في ابتداء أمره قبل أن يملك البلاد ويتّخذ الجواري الحِسان. كما كان يخشى على نفسه من نقض العهد الذي قطعه لزوجته، فتحرّى أن يترك ريحانة عند عامله ابن الرميمي ريثما يجد حلاًّ لمعضلته. وكان يزورها مرّة بعد المرّة. لكنّ المسكينة لمّا أَيِسَتْ من الزواج منه، وداخلها ابن الرميمي الذي أولع بها أيّما ولاعة، لم تستطع ردَّه. وحينما زارتها صبح أخبرتها بقصّتها وقالت لها: لقد كنت في أحد الأيّام أتحسَّر وأبكي على نفسي، فأنت تعلمين أنّني من بنات زعماء الروم ولنا الشرف والتقدمة على غيرنا، وقد وقعتُ في أسر ابن هود لكنّه أرضاني ووعدني بالزواج منه. ولن أرضى أن أكون أُمَّ وَلَدٍ كما يقولون، فكنت أُمَنّي نفسي أن يتزوّجني وأَلِدَ له ولدًا يحكم هذه البلاد، لكنّه كما أخبرني كان قد عاهد زوجته الجذاميّة في ابتداء زواجه، على ألاّ يتزوّج عليها أبدًا، لكنّي لمّا وقعت في يده كلِفَ بي كَلَفًا بالغًا وحاول نقْضَ عهده، لكنّه كان يعلم أنّ عصبيَّتَه قائمة على أهل قبيلته الجذاميّة، فإن أخْلَفَ وعدَه نكثُوا به، فلم يجرؤْ على الزواج منّي. وكان يمنِّيني بقرب أوان

ذلك اليوم حين يشيد بنيان ملكه على قواعدَ صلبة. وكنت قد فكّرت في أن أدسَّ سمًّا لزوجته حتى يخلو لي الجوّ لكنّك تعلمين إيماني وخوفي من عقاب الله. وقد اعترفتُ لأبينا في الكنيسة بهذه النيّة السيّئة فمنعني وزجرني، وأمرني بالاستغفار من ورود هذا الخاطر الشيطاني على قلبي. وما كنت لأفعل رغم ما كانت تقوله لي نساء كثيرات ممّن كنّ يتمنّين أن يحظينَ بقلب السلطان. وبعد أن بكيتُ كثيرًا في ذلك اليوم، دخل عليّ ابنُ الرميمي فوجدني على هذه الحالة فضمّني إلى صدره وكنت في حاجة إلى العطف والحنان والصدر الرحب فتمادى الرجل في أمره ولم أكفَّه عن ذلك ظنًّا منّي أنّه يواسيني، ثم حملني إلى قبّتي وأدخلني سريري وناولني شرابًا فشربت وشربنا حتى لعبت برأسينا الخمر، فكان ما كان ممّا يحدث بين الرجال والنسوان. وفي الصباح وجدت نفسي وقد أفضيت بسرّي إلى هذا الرجل، فبكيت مرّة أخرى وواساني كثيرًا، ثم كلّمني وقال لي: إنّك تعلمين يا ريحانة أنّ السلطان لن يتزوّجك، وأنت من بيت عزّ وشرف وسلطة، فكيف تقبلين أن تعيشي عيشة المهانة والانتظار. فسيتركك السلطان حتى يذبلَ جمالك وتذوي نضارَتُك، وكلُّ همّه أن يتسرَّى بكِ إذا حضر إلى ألمريّة. أمّا أنا، فإنّي أحبّك حقًّا، وليس من الورع في شيء أن يَستأمِنَ الرجلُ رجلاً آخر على امرأة مثلك في غاية الجمال. ثم وعدني بأنّه سيسعى إلى الزواج منّي حين تحين الفرصة، وإنّها

لقريبة. فمنّيتُ نفسي مرّة أخرى بالزواج من هذا الرجل، خصوصًا أنّ السلطان قد أبطأ عليّ هذه المرّة وراح يغزو ويحارب وينتشي بتهوّره المعتاد. لمّا سمعت صبح قصّة صديقتها حاولتْ أن تصبّرها وتواسيها قدر المستطاع وتذكر لها سعادتها إلى جنب زوجها عليّ وتتمنّى لها مثل سعادتها

بقي عليّ مع زوجته بضعة أسابيع في ألمريّة، وكان يتردّد إلى علمائها وصوفيّتها. وألمريّة معروفة في الأندلس بهذا الشأن منذ ابن العريف، فلها الزعامة الروحيّة في شرق الأندلس. وكان عليّ يحبّ كثيرًا هذا الرجل الذي توفّي قبل قرن من هذا الزمان، لكنّه ترك أثرًا واضحًا في هذه المدينة. وكان الشبه كبيرًا بين الرجلين، فكلّ منهما فقيه راوية ومجوّد بارع، إلى جانب نظم الشعر الرائق وحفظ الأدب الرفيع. وقد تميّز عليّ عن سلفه بعارضته في النظم والزجل. وممّا كان يشتركان فيه حسن الخطّ، والبعد عن خطط الدنيا. وكان يغلب على تصوّفه الاعتدال مع غزارة العلم. وقد درس عليّ كتابه **محاسن المجالس** واصطحبه معه في الحلّ والترحال، وكثيرًا ما كان يردّد عباراته البديعة. وكتاب ابن العريف هذا جمعه من محاسن الكلام الصادرة عن أهل الإلهام، وضعه ليسهّل على المريدين صعوبة الطريق، ويحملهم على تحرّي أعزّ ما يطلب. فبعض ما ذكره نقله من أئمّة أهل الإلهام، وبعضه الآخر ممّا فتح الله به عليه. وكثيرًا ما كان عليّ يتذاكر مع أصحابه

وشيوخه في بعض فصول هذا الكتاب، ومن ذلك قول المؤلّف: المعرفة محجّتي والعلم حجّتي. فكان كل واحد يفيض على قدر آنيته ويبسط القول على قدر تحقّقه. فهذا يقول المعرفة محجّة لأنّها طريق إلى العلم، والعلم حجّة لأنّ به سقط ميم العدم، وميم النفي، فماذا تنفي وليس في الكون سواه؟ وذلك يقول المعرفة دون العلم لأنّها مسبوقة بجهل، وهي سلوك، والعلم برهان ومعه يرتفع الطريق، فيلج المرء نقطة الوصول من أوّل خطوة يخطوها، ولا طريق. وهكذا تستمرّ المذاكرات والمباسطات بين ذوي الألباب.

ومن سَنِيّ أقوال ابن العريف قولُه: ليس بينه وبين عباده نِسَبٌ إلاّ العناية، ولا سببٌ إلاّ الحُكم، ولا وقتٌ إلاّ الأزل، وما بقي فعمًى وتلبيس.

كان نجم عليّ الششتري يصعد عاليًا في سماء العلم والولاية، وأصبح له أتباع كُثُرٌ من خيرة الشباب، يبثّ فيهم الحماسة ويزرع فيهم الأنفة والتواضع والمحبّة والصدق. وكان يتحرّى طريق أبي بكر بن قزمان في نظم الأزجال الخفيفة على اللسان، المطبوعة بالهزل والخفّة مع العمق والسلاسة. لكنّ بين الرجلين بونًا شاسعًا كان الششتري شابًّا وسيمًا تَرِفًا أديبًا رقيقًا، جميل الصورة حسن العشرة، متخلّقًا بأخلاق الأكارم. أمّا ابن قزمان فكان فقيرًا ذميمًا، حادّ النكتة، زجّالاً حاذقًا، إمامًا في فنّه لا يُجارى، لكنّه

كان قبيح الصورة ويطعن في الأعراض، بل له ديوان أسماه: إصابة الأغراض في ذكر الأعراض. ولعلّه كان يقصد إصابة الأعراض في ذكر الأغراض. فلم تكن أغراض الشعر إلاّ مرقاة وسببًا لإصابة أعراض الناس والتفكّه عليهم والتندّر بدخائلهم وإشاعة قبيح ما ستروه. لكنّه كان مُجيدًا فيما يقول، وكان الناس يَتَّقُونَ شرَّه ويصانعونه، خوف أن يقع في أعراضهم بهجائه. وكان مبتلًى بعلّة ذميمة، إذ كان به حَوَلٌ قبيح، وتلك مصيبته ومكمن ضعفه. ومن طريف ما حصل له ذات يوم، دخوله إلى السوق وتعقّبه لجارية ماجنة فأطمعته في نفسها وأشارت إليه أن يتبعها، فاتَّبَعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيليّة فوقفت على صائغ من صُيّاغها، وقالت له: يا معلّم مثل هذا يكون فصّ الخاتم الذي قلت لك عنه، تشير إلى عين ابن قزمان الذي تبعها. وكانت قد كلَّفتْ ذلك الصائغ أن يعمل لها خاتمًا يكون فصّه عين إبليس، فقال لها الصائغ: جيئيني بالمثال، فإنّي لم أر هذا ولا سمعته قطّ، فجاءته به عن مثال. وبعد ذهابها سأل ابن قزمان الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها. وله مطارحات مع نزهون القلاعيّة الأديبة حين ضمّهما مجلس ابن سعيد الوزير في جنّته بقرية الزاوية من غرناطة. ففي إحدى المرّات أتى إلى المجلس، وكان يلبس غفارة صفراء وهي زيّ الفقهاء في ذلك الوقت، فقالت له: أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلاّ أنّك لا تسرّ الناظرين، تشير إلى دمامته وحَوَلِهِ. فقال

لها إن لم أسرَّ الناظرين فأنا أسرُّ السامعين، وإنّما يُطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة يا صانعة، وتمكّن السكر من ابن قزمان، وآلَ الأمْرُ إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البِرْكَة، فما خرج إلاّ وهو قد شرب كثيرًا من الماء، وثيابه تَهْطِلُ. فقال: اسمعْ يا وزير، ثم أنْشدَ:

إيـهٍ أبـا بـكـرٍ ولا حـولَ لـي     بـدفـعِ أعْـيـانٍ وأنـذالِ
غـرَّقْتَني في الـمـاء يـا سيّدي     كـفِّـرهُ بـالـتَّـغـريـق فـي الـمـال

فهذه بعض نوادر هذا الزجّال الكبير، وكيف كان يتخلّص من المواقف الصعبة بأيسر الطرق فيطرب الحاضرين، ويُحيل عاهته وقبحه سببًا في المفاخرة وإغداق الخير عليه.

كانت هذه الأخبار والنوادر ممّا يتناقله الناس ويرويه الأدباء عن ابن قزمان، إمام الزجّالين. أمّا عليّ الششتري فعلى الرّغم من إعجابه بهذا الرجل، إلاّ أنّه كان ذا نفس أبيّة وأخلاق سامية عالية، ينبو عن السّفاسِف ويجفو عن وُرود حِياض العَفائف.

## ١١

دانت الأندلس لابن هود ودخل تحت يده قرطبة وغرناطة ومالقة ومرسية والجزيرة الخضراء، لكنّه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عليه وُلاته. واغتنم ملك قشتالة الوضع فحاصر قرطبة، وكانت المدينة قد ضعفت ولم تعد تعتمد إلاّ على أهاليها في حماية نفسها وعلى الرّغم من تحصينها التامّ إلاّ أنّ جهتها الشرقيّة كانت ضعيفة التحصين وبها ثُلوم وثغرات. ودام الحصار أشهرًا تمكّن على إثره بعض فرسان قشتالة من دخول جهتها الشرقيّة بعد نفاد أقوات المحاصرين، فكاتبوا ابن هود لإغاثتهم فجمع جيشًا كبيرًا وجنّد الأجناد من كلّ البلاد، وكان والدي ضمن الأمراء. يمّم الجيش الكبير صوب قرطبة فتسامع القشتاليّون به وهابوه وكادوا يهربون، إلاّ أنّ ابن هود خَمَل عن اللقاء، إذ قد بلغته رسالة من جاريته في ألمريّة تطلب منه أن يأتي إليها وإلاّ تصرّفت في شأنها بما يليق. لمّا وصلت الرسالة إلى ابن هود أدار ظهْر المِجنّ لقرطبة وتركها لمصيرها المحتوم، وتلك خيانة كبرى من

أجل قضاء نزوة عابرة. فلم يلبث فرناندو أن عاد بجيشه ودخل قرطبة بكلّ يسر وضاعت عاصمة المسلمين في الأندلس. بعد سقوط قرطبة مات عبد الله الششتري كمدًا على سقوط حاضرة المسلمين بسبب طيش رجل من رجال المسلمين غلبه الهوى والشيطان. حزن عليّ على وفاة والده حزنًا كبيرًا واستشعر حجم الفراغ الذي أحدثه غيابه في حياته.

بعد ذلك رحل إلى ألمريّة وفي عقبه تلامذته وأتباعه، وذهبت زوجته صبح لتفقّد صديقتها ريحانة في يوم الخميس، الخامس والعشرين من جمادى الأولى من سنة خمس وثلاثين وستمائة. وجرى بين الصديقتين من الحديث المعهود، كما أنَّبَتْ صبح صديقتها على الرسالة التي أرسلتها في ذلك الوقت، فأخبرتها ريحانة أنّها لم تكن تعلم بأمر الحرب. ثم أطلعتها على أنّ ابن الرميمي كان قد عزم على الزواج منها خفية، وَقَتْلِ ابن هود إن تعرَّض له في شأنها، فكتبتْ على وجه السرعة تلك الرسالة لكي تَعْرِفَ جليَّةَ أمر السلطان في حقّها، فإمّا يتزوّجها وإمّا يتركها تتزوّج من ابن الرميمي، لكن أمر الله لا رادَّ له، فقد وقع ما وقع من غير عِلمها ولا قصْدِها وكيف يحدث في الكون شيء من فِعْلِ واحدٍ لا حولَ له ولا قوّة؟ إنّ هذا لبهتان عظيم، بل كلّ ذلك صادر عن القديم المتعال. ثم أخبرت ريحانة صبح أنّ السلطان سيزورها في هذا اليوم وطلبت منها أن تبقى معها حتى تخبرها

بجليّة الأمر، فإن قَبِلَ الزواج منها فهو ما كانت تريد وتؤمّل، وإن أبى، فلعلّها تغادر مع صديقتها إن سمح لها زوجها بذلك، فقد ضاقت من هذه القلعة وهذا القصر وتريد أن تخرج وتتنسّم الهواء، وتعيش حياة هادئة مع زوج يحبّها ويُصابِيها وترزق منه بأولاد يجمعون شحمة وُدّهما  وبينما كانتا تتحدّثان إذ أقبلت إحدى الخادمات تُعلِم سيّدتها ريحانة أنّ السلطان قد وصل إلى القصر وهو مجتمع بابن الرميمي في مجلس الضيوف. قامت ريحانة بسرعة وطلبت من صديقتها أن تتبعها ودخلتا إلى قبّة الحريم ثم ارْتَقَتا على درج إلى أعلى القبّة التي كانت تشرف على مجلس الضيوف وجلستا في الشّميْس أو الشَّمّاسة، وهي شرفة تطلّ على المجلس المذكور، ولها طاقة خشبيّة تعاين من ورائها النساء كل ما يجري في المجلس. وبعد أن جلست المرأتان في الشّميس واتَّكأتا على البُسُط والمخدّات المعدّة هناك، دخل السلطان لوحده مع ابن الرميمي وتحدّثا ساعة عن أخبار الرعيّة والمملكة. فقال ابن الرميمي: يا سيّدي إنّ الناس مستاؤونَ جدًّا من انسحاب جيشكم من ساحة المعركة وعودته إلى ألمريّة ممّا أتاح الفرصة لدخول فرناندو إليها واحتلالها  فقال ابن هود: ما لا تعلمه يا صديقي المخلص أنّ فرناندو هو والد ريحانة التي عهدتُ بها إليك. ولمّا علم بشخوصي إليه مع الجيش أرسل لي رسالة يخبرني فيها أنّه يعرض عليّ الصلح والتحالف والمصاهرة على أن نترك له قرطبة

يستغلّ أحوازها ومداخيلها ريثما أتزوّج من ابنته وتنجب لي. وهو يعدني إن أنا تزوّجت من ريحانة وضَعَ ملكه بين يديَّ، وسيكون حفيدُنا جميعًا هو من يرث هذا الملك. وأرى أنّها سياسة طويلة الأمد. وأنت تعلم أنّنا في حاجة إلى السلم والأمن لتركيز دعائم ملكنا، فالمملكة قد اتّسعت والولاة قد استبدّوا ولا أريد إهدار كلّ قوّاتي في معركة لا أعرف نتيجتها

فكّر ابن الرميمي كثيرًا وهو يسمع ابن هود يحدّثه بهذه الأسرار، فقال له: نِعْمَ الرأي يا سيّدي، وأنت تعلم أنّ محْظِيَّتَكَ المحفوظة عندي بمنزلة العين من الجفن وهي لا ترغب إلاّ في الاجتماع بك. كانت المرأتان تراقبان وتسمعان ما يجري، وكانت ريحانة تتعجّب من نفاق ابن الرميمي، وتشتمُّ رائحة الغدر، لكنّها كانت تنتظر نهاية الحديث لتستجلي الأمر.

ثم سأل السلطان عامله عن ريحانة، فقال له: لربّما كانت في الحمّام تتزيّن للقاء حبيبها وسيّدها  ولكن دعنا الآن نجلس مجلسًا نتسلّى فيه من الأخبار السيّئة وننسى، بعض الوقت، هموم الملك وشؤون الرعيّة. وأنت يا سيّدي في حاجة إلى الراحة والاستجمام. وبعد أن تخرج محظيَّتُك من حمّامها وتكون قد تطيَّبَتْ وتزيّنت لك فارْتَعْ معها في مراتع الغزلان والوعول، وخذ منها وطَرَكَ وما يليق بك وبها، فما الدنيا إلاّ ساعة. نادى ابن

الرميمي على رجاله فأحضروا الطعام وعَزَفَتْ جارية شعرًا لابن قزمان وطرِبَ الرجلان وشربا وكانت المرأتان ترقبان عن كثب كلّ ما يجري. فلمّا حلّ الليل ومضى ثلثه الأوّل، صُرِفتِ القَيْنَةُ بعدما لعب الشراب برأس ابن هود. نادى ابن الرميمي على أربعة من رجاله فدخلوا وارتموا على السلطان فكمَّموه، وهو يصارعهم محاولاً التشبّث بالحياة، وعلا صياحه ثم تحوّل إلى شخير وتمكّن الزبانية منه فوضعوا مخدّتين على أنفه وفمه حتى انقطع نفسه. كانت ريحانة تصرخ من أعلى الشبّاك فرفع الرميمي رأسه نحوها وقال لها: اذهبي لقبّتك يا ريحانة، فإنّي ما فعلتُ هذا إلاّ من أجلِكِ وسأتزوّجك كما وعَدْتُكِ. أُضِيئَتِ الشموع والمصابيح في القصر من شدّة الصراخ، لكن صاحب القصر أصدر أوامره للجميع بالتزام الهدوء.

حمل رجال ابن الرميمي السلطانَ إلى محلَّته خارج ألمريّة وتسلّلوا إلى خِبائه وأسْجَوه في سريره. فلمّا أصبح الصباح دخل عليه أحد غلمانه فرآه هامدًا لا يتحرّك، وسرى الخبر سَرَيَانَ النار في الهشيم وتناقل الناس عقاب الله الذي يُمْهِلُ ولا يُهمِلُ، وكيف أنّه انتقم من هذا الرجل الذي أسلم أمر الأندلس إلى الكفّار بعد أن تحوّل عن الدفاع عن قرطبة مُيمِّمًا شطر ألمريّة حيث جاريته الروميّة.

عاينتْ صبح ما حصل لابن هود وكيف قتله رجال ابن الرميمي غدرًا، وأمضت ليلها متيقّظة متوجّسة من المجهول. فمرّة تواسي صديقتها ومرّة تواسي نفسها. واتّفقتا على أن تخفي ريحانة عن ابن الرميمي وجودَ صبح في القصر واطّلاعِهَا على الاغتيال حتى لا يفكّرَ في قتلها مع زوجها، ويقطعَ ذيوع هذا الخبر.

وفي الصباح خرجتْ مُتلفّعة في مُروطِهَا تتلفَّتُ يمنة ويسرة حتى لا يضبِطَها رجالُ ابن الرميمي. وحينما جازتْ من الحديقة لمَحَها أحد الحرّاس فناداها: إيه يا امرأة توقّفي، لكنّها تظاهرتْ بعدم سماعه وأسرعتِ الخطى. فكرّر عليها الأمر ثانية: أنتِ يا جارية، قلتُ لك توقّفي، لكنّها ضاعفت من خَطْوها. وبدا وكأنّ الحارس فطِنَ إلى هروبها وتسلُّلها. فرفع صوته: قلتُ لك توقّفي هذه المرّة وإلاّ

لمّا سمعتْ تهديد الحارس المبطَّن، التفتتْ صبح نحوه ورفعتْ ذيولَ ثوبها ومضتْ لا تلوي على شيء حتى جازت بابًا صغيرًا لحديقة القصر وانسلّتْ منه للخارج.

تعقّبها الحارس وهو يركض لكنّها كانت أسرع عدْوًا منه، والمسكين كان مُسِنًّا. وحين وصل للباب الذي مَرَقَتْ منه غاب أثرُها بين الأحراج، فعاد إلى سيّده يخبره الخبر. جمع العامل رجاله ووبّخهم على تفريطهم، واستقصى أمر الجارية فلم يَحْظَ

بجواب. ثم خطر بباله أن يستنطق ريحانة، فهبّ مسرعًا إليها فوجدها في قبّتها تتصنّع النوم وقد علِمَتْ بما جرى من غلامها ووصيفتها أمر ابن الرميمي الخدم بالخروج واختلى لوحده مع ريحانة. وقال لها: لقد فعلتُ ما فعلتُ من أجلنا ولقد خلا لنا الجوّ اليوم كي نتزوّج. وهذا الأمر يحتاج إلى الكتمان، لكنّ الحرّاس أبصروا اليوم جارية خارجة من القصر وأنا أريد أن أعرف من هي هذه الجارية التي ربّما اطّلعتْ على ما جرى بالأمس. وأخشى أن تُفسد عليَّ خطّتي بإشاعتها الخبر، ولن أَسْلَمَ من القصاص. ثم أردف قائلاً: هيّا يا ريحانة، قولي لي من هذه الجارية التي كانت هنا في القصر؟ تظاهرتِ المرأة بالجهل فقالت له: لا أدري عمّا تتحدّث، فلم يعاينْ أحد الجريمة التي ارتكبت أمس غيري، فقد كنتُ بمفردي في الشّميس. فاسألْ نساءَك الأُخْريات لعلَّهنَّ يخبرْنَكَ بهويّة تلك الجارية. فقال لها ابن الرميمي: يا حبيبتي الغالية، لا تتكتَّمي على تلك الجارية، فإنّي سأستنطق جميع الخدم، بل سأنال اعترافاتهم بالقوّة إن لزم الأمر. والأفضل أن تقولي لي الآن. ثم إنّك تعلمين أنّك الوحيدة التي سَمَحْتُ لها باستقبال صديقاتها الروميّات تخفيفًا عنك من الوحدة. أمّا سائر نسائي، فلم يكن هذا دَأْبُهُنّ.

فقالت له ريحانة: كما قلت لك، لا أعرف من هي هذه الجارية. وليس من العدل أن تُجبر غلامي ووصيفتي على

الاعتراف بشيء لم يَشهداه. فإنّي أحذِّرك من ذلك، فإنّك إن عذّبتَهُما فلا تُمنِّ نفسَك بالزواج منّي. إنّهما لا يعلمان شيئًا عن هذه الجارية، فاستخبرْ غيرَهُما. أَعْيَتِ الحيلةُ العاملَ ابن الرميمي مع ريحانة فغادر قبّتها وأصدر أوامره لرجاله بالتحرّي عن الأمر ومساءلة نساء القصر حتى يأتوه بهويّة المرأة.

أمّا عليّ فإنّه بات تلك الليلة قلِقًا على زوجته التي لم تعدْ للبيت. وبينما هو يستعدّ للتبليغ عنها لدى صاحب شرطة المدينة إذا هي تُقْبِلُ عليه مُصْفَرَّةً مذعورة. حاول أن يُهدِّئ من روْعها لكنّ الكلمات كانت تتعاقبُ مِنْ فِيها بسرعة فائقة وكأنّها تُسابقُ الزمن لتُخْبِرَهُ بالخطر الذي يتهدّدهما. ولمّا حكت له ما حصل قالت له: لا بدّ أن نغادر ألمريّة حالاً لأنّ ابن الرميمي سيكتشف أمرنا بسرعة وسيسعى لإلقاء القبض علينا وقتلنا. حَوْقَلَ عليٌّ واستغفر الله، وانتهرها لأنّها أمضت الليلة خارج البيت. فأجابته صبح بأنّ ما حصل البارحة منعها من الخروج من القصر فانتظرت حتى طلع النهار. وكأنّ عليًّا ذُهل عن الخطر الذي يتهدَّدُه فقال لزوجته: إن الله يسلِّط الظالم على الظالم، وهذا الرجل ابن هود الذي جَبُنَ عن الدفاع عن قرطبة عاصمة ملك المسلمين في الأندلس كلّها، قد أماته الله شرّ ميتة. فإنّ الموت الذي هرب منه في الدفاع عن بيضة المسلمين قد أتاه وهو في سريره، فهلاّ اعتبر الناس. لقد كان بوسعه أن يموت شهيدًا في ساحة الوغى ويُخلِّدَ ذكْرَهُ في العالمين

واستنقاذ قرطبة من براثن الكفر والدفاع عن كلمة الله العليا، لكنّ أمر الله نافذ.

فقالت له صبح: يا عليّ، ليس هذا وقت أخذ العِبر والدروس، بل علينا أن نغادر حالاً، هل تفهم ما أقول. إنّنا في خطرٍ من هذا الرجل.

وكأنّه أفاق من سكرته، فأخذ عُدَّته ونادى على بعض طلبته الملازمين له وأمرهم بإعداد فرسه وبغلة لزوجته، ثم أوصاهم بكتمان خبر مغادرته وحمْل ما تبقّى من أغراضه بعد مغادرته ألمريّة واللحوق به بعد أيّام. واصطحبه في سفره إلى غرناطة طالبان من أخصّ طلبته يقومان على خدمته مع زوجته.

## ١٢

خرج عليّ الششتري من ألمريّة قاصدًا غرناطة مع زوجته وبعض طلبته الأوفياء. وكانت المدينة في جلبة والشرطة تراقب الوافدين على المدينة والمغادرين. ولحُسْنِ حظّ عليّ فإنّه كان يحمل معه كتابًا قد كتبه له أبوه يسمح له بالدخول والخروج من دون مضايقات.

أمّا ابن الرميمي فإنّه أمضى صباحه ذلك في مساءلة النسوة والغلمان فلم يظفر منهم بشيء. وفي منتصف الظهيرة خطر له أن يسأل البستاني المكلّف برعاية بستان القصر، فأرسل في طلبه وسأله قائلاً: هل رأيت أحدًا زار القصر البارحة؟ فأجاب البستاني مرعوبًا: نعم يا سيّدي، ففي كلّ يوم زُوّار يأتون للقصر ولكنّهم يمرّون من الباب الرئيس. فقال له ابن الرميمي منتهرًا: لم أسألك عن هذا، بل أسألك عن الباب الخلفي للقصر الذي لا يدخل منه أحد سواك. فقال البستاني: لقد طلبَتْ منّي سيّدتي ريحانة البارحة أن أقطف لها بعض الزهور، فلمّا جئتها بما طلبت أمرتني أن لا

أضع القفل على باب الحديقة الخلفي عند مغادرتي. ولا أدري ما هو السبب. ثم سأله العامل مرّة أخرى: وماذا فعلت؟ فأجاب: بعد انتهاء عملي خرجتُ وتركْتُ الباب كما أَمَرَتْ، ولا أدري ما حصل. فانتهره العامل وقال له: ألا تعلم أنّك مسؤول عن أمن ذلك الباب؟ فكيف تتركُهُ بلا قفل ولا تخبرني بذلك؟ فأجاب المسكين: يا سيّدي، إنّي خادم مطيع، وكنتَ قد أمرتَني بتلبية جميع طلبات مولاتي ريحانة. فقال الوالي: خذوه وأشبِعوه ضرْبًا حتى يعلمَ مَنْ صاحبُ الأمر والنهي هنا. ثم أمر رجاله أن يأتوه بغلام السيّدة ريحانة فعادوا به وقد استَحالَ سوادُه إلى صفرة من شدّة الوَجَل، فقال له الوالي: من هي الجارية التي زارت مولاتك البارحة؟ فقال الغلام بدون تردّد وقد خشي على نِفسه من القتل: إنّها صبح، أي ماريّة الروميّة يا سيّدي التي كانت تقطنُ في القصر سابقًا والتي غادرَتْهُ نهائيًّا بعد زواجها.

ضرب الوالي كفًّا بكَفٍّ، وأمر الغلام بالانصراف. وما كاد المسكين يغيب حتى أخطر مولاته بما حصل، فَحَمِدَا الله على نجاته من براثن الوالي. أمّا هذا الأخير فقد أعطى أوامره لرجاله بأن يأتوه بالجارية وزوجها.

ذهب الزبانية في طلب صبح وعليّ، فلم يجدا أحدًا وأخبرتهم العجوز التي كانت تُؤَجِّرُ لهما البيت بأنّهما غادرا مبكرًا هذا الصباح من غير أن يُعَيِّنا لها وجهتهما.

استوثق الزبانية من الخبر وسألوا صاحب الشرطة عن لائحة المغادرين ذلك الصباح، فوجدوا فعلاً أنّ عليًّا وزوجته صبح قد غادرا مبكرًا عادوا إلى الوالي فأخبروه بالأمر، فعَضَّ على شفته من الغيظ لأنّه توقَّعَ أنّ الوادي آشي سينشر خبر الجريمة في غرناطة. فأمر زبانيته باللحوق بعليّ وزوجته وقتلهما. فغادروا على وجه السرعة.

ثم أرسل ابن الرميمي في طلب القاضي مع عدلين ليعاينوا حالة الميت، فلمّا دخلوا لم يجدوا أثرًا لجروح أو دم. كما أنّ لون الرجل طبيعي غير ممتقع. وحتى يُبْرِئَ القاضي ذمّته فتحَ فَمَ الميت وعاين لسانه ومرَّرَ سبّابته على مسامّه لعلّه يجد أثرًا لمادّة سامّة فلم يشمّ غير كُباسِ الخمر المنبعث من جوفه. استغفر القاضي وحوقل بكلمات مبهمة ومسح طرف أصبعه في ثوبه وأعلن أمام العدلين بأنّ الوفاة طبيعيّة وسجّلا محْضرًا بذلك.

أمّا غرناطة فكانت هي الأخرى تعرف جريمة أخرى. فقد قُتل واليها عتبة بن يحيى، وأجمع أهلها على خلع بيعة ابن هود وبيعة ابن نصر، فدخلها الأمير أبو عبد الله بن الأحمر قبل صلاة المغرب بقليل، ووصل عليّ مع زوجته في الوقت نفسه وأوصى طلبَتَهُ بحراسة بيته وزوجته بعد إيصالها للبيت، ثم قصد مسجد جامع القصبة لصلاة المغرب فوجد الأمير قد وصل في الوقت

نفسه مع حاشيته وقدَّمه الناس للصلاة بهم وتأخّر إمام المسجد أبو المجد المرادي. قام الأمير الذي كان يلبس شَايةً(١) وهو مقلّد بسيفه على هيئة المسافر، فصلّى بالناس وقرأ الفاتحة وسورة النصر في الركعة الأولى، ثم قرأ الفاتحة والإخلاص في الثانية، وقام الناس يسلّمون عليه. وقام عليّ مع القائمين فسلّم على الأمير وأعلمه بموت ابن هود وتَعقُّبِ ابن الرميمي له وتوجُّسِه من قتله، فأمر الأمير بإرسال بعض الجند إلى بيت الششتري لحراسته. وبعد ذلك انصرف الأمير إلى قصر باديس بن حبوس والشمع متّقد على الأبواب.

وعلى الرّغم من تطْمين ابن الأحمر للششتري إلاّ أنّه كان يتوجّس من مكر ابن الرميمي ودهائه.

أمّا زبانية هذا الأخير فإنّهم وصلوا إلى غرناطة مع الفجر وسألوا عن بيت الششتري حتى وجدوه فترصّدوا له قبل خروجه للصلاة. وما إن خرج من الباب حتى أمسكوا به، لكنّ الجند الذي كان يحرس البيت تنبّه لهم وباغتهم وأعمل فيهم السيوف ونجا عليّ من موت محقّق. خرجت صبح ووجيبُ قلبها يخفُق كالطبل من شدّة جزعها فهدّأ من روعها زوجُها وحمد الله على السلامة وشكر الرجال على صنيعهم. واصطحبه بعض الجند إلى

---

(١) الشّاية: لباس حربي محشوّ بالقطن لوقاية المحارب.

المسجد حتى أدّى الصلاة وعادوا به آمنًا. وفي الصباح طلب المثول أمام الأمير ليشكره، وكان خبر اغتياله قد وصل لابن الأحمر، فقال له ممازحًا: نجوتَ من القوم الظالمين يا ابن عبد الله، كانوا سيتسحَّرون بك فتعَشَّينا بهم. ثم أردفَ قائلاً: الحمد لله على سلامتك.

شكر عليّ الأمير على ما قام به، لكنّه أعرب له عن قلقه من ابن الرميمي الذي لن يدعَهُ يفْلِتُ منه. فقال له الأمير: لا تقلقْ، إنّنا أعددنا أمرنا لنزحف على ابن الرميمي فنضبطَ ألمريّة لملكنا ونعاقبَه على غدره. وستحضر إن شاء الله معنا هذه الحملة في محلَّتنا حتى تتأكّد من القضاء على هذا الغادر.

بعد أن أكمل الأمير استعداداته خلال الأسابيع التي تلت وصوله إلى غرناطة، تجهّز للخروج واصطحبني في محلّته كما وعدني، وكانت ألمريّة مدينة محصّنة فقطع عنها الموارد. أمّا ابن الرميمي فقد سدّ منافذها وجمع الذخيرة والعتاد والغلال تحسّبًا للحصار، لكن أهل ألمريّة ضجُّوا من الحصار، وقرَّروا فتح المدينة أمام الأمير ابن الأحمر. أمّا ابن الرميمي، فإنّه تحصّن في قصره المشرف على البحر، فلمّا وصله خبر فتح أبواب المدينة ركب مركبًا كان قد أعدّه له ولأهله وماله، ثم هرب قاصدًا تونس تحت كنف الأمير أبي زكريّا، واصطحب معه ريحانة على الرّغم من تمنّعها.

دخل الأمير ابن الأحمر المدينة وبايعه أهلها، وأمر برجال ابن الرميمي فسجنهم، ثم أمر باقتياد مشرف ألمريّة محمّد بن عروس إليه لأنّه هو الذي أرسل الدَّرَّابين لقتل عليّ وزوجته، فوُضِعَ في الحديد واقْتِيدَ بالأكبال كالسبع الضاري إلى غرناطة مع السلطان الجديد، وأقسم أن يعاقبه حينما يعود إلى قصر الحمراء في غرناطة.

مكتبة الرمحي أحمد

اطمأنّ عليّ أخيرًا على نفسه وزوجته من ابن الرميمي وزبانيته. وعاد مع السلطان إلى غرناطة، فوضع مشرف ألمريّة في السجن فكانوا يضربونه بالسياط حتى توفّي.

ثم إنّ السلطان طلب من عليّ الششتري أن يكون أحد وزرائه ورجالاته ليشتغل في ديوان الكتاب. لكنّه اعتذر عن ذلك بلطف، وطلب من السلطان أن يتصدّر للإقراء في غرناطة ويملأ مساجدها بالعلم النافع. أقرَّ ابنُ الأحمر عليًّا على هذه الخطّة لما كان يعلم عنه من استقامة وباع طويل في العلم، وفطِنَ إلى رغبته عن دسائس السياسة. حظي عليّ الششتري باحترام كبير في غرناطة، فقد كان أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن نصر يرعى العلماء والشعراء والأدباء ويَحْدِبُ على الصالحين والأخيار.

أمّا الدولة الهوديّة فقد انخرم أمرها بموت السلطان ابن هود إذ لم يكن ولده الذي بويع له في مرسية بمثل حزم والده، وعادت

البيعة من جديد إلى الموحّدين الذين ملك أمرهم الخليفة الرشيد. وحتى الأمير محمّد بن يوسف بن نصر كان يظهر طاعته للرشيد، وذلك من دهائه وَوُفور عقله. وتجمَّع حوله خيرة أهل الأندلس وأمراؤها، فشيّد المساجد والحصون وازدهرت في عهده غرناطة وما وليها من الأقاليم. واختطّ الحمراء وبنى بها حصنًا ورفع سدًّا وحفر ساقية ليوصل الماء إليها، فجاء نظامها بديعًا وغُرست بالغروس وأنواع الرياحين والفواكه.

## ١٣

استقرّ عليّ في غرناطة وجلس للإقراء، وكان يجيز في القرآن والفقه والأصول والحكمة. وكثيرًا ما كان يقرئ النحو من كتاب **المفصّل** للزمخشري، والأدب من **مقامات الحريري**، وأصول الفقه من كتاب **المستصفى في علم الأصول** لأبي حامد الغزالي، وكان الطلبة يزدحمون في حلقته للظفر بالعلوم النقليّة والأدبيّة والحكميّة. ومرّة سأله أحدهم عن سبب اختياره لكتاب **المستصفى في أصول الفقه**، فأجاب عليّ قائلاً: إنّ طريقة أبي حامد رحمه الله واضحة المعالم، فقد تدرّج في كتبه من الكبير إلى المتوسّط فالوجيز. فمثلاً ألَّف في علم طريق الآخرة ومعرفة أسرار الدين الباطنة كتبًا تحرّى فيها هذه المنهجيّة. فهذا كتابه الكبير **إحياء علوم الدين**، قد وضع له وسيطًا سمّاه **كيمياء السعادة**، ووجيزًا سمّاه **جواهر القرآن**. والأمر نفسه صَنَعَهُ في علم أصول الفقه، فألف **تهذيب الأصول**، ومال فيه إلاّ الاستقصاء والاستكثار. ووضع له وسيطًا هو هذا الكتاب الذي ندرسه، وتحرّى فيه التلفيقَ بين الترتيبِ

والتحقيقِ، والتوسُّطَ بين الإخلالِ والإملالِ. ووضع وجيزًا لهذا العلم سمّاه **المنخول**. وقد استعار في تسميات هذا العلم من صناعة أصحاب الطَّواحين وتَدَرُّجِ عملهم في تنقية الحبوب من تهذيب وتصفية ونخل. وقد اخترنا، ولله الحمد، كتاب **المستصفى** لأنّه جمع مقاصد هذا العلم من غير إخلال ولا إملال، وهو أمر مطلوب في نجاح التدريس والتعليم.

كان أوّل درس أعطاه الششتري لتلامذته في موضوع أصول الفقه هو تحصيل مسمّى الفقه أوّلاً، ثم تحصيل الأصول ثانيًا، وثالثًا تحصيل المركّب الإضافي أصول الفقه. ثم قسّم الأحكام إلى نقليّة وعقليّة، وبدأ في بيان معنى الفقه لغة واصطلاحًا بمعرفة الأحكام الشرعيّة الخمسة من وجوب وحظر وإباحة وندب وكراهة. ثم أفاض ثانيًا في معنى الأحكام العقليّة وتقسيمها إلى واجبة وممكنة ومستحيلة. وتكلّم عن الأصول، وهي الكتاب والسُّنّة والإجماع وشرائط صحّتها وثبوتها ثم لوجوه دلالتها، وتعرّض للقياس. وبعد ذلك انتقل إلى بيان مرتبة هذا العلم ونسبته إلى سائر العلوم. وبعد أن رسّخ في ذهن المتلقّي الإحاطة بهذا العلم وأبوابه وفصوله وفروعه، وحدّد ماهيّته واختصاصه، وكيف أنّه يُعنى بكيفيّة اقتباس الأحكام من الأدلّة، انتهى إلى أنّ المطلوب هو النظر في الأحكام، ثم في الأدلّة وأقسامها، ثم في كيفيّة اقتباس الأحكام من الأدلّة، ثم في صفات المقتبِس.

كانت الدروس شيّقة وممتعة، وخصوصًا الدروس المتعلّقة بوجوه دلالة الأدلّة، إمّا من حيث المنظوم أو حيث المفهوم، أو من حيث الدلالة بالضرورة والاقتضاء أو من حيث الدلالة بالمعقول.

وبعد الإحاطة النظريّة بهذا العلم ينتقلون إلى التطبيق العملي له، وهذا تمرين شاقّ وعسير، إذ إنزال الأحكام والنظريّات على الوقائع صعب ولا يتخلّص للمرء إلاّ بعد الدُّربة وكثرة المراس، لكنّ الطلبة بعد تحصيله كانوا في غاية السعادة والمتعة.

وكان الطلبة يدركون أهمّيّة هذا العلم، وكيف أنّه نافع لكلّ العلوم الأخرى، لأنّه علم آلة، وإذا حصّلوه حصَّلُوا علم اللغة وما يجري مجراه، وعلم الفقه والحديث والتفسير والكلام والمنطق والحجاج والمناظرة.

ومن أمتع الدروس التي تلقّاها الطلبة ذلك المتعلّق بالحدّ والبرهان. وهذا الدرس يصلح لأن يكون مقدّمة لكلّ العلوم، فهو نافع في كلّها. وللحدّ لا بدّ من معرفة المفردات، ولهذه المعرفة قوانين تجري عليها.

سأل أحد الطلبة المعلّم عن عدد هذه القوانين فأجابه قائلاً: عددها ستّة، فأوّلها أنّ الحدّ يُذكر جوابًا على سؤال. والأسئلة تكون بصيغة **هل**، ويطلب بها أمران: الوجود أو حاله، كقولنا:

هل الله تعالى موجود؟ أو هل الله تعالى خالق؟ وصيغة **ما** ويطلب بها ثلاثة أمور: شرح اللفظ مثل: ما السُّلاف؟ فيقال: هي الخمر والثاني أن يطلب لفظ محرّر جامع مانع يتميّز به المسؤول عنه من غيره، مثل: ما الخمر؟ فيقال: هو المائع الذي يقذف بالزبد ثم يستحيل إلى الحموضة ويحفظ في الدنّ أو القناني. فيجمع من عوارضه ولوازمه ما يساوي بجملته الخمر، بحيث لا يخرج منه خمر ولا يدخل فيه ما ليس بخمر، وهو قولنا جامع مانع، أي جامع لكلّ خمر ومانع لغيرها من الدخول في هذا الحدّ. والمطلب الثالث من صيغة **ما** يطلب به ماهيّة الشيء وحقيقة ذاته، كمن يقول: ما الخمر؟ فيقال: شراب مسكر معتصر من العنب. فيكون هذا القول كاشفًا عن حقيقته ثم يتبعه لا محالة التمييز. فالحدّ الأوّل لفظي والثاني رسمي والثالث حقيقي.

أمّا المطلب الثالث من أمّهات المطالب فيكون بصيغة **لِمَ**؟ وهو سؤال عن العلّة والسبب، وجوابه بالبرهان. أمّا المطلب الرابع والأخير فيكون بصيغة **أيّ**، ويقصد منه تمييز ما عُرِفَ جُمْلَتُهُ واختلَط بغيره كسؤال السائل: ما الشجر؟ فيقال له: إنّه جسم، فيعود إلى السؤال مرّة أخرى: أيُّ جسم هو؟ فيقال: نامٍ.

وأمّا أدوات السؤال الأخرى مثل: كيف وأين ومتى وغيرها فهي داخلة في المطلب الأوّل من أمّهات المطالب المصوغة بهل، المطلوب بها صفة الوجود.

وهكذا كان عليّ الششتري يدرّس طلبته، ثم ينتقل إلى القانون الثاني، ويميّز بين الصفات الذاتيّة كاللونيّة للبياض والسواد وغيرهما من الألوان، وكالجسميّة للحيوان والنبات؛ والصفات اللازمة مثل ملازمة الظلّ للأجسام، ولكن يمكننا فهم حقيقة الشيء من غير توقّف فهم تلك الحقيقة على هذه الصفة اللازمة. ثم الصفات العرضيّة وهي التي لا تلازم الشيء أبدًا بل يمكنها أن تفارق الموصوف كحمرة الخجل.

وهنا سأل أحد الطلبة قائلاً: ما هو الفرق بين الصفة الذاتيّة والصفة اللازمة، مع العلم أنّهما تشتركان في استحالة المفارقة؟

فأجاب المعلّم مبتهجًا: أحسنت يا ولدي، إنّ هذا اللّبس بين اللازم والذاتي هو من مثارات الأغاليط الكثيرة عند العلماء. فالحدّ ينبغي أن يقتصر في سؤال **هل** على الذاتي فقط، ويدخل فيه العامّ ويسمّى الجنس، والخاصّ ويسمّى النوع.

ثم ينتقل عليّ الششتري إلى القانون الثالث ويتحدّث عن الحدّ، وكيف أنّه ينبغي أن يجمع وظائف منها: أن تُجْمَعَ أجزاءُ الحدِّ من الجنس والفصول. مثال ذلك السائل الذي يسأل مشيرًا إلى ما ينبت من الأرض: ما هو؟ فلا بدّ أن تقول: جسم، لكنّك لو اقتصرت على هذا لبطل الحدّ الذي ذكرته بدخول الحَجَر ضمنه، فتحتاج إلى الزيادة في حدِّك فتقول: نَامٍ، احترازًا به عمّا لا ينمو،

وهذا الاحتراز يسمّى فصلاً، لأنّك فَصَلْتَ به المحدود عن غيره. ومن تلك الوظائف أن تذكر جميع ذاتيّات المحدود مهما بلغ عددها، وأن ترتّبها حتى لا يقع الإنكار عليك، فلا تقول نامٍ جسم، بل تقول جسم نامٍ. ثم تذكر أحد الجنسين، إمّا القريب أو البعيد، كقولك في الخمر مائع أو شراب ولا تجمع بينهما حتى لا تشوّش. فإذا ذكرت الجنس فاذكر بعده الفصل كقولك: شراب مسكر. ثم يجب الاحتراز من الألفاظ الغريبة والمجازيّة البعيدة والمشتركة، والاجتهاد في الإيجاز.

ثم يعرّج على القوانين الباقية في طريقة اقتناص الحدّ، وحصر مداخل الخلل في الحدود، واستحالة حدّ المعنى الذي لا تركيب فيه البتّة حدًّا حقيقيًّا، بل يحدّ بشرح لفظه أو بطريق الرسم.

## ١٤

اشترى عليّ لنفسه بيتًا في لَوْشَةَ، وقد كان يختلف إليها في طفولته، فلمّا استقرّ في غرناطة كان يقصدها ليستجِمَّ فيها في وقت راحته رفقة والدته وزوجته التي رُزقت بولد أتحف جِيدَ حياتهما بعقد ثمين. وقد أقام عليّ حفلاً بالمناسبة دعا إليه طلبته ومريديه وأصدقاءه وأقرباءه. وفي يوم العقيقة حضر أكثر من أربعمائة طالب بلباس موحّد، إضافة إلى المدعوّين من الأخيار والأفاضل والأدباء. بدأ الاحتفال بعد طلوع الشمس حيث ذبح الوالد كبشين مليحين أقرنين، وسمّى ولده الحسن، ثم قُدّمت أنواع المأكولات للضيوف، والمرطّبات، وشرع قارئ فقرأ جزءًا من القرآن، ثم أعقبته مدائح نبويّة. وفي ذروة ذلك قامت العمارة، وهي لحظة شهود قصوى قام فيها الذاكرون بإشارة من الشيخ الذي أخذ ينظّمهم في شكل حلقة كبيرة، أو طابق كبير كما كانت تسمّى، وذلك حسب طبيعة المكان والزمان والأعيان. وقد اتّخذ اسم الطابق للحلقة لأنّه كالغطاء لها، كما أنّ مستنده قرآني لدى قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا

عَنْ طَبَقٍ﴾، أي حالاً بعد حال. ولأنّ الحلقة أو الطابق مَظنّةٌ لحُصولِ الأحوال والواردات، فقد سُمّيت بهذا الاسم. وللطابق آداب مرعيّة، فلا يدخل إليه إلاّ الفقراء، ويتولّى الخادم السهر على حسن تنظيم الطابق بإشارة من الشيخ. وإذا دخل فقير الطابق بفرجيّة غير مُزَرَّرَةٍ بَانَتْ عنه. كما أنّ مَنْ خَلَعَ ما على رأسه بان عنه كلّ ما عليه. والعِيَاطُ الفاحش في السماع مذموم، وكذلك كثرة الوقوف في الطابق ما لم تشهد له البواطن بالصدق. ولا يُزاحم محترم في طابقه، كما أنّه لا كلام للفقراء في الخِرق مدّة مَنْظُورِيَّتِهِ، إلاّ إن أذن في ذلك. بدأ الشيخ بتصديرة خاصّة من نظمه لجأ إليها حتى تستقيم له الحضرة وتنتظم، ويأخذ كلّ واحد مكانه؛ فالمنشدون في جهة والشيوخ في جهة ثانية والفقراء في جهة ثالثة. ثم انتقل إلى الجلالة المجرّدة ورفع أحد القوّالين صوته بإنشاد قصيدة للشيخ. وكان المسمعون يخلّلون كلّ بيت من القصيدة بترديد هذه الجلالة المجرّدة. وبعد الانتهاء من القصيدة غيّر الشيخ جلسته وتحوّل جاثيًا على ركبتيه، فتبعه كلّ من في الحضرة. وأخذ عليّ يجول في الحلّة الأولى، ومعناها في لفظها، فإنّها حلّة للدخول على ملك الملوك. يجولون في عدّة أنغام تسمّى الحُلل. وكلّ حلّة من تلك الحلل تكسو الحاضرين خِلَعًا متنوّعة من الواردات الوهبيّة. وهي ذكر محض تتخلّله بعض الإنشادات التي يؤدّيها كبار المنشدين. وكان المنشد يكرّر البيت الذي أُنشد قبل حتى يحفظه بقيّة المسمعين، ثم ينشد

منشد آخر بيتًا ثانيًا ويكرّره الذي يليه حتى تُنشد سبعة أبيات. فما إن تحقّق الواردون على العمارة بتلك الحلّة حتى انتقل الشيخ إلى حلّة أخرى، ورَكِبَ طابقًا آخَر، ونغمًا آخر وإنشادات جديدة ونفحات سديدة، وهكذا استمرّ الحال إلى أن ختم الحلل بالاسم المفرد. ثم قام الشيخ واقفًا وأشار لباقي حضرة السرور أن تقوم، وغنّى بجلالة خاصّة مختلفة عن الحلل السالفة مع تخليلها. وتأتي المرحلة الثالثة وفيها يبدأ الغناء والسماع والقصائد والصنائع، ويسمّيها أهل السماع، المستعملات. والإيقاع في هذا كلّه يتدرج من البطيء ويسمّى **الموسع**، إلى **المهزوز** وهو قنطرة إيقاعيّة بين نمطين مختلفين من الحركات الإيقاعيّة، ثم أخيرًا **الانصراف** السريع ويُختم بالقفل. وقد استغرق هذا جزءًا من النهار حتى أَحَسَّ الشيخ بتعب المريدين فأمرهم بالجلوس فجلسوا ثم بدأ هو في إنشاد برولة زجليّة من نظمه تسمّى في اصطلاحهم التَّرْويحة، يُرَوِّح ويُريحُ بها المسمعين والمعمِّرين من التعب، واستمرّ في عمله ذاك إلى أن أَذِنَ مرّة أخرى للعمارة بالقيام، فقامت وبدأ الذكر بالاسم المفرد: الله الله الله حتى فَنِي الكلّ في الكلّ ولم يبق سوى الله.

وكان مِن بين مَن حضر هذا المجلس الربّاني بعض من أئمّة الصوفيّة وأرباب الصلاح. وأغلب من ظهر نجمه آنذاك أتباع الشيخ أبي مدين الغوث، وأتباع تلميذه الأخْيَر، الشيخ الأوحدي الأنْور، أبو أحمد جعفر ابن سيدبونة في شرق الأندلس، وانتقل

أثرُه إلى عموم هذه البلاد وخاصّة غرناطة بعد وفاته. كما كان الناس يتسامعون بأخبار محيي الدين بن العربي في المشرق، وانتشرت أخباره وكتبه شرقًا وغربًا، وأشرق نور ولايته في الخافِقَيْن. وهو أحدُ ثلاثة ظهروا في مرسية، وثانيهم أبو الحسن المراكشي، المنسوب إلى حرالّة من أعمال مرسية، وثالثهم، عبد الحقّ بن سبعين، وهو من أقران أبي الحسن الششتري. وقد حضر بعض أتباعه في حفل العقيقة وجلس قريبًا من الشيخ. وبعد أن انتهى الحفل وغادر الحاضرون، طلب عليّ صاحبَ ابن سبعين أن يمضي الليلة في بيته قبل أن يسافر لملاقاة أستاذه المقيم في سبتة.

ولما جَنَّ اللّيل وهَمَدَ الحيّ، استدعى أبو الحسن ضيفه لتناول العشاء، وقصده أن يسأله عن شيخه ويستخبر منه عن أحواله. وبعد أن تكلّما ساعة في العقيقة والضيوف والسماع الذي أقيم، سأل أبو الحسن ضيفه عن شيخه وأخباره العجيبة. قال الضيف: دعني يا سيّدي أخبرك بما حصل له مؤخّرًا فلعلّ هذا يُعطيك فكرة عن صاحبي وأستاذي. لقد سمعتَ، كما سمع الجميع، عن رسالة الإمبراطور فرديريك التي وجّه نسخًا منها إلى المشرق ومصر والشام والعراق والدروب[1] واليمن. فقال أبو الحسن: نعم سمعت عنها ولكن لا أدري ما تمّ بشأنها. فقال الضيف: لقد

(١) الدروب: بلاد الروم.

وصلت أجوبة حكماء المسلمين بما لم يرضَهُ الإمبراطور فسأل عن إفريقيّة ومن بها، فقيل له إنّها عريّة عن هذا الشأن، ثم سأل عن المغرب والأندلس فأخبره فيبوناتشي، وهو أحد علماء النصارى ممّن عاش في بلاد المغرب ودرس على علمائها الحساب، حيث قضى فترة كبيرة من حياته بجانب والده ممثّل تجّار البندقيّة في مكاتبهم ببلاد المغرب. وذكر له أنّ بها رجلاً يعرف بابن سبعين، فكتب للخليفة الرشيد في أمرها، الذي كتب لعامله على سبتة، ابن خلاص البلنسي، لكي ينظر في أمر الرجل المذكور ليردّ الجواب عن أسئلة الإمبراطور. وقد وجّه ملك الروم رسوله يحمل مالاً عظيمًا ثم إنّ ابن خلاص استدعى الإمام عبد الحقّ بن سبعين وأوقفه على الأسئلة بأمر الخليفة، فلمّا قرأها ضحك وألزم نفسه الجواب عنها فدفع له ابن خلاص المال الذي جاء به رسول الإمبراطور، لكنّه لم يقبله وردّه عليه وقال إنّما أجيب عنها احتسابًا لله وانتصارًا للملّة الإسلاميّة، ثم قرأ قوله تعالى ﴿قل لا أسألكُمْ عليه أجرًا إلاّ المودّةَ في القربى﴾. فقال أبو الحسن: وما وجه قرابة شيخك مع من ذكر؟ فأسقط في يد الضيف الذي لم يفطن لمثل هذا التخريج. فقال: لا أدري يا سيّدي، ولا أعلم له قرابة مع الروم. فقال أبو الحسن: إنّه أجاب عن الأسئلة امتثالاً لأمر الخليفة الرشيد، فهو يقصد قرابة الشرف مع السادة الموحّدين. فقال الضيف: بورك فيك يا سيّدي على حضورك وعلمك. ثم

أجاب رضي الله عنه عن الأسئلة ودفعها لابن خلاص الذي دفعها للرسول فلمّا وصلت إلى الإمبراطور اهتبل بها اهتبالاً عظيمًا وتأكّد لديه علوُّ كَعْبِ هذا الإمام على جملة العالم، فهو الجوهر الفرد في حكماء الزمان. هذه آخر أخباره يا سيّدي، وكفى بها فخرًا على كلّ شيء.

فقال أبو الحسن: وما هي تلك الأسئلة التي أجاب عنها؟ فقال الضيف: يا سيّدي، ما أنا إلاّ طالب علم، ولست أحيط بهذه الأسئلة الحكميّة، ولكنّي أطلعك على نصّها من نسخة من كتاب الشيخ رضي الله عنه فقال أبو الحسن: اقرأ عليّ إذن منه. فأخرج الضيف من بين ثيابه كتابًا وقرأ بعد المقدّمات الضروريّة « .والمسترشد يتحفّظ من الألفاظ الغلطيّة ويتحرّز من الاسم المشترك والاسم المشكّك. والكلام الجملي لا يعقل معناه من لفظه دون أن يُتَصفَّح أو يرِدَ عليه ما يفسّره، مثال ذلك الفخّار[١] إذا سأله السائل وهو يريد أن يبتاعه قدرًا فيقول له المبتاع أعطني إناء مطلقًا، فقد يوافق القِدْرَ أو لا يوافق. فإن استفهمه الفخّار ويقول له: أيّ إناء تريد فيقول له قِدرًا، أُعْطِيَ مُرَادَهُ». هنا تدخّل أبو الحسن وقال: إنّ شيخك رجل حكيم واحترازاته التي بدأ بها كلامه مباحث منطقيّة حتى لا يختلط الكلام مع الكلام. ومطلب

(١) الفخّار: يقصد بائع الأواني الفخّاريّة أو صانعها.

أَيُّ التي ذكر هنا قد تعرّضنا له في دراستنا للمطالب الأربعة التي يتمّ بها السؤال عن الحدّ. ولكنْ استمرّ في القراءة حتى نقف على مصادر علم شيخك. امتثل الضيف لطلب أبي الحسن واستمرّ في قراءته فعرّج على تصحيحه لكيفيّة صوغ سؤال الإمبراطور بقوله «وفّقك الله للإسلام لَمَّا علمتُ أنّك مسترشدٌ ذكرتُ لك جميع هذا كلِّه لتعلم طريق الاستفهام». ثم شرع في المقدّمات وبيَّن المعنى من العالم ثم تحدّث في القدم، ثم في قدم العالم. وانتقل إلى الحديث عن علم المنطق ثم الطبيعة، وكان يخلّلُ كلامه بدعوته قائلاً «وفّقك الله تعالى للإسلام ولدين نبيّه عليه السلام». وبعد الفراغ من السؤال الأوّل انتقل إلى السؤال الثاني حول العلم الإلٰهي وما المقصود منه. ويتكلّم في هذا الفصل عن معنى العلم الإلٰهي عند الفلاسفة اليونان، ويؤول عندهم إلى التجوهر بالعقل الفعّال وبالنفس الكلّيّة، ثم ينتقل إلى معناه عند الصوفيّة، والعلم الإلٰهي عندهم الفكر والذكر الأكبر والتعرّض لنفحات الرحمة الرحمانيّة الرحيميّة، وركود الحواسّ، والعمل بما يرد على القلب وتصريف القوى الروحانيّة، أي القلب وتخليته بذكره تعالى عزّ وجلّ، والجدّ في العمل. ثم يتحدّث عن أنواع الطالبين للحقّ بقوله «واعلم أنّ الفيلسوف والصوفي والأشعري، وبالجملة جميع من تكلّم لا يقدرون على إدراكه. دون أن يحقّقوا علم السَّفَر. وأنا أزعم أن أناظر على ذلك أهل الأرض. فمن وقف

على كلامي هذا إن كان بالقرب منّي فعليه أن يطلبني بالارتهان المذكور. وعند الاستفهام يقع التصديق بذلك أو ضدّه. ومن كان بالبعد فعليه بالتعريف، ومن صَعُبَ عليه أن يجتمع بي أو يعرفني بذلك، أو ينتقد فإنّي قد غفرت له وعذرته، فإنّي عرَّضت بنفسي لذلك، والذي حملني على ذلك ضرورة الإنصاف، والله عزّ وجلّ يعلم ذلك وهو المعين على الخير والمرشد إليه جلّ وعزّ». ثم يتوجّه بالكلام إلى الإمبراطور قائلاً «والصواب أن يقع الاجتماع بك فإنّ سؤالك يعطي أنّك غير عارف بعلم، وصائم عن الأمور النظريّة، ويظهر منك أنّك مسترشد. فإن صَعُبَ عليكَ أنْ تصلَ إليّ فابعثْ من يتكلّمُ، أو وجّهْ من تَثِقُه، ويُكْتَبُ له في ذلك ما ينبغي على التمام، وكلّ مسألة سألتَ عنها أوْضَحُ عند جمهورنا من نار على علم، وأذهانُهُمْ أقْطعُ لشُبَهِها من سيْفٍ ومن جَلَم[1]، فاسألْ في أغمض منها وأَغْوَص وأَنْبَه بحيث يَتَكَلَّمُ معكَ عليها أحدُ طلبة المسلمين المتعلّمين لا العالمين، فإنّهم بالجملة لم يلتفتوا إلى هذه المسائل ولا هي ممّا يصلحُ عندهم بالمسؤول ولا بالسائل. ولو صحَّ عندهم أنّي جاوبتك عليها لنظروا إليّ كما نظروا إليها». ثم تكلَّم في المقولات وفي بقاء النفس.

فما لبث أن تكلَّم أبو الحسن قائلاً: هذا الرجل من أعلم أهل

---

(١) الجلم: ما يُجَزُّ به.

الأرض ولا بدّ من السفر إليه والاجتماع به كما ذكر، والعبور إلى العدوة الجنوبيّة والسياحة والسفر في بلاد السمسمة بحيث أكون صادها وأنزع حجب غيريّاتها.

وقد بدأت إرهاصات تلك السياحة تراوده بكثرة بعد وفاة والده وإعوازه للنصير.

تيليجرام @ktabpdf

# ١٥

جهّز عليّ نفسه وأخبر أهل بيته بعزمه على مغادرة غرناطة والأندلس وأداء فريضة الحجّ. اكتملت التجهيزات وانطلقت القافلة باتّجاه ألمريّة، ومنها ركبوا غُرَابًا[١] باتّجاه سبتة. لم يكن أبو الحسن يفكّر إلاّ في الفرار بأهله من الاضطرابات التي كانت تعمّ بلاد الأندلس واللحوق بهذا الرجل عبد الحقّ بن سبعين. وصل الغراب إلى ميناء سبتة، وكلَّف عليّ بعض طلبته في استئجار بيت يسع الجميع. وبعد النزول والاطمئنان على والدته وزوجته وابنه الصغير وسائر أهل بيته، أمر طلبته في استقصاء خبر ابن سبعين. ذهب الطلبة لاقتناص خبر هذا الرجل، لكنّهم عادوا سريعًا يحملون أخبارًا أخرى. بادرهم أبو الحسن بالسؤال عمّا أرسلهم بشأنه، فأجاب عريفهم: يا سيّدي لقد ذهبنا نستقصي الخبر في إحدى حِلَقِ الدروس بالمسجد فأخبرنا أحد الطلبة النبهاء

(١) الغُراب: سفينة لنقل المسافرين، أمّا الجِفان فسفن حربيّة.

بأنّ الوضع مضطرب في سبتة منذ وفاة الخليفة الرشيد. فقال أبو الحسن مقاطعًا: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ما بال خلفاء دولة الموحّدين يسقطون في حياض المَنون وهم في سنّ الفتوّة والشباب. إنّ هذا لأمر عجيب، إنّ هذا لمن علامات انتهاء ملك دولتهم. ثم أردف قائلاً: وماذا بشأن الشيخ ابن سبعين؟

فقال العريف: بعد موت الخليفة وبيعة أخيه أبي الحسن المعتضد بالله المدعو بالسعيد، خالف عليه ابن خلاص البلنسي، والي مدينة سبتة وبايع أبا زكريا الحفصي في تونس الذي هبّ بجنوده لناحية تلمسان. أمّا الخليفة في مراكش فقد كان مشغولاً بتثبيت ملكه والحركة إلى سجلماسة التي خالفت عليه وبايعت هي الأخرى أبا زكريا الحفصي. كان ابن خلاص وفيًا للرشيد ولم يكن راضيًا على بيعة السعيد، بل كان يفضّل أن تستمرّ الخلافة في أبناء الرشيد، وكادت تكون كذلك لولا أنّ أحد أشياخ الموحّدين أشار عليهم بأنّ ضعف الدولة كان من تولية الصبيان أمور الخلافة فتجاسر الناس عليها، ثم قام وبايع السعيد فتبعه سائر الموحّدين.

فقال أبو الحَسن: يا بنيّ أنا أسألك عن ابن سبعين وأنت تستطرد في ذكر أخبار الدولة. أفلا تخبرني أوّلاً بما سألتك عنه؟

فقال العريف: عذرًا يا أستاذي، فقد أردت فقط أن أخبرك بما

حدث، وله علاقة بما سألتَ عنه. فإنّ الشيخ ابن سبعين قد غادر سبتة إلى تونس لمّا ساءت الأحوال هنا.

فقال أبو الحسن: لقد كتب الله ألاّ نلتقي هذا الرجل في سبتة، لكنّنا سنجتمع بحول الله بشيوخها وعلمائها، ونَسِيحُ في بلاد المغرب. فأنتم تعلمون أنّ ابن الرميمي قد قصد تونس لمّا حاصره الأمير ابن الأحمر. ولو رحلنا إلى تونس لنالنا منه شرّ كثير وانتقم منّا جرّاء ما حصل له. وليكتب الله اجتماعنا بابن سبعين في وقت آخر وبلاد أخرى.

بقيت في سبتة مع الأهل والتلاميذ مشتغلاً بالذكر والفكر، وتحكّمت الملَكة الشعريّة عندي في الأنظام والأزجال. تكاثر الأتباع وساروا يلهجون بتلك الأنظام والأزجال وسارت بها الركبان في المغرب والأندلس والقيروان. وقد أقمنا المولد مع الفقيه أبي العبّاس العزفي، وسَرَدَ لنا من كتاب والده أبي العبّاس **الدرّ المنظّم في مولد النبي المعظّم**. وكان لهذه الأسرة عناية كبيرة بعيد المولد النبوي، وسنُّوا في هذه المدينة سنّة حسنة حيث لا يبقى بيت من بيوتها إلاّ وعمّته الفرحة والابتهاج بمولد البشير النذير. ووسَّعَ الناس على ذويهم وأكثروا من الصدقات وتبادلوا الهدايا وفي سبتة التقيت بالكاتب المجيد وشّاحِ إشبيليّة وشاعرِها بلا منازع، أبي إسحاق بن سهل الأندلسي واجتمعت به فكان

يدعوني إلى مجالسه مع ابن الوالي، صاحب أسطول سبتة أبو القاسم عليّ بن خلاص. ومن خلالهما وقفت على حقيقة وضع الدولة في الأندلس والمغرب وتونس. كانت سياسة إشبيلية وسبتة واحدة، واتّفق رجالاتهما على بيعة أبي زكريّا الحفصي لدرء خطر الروم، إذ كانت هي الدولة القويّة آنذاك في بلاد المغرب. وخلال اجتماعي بابن سهل كنت أحرّضه على ترك غزله بالمذكّر والإنابة من ذلك ممّا كان ديدنُه في إشبيليّة، ولم أكن متأكّدًا من إسلامه وقتها، فلمّا اجتمعت به كان يصحبني إلى المسجد ويقرأ القرآن، وسألني أن أستغفر له عمّا بدر منه أيّام الشباب. وحضر معنا مرّة عمارة غَلَبَ على أشعارها التشوّق إلى الحجاز، ودارت بيننا مذاكرة حول مقام اليقين، فداخلت قلبَه رقّةٌ لسماع هذا الحديث ورؤية طلبتي وهم يلهجون بالذكر ويتشوّقون إلى الحجّ الأكبر، فنظم قصيدة حجازيّة يتشوّق بها إلى تلك البقاع الطاهرة، يقول في مطلعها:

تَنازَعُني الآمالُ كهلاً ويافعًا ... ويُسعدني التّعليلُ لو كانَ نافعا

إلى أن يقول:

وركبٍ قد دعتهم نحو يثربَ نيّةٌ ... فما وجدتْ إلاّ مُطيعًا وسامعا

يسابقُ وَخْدَ العيس ماءُ شؤونهم ... فيُفنونَ بالشوق المدى والمدامعا

إذا انعطفوا أو رجّعوا الذكرَ خِلتَهم ... غصونًا لِدانًا أو حَمامًا سواجعا

تضيء من التقوى حنايا صدورهم وقد لبسوا الليلَ البهيم مَدارعا

تَلاقَى على وادي اليقين قلوبُهم خوافقَ يُذْكِرْنَ القطا والمَشارعا

وصلت أخباري إلى ابن سبعين الذي أرسل لي أحد خلصائه ممّن عرّفني بحاله يوم التقيتُ به في حفل عقيقة ابني الحسن. وممّا ذكره لي أنّه يرغب في الاجتماع إليّ في بجاية بدل تونس لما كنت قد أوقفتُ رسوله آنذاك على ما بيني وبين ابن الرميمي. وممّا ذكره لي أنّ لديه حظوة لدى الأمير الحفصي وسيعمل على مكالمته بشأني. أخبرت الرسول بأنّ ابن خلاص عازم على السفر إلى الأمير الحفصي لتقديم بيعته بنفسه، وقد طلب منّي أن أرافقه في رحلته البحريّة وسأعمل على المجيء إلى تونس مباشرة، ثم ودّعته وانصرف عائدًا بالرسالة التي أبلغته فحواها وكنت أمنّي النفس أن أجوز إلى الحجاز بعدها وقد كان ابن سهل يرغب في مرافقتي لتلك الرحلة بعدما طلب منه الوالي مرافقته وحَمْلَ بيعته للأمير الحفصي في تونس.

وفي تلك الليلة رأيت كأنّي مع جماعة فيهم ابن سهل، ثم إنّ البحر غاض حتى ظهرت حافّتاه ورأيت كأنّي أسبح فيه بصعوبة لكنّي ما لبثت أن رأيت المرجان فأخذت منه غصنًا، ثم خرجت إلى الساحل وبقي ابن سهل والجماعة المرافقة في عُرضه، ولم أتيقّن ما حصل لهم بعد ذلك. قمت من نومي فوجدت زوجتي

أمامي مشرقة اللّون مشرّبة بحمرة كالمرجان. فأخبرتها وأخبرت والدتي برؤياي فجزعتا من هذه الرؤيا وطلبتا منّي أن لا أسافر بحرًا ثم إنّ والدتي تأوّلت المرجان بما أسبغ عليّ الله من الخير والزوجة الصالحة. وخلال استعداد ابن خلاص للسفر، جاءتني رسالة من أبي الحسن الرعيني كاتب الخليفة، وكان صديقًا لوالدي يحذّرني من البقاء في سبتة ومشايعة واليها ابن خلاص، ويحرّضني على مغادرتها قبل أن تفتك بي المنون. جمعت الطلبة وأخبرتهم بفحوى الرسالة واستنتجت منها عزم الخليفة السعيد الحركة إلينا وتأديب والي سبتة، ثم ذكرت لهم الرؤيا فأقرّوا جميعًا بضرورة عدم البقاء في هذه المدينة والخروج منها قبل مغادرة ابن خلاص.
التقيت بعدها بابن سهل وأعربت له عن تخوّفي من الرحلة وذكرت له الرؤيا وحاولت ثَنْيَهُ عن هذه المخاطرة محذّرًا من مغبّة تغيّر الأحلاف والابتعاد عن دسائس الحُكْم، لكنّي لم أطلعه على الرسالة التي توصّلت بها. وأخبرني أنّ أبا القاسم بن خلاص صديقه ألحّ عليه في مرافقته على غرابه الجديد الميمون وأنّه لا يستطيع خذلانه. ودَّعْتُ ابن سهل وقَبِلْتُ عذره، وكان المسكين يؤمّل أن يصبح كاتبًا لأبي زكريا الحفصي. راودني شعور قوي بهلاكه، ولم أخبره برحيلي مخافة أن يخبر ابن الوالي بذلك، ثم أمرت الطلبة فجهّزوا خروجنا سرًّا في الليل من سبتة.

وصلنا مكناس في فاتح ربيع الأوّل من عام ثلاثة وأربعين

وستّمائة، وبها نزلنا واستقبلنا أهلها الذين قاموا على عاملهم فقتلوه. ورغم القلاقل أقمنا المولد هناك على سيرة حسنة وهيئة معتبرة وأضيئت الشموع طيلة ذلك الشهر، ونُظمت عدّة قصائد وأزجال في المولد، وسَنَنَّا بأهلها هذه السنّة في الاهتبال بخير الخلائق. وأقمنا حفلات السماع فتقاطر علينا الناس من كلّ حدب وصوب وزفُّوا إلينا الهدايا والأعطيات فوزّعتها على الطلبة، وأغلبهم من أبناء الفقراء فانتفعوا بها وقد أحضر الأطفال الشموع الرطليّة والسكّر والحلوى والثريد والكسكس، فعَمَّ المدينة خير كثير. وبِعْتُ فائضَ الشموع فحصل منها مال كثير وزّعته على المعوزين. وفي يوم الجمعة سابع المولد أعدنا الكرّة واجتمع الناس في المسجد الأعظم، وحضر كبار أهل البلد. وكان قاضي مكناس آنذاك ابن عميرة قد بعث لوجوه المدينة بحضور سابع المولد. فلمّا أنشد المادحون وتواجد المسمعون وشرب الناس وأكلوا، قام القاضي ووعظ الناس وذكّرهم بحال البلاد وضعف الخلافة واستعانة الخليفة بجند الروم لقتال المسلمين من الحفصيّين، ثم قرأ على الجميع نصّ البيعة التي كان قد أعدّها للأمير أبي زكريّا الحفصي يقول في بعض مقاطعها « وعندما أخرج الحقّ من تلك العهدة.

اتّفق منهم العلماء والصلحاء والأشياخ والأعيان النصحاء ووجوه القبائل والعشائر وكافّة طبقات الناس من البادي والحاضر، على

أن بايعوا الإمام الهادي الأمير الأجلّ أبا زكريّا بيعة رفعت بالعدل معالمها». ثم قام وجوه البلد واحدًا واحدًا فكتبوا بخطوطهم فوق هذه البيعة.

أمّا ابن خلاص، فإنّه لمّا قام من نومه أرسل في طلبي لمرافقته إلى تونس مع كاتبه ابن سهل، فجاءه رجاله بخبر مغادرتي سبتة. ثم إنّه عدل عن الخروج لمّا أخبره ابن سهل بالرؤيا التي رأيتها قبل أيّام، فأرسل ولده عليًّا صاحب أسطول سبتة على ظهر غرابٍ جديد اسمه الميمون، محمّل بالهدايا إلى تونس. وكان ابن سهل ضمن وفد المبايعين على ظهر الغراب. وفي عرض البحر، هبّت عاصفة هوجاء قامت في بحر الزقاق فكسرت الساري ومزّقت القلاع وغرق ولد الوالي ومعه ابن سهل وبقيّة المركب، قبل أن يصلوا إلى الأمير الحفصي.

كنت في مكناس لمّا وصلتني هذه الأخبار فحزنت على ابن سهل وردّدت مع من قال: عاد الدرّ إلى معدنه. بدأت بالتجريد ودخلت طريق الملاميّة وتركت الديباج وتعلّقت من الأخرى بِرِتَاج. دخلت الأسواق وغنّيت وتبعني المئات مُعرِّفًا بطريق الآخرة معرضًا عن حبائل الشيطان، وأنشدت:

شويخْ من أرض مكناس وسْط الأسواق يغنّي
آشْ عليّا من الناس واشْ على النّاس منّي

وكان الناس يشفقون عليّ، إذ لا يخرج عن حال الأمراء والوزراء إلى حال الفقراء إلاّ من كتب الله سعادته في الدارين. وإنّه لابتلاء عظيم وامتحان عسير بنهج طريق التجريد والخروج عن الموادّ وتخريب الظاهر وتزكية الباطن. استعذب الناس كلامي وكثر أتباعي ولُوِيَتْ إليّ الرؤوس والأعناق، وأنا أروم ذخائر الأعلاق.

مكتبة الرمحي أحمد

دأبت على هذا الحال وأنشدت قائلاً:

وما أحسنْ كلامو إِذَ يخطرْ في الأسواق
وترى هَلْ الحَوانِتْ تَلتفتْ لو بالأعناق
بِغرارَة في عُنْقو وعُكيكَز وأَقْراقْ

ذُهل أهل السياسة عنّي رغم إيغار صدورهم من بعض أصحاب الرسوم الذين فقدوا جاههم لدى الطلبة وعامّة الناس، لكنّ اشتغال الولاة والساسة بهمومهم أذهلهم عنّي. وفي ذي الحجّة من السنة نفسها، هرب القاضي ابن عميرة لمّا سمع بشخوص السعيد إلى مكناس ليؤدّب أهلها جرّاء خلعهم لبيعته ومبايعتهم للأمير أبي زكريّا كثر اللغط وخاف الناس على أرواحهم وأموالهم ممّا يعلمونه من بطش السعيد بكلّ مخالف، فطلبوا من الكاتب المجيد ابن عبدون بتجديد بيعة أهل مكناسة للخليفة وقَرَعُوا سِنَّ الندامة على ما صدر منهم من زلّة، ووقفوا موقف الاستكانة والمذلّة.

ولقد كنتُ أضحك في قرارتي من تقلّبات الناس ونقضهم للعهود إيثارًا منهم للدنيا الزائفة، فكنت أنشد في الأسواق:

شُوَيْخ مـنْ أرضِ مكناس      وسْطَ الأسْواقْ يغَنّي
آشْ عليّا من الناس      واشْ على الناس منّي

ماذا عليّ من الناس، وماذا على الناس منّي. آش، سؤالي في نسبتي، وهو غايتي، وأَلْفُ ليلة مَعْ ليلتي، بل إِلْفُ ليلتي، إنّها ألف ليلة أسمائيّة وليلة القدر الذاتي، ﴿سلام هي حتّى مطلع الفجر﴾، وقتها تسكت شهرزاد عن الكلام غير المباح. جئت من الماء وفيه معنى السماء فافهم إشارتي وفُكَّ عبارتي، تجدني ابن طينتي لست أبغي من أمرهم أمرًا بل مقصودي جلَّ خُبْرًا، أسلك طريق التجريد وألهج بالتفريد بلسان المدح والتغريد. ثم أنشدت:

خَلِّصْني من بحر التوحيد

وأظهرني في شاطئ التفريد

في عيني إنسان التجريد

# ١٦

قصدت سلا والرباط، والخليفة السعيد في طريقه إلى مكناسة، وقد خرج أهلها يطلبون منه العفو، وقدّموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا عليّ منصور بن حرزوز، وتلقَّوْهُ بالصبيان يحملون ألواحهم على رؤوسهم وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو. وقد سألتني زوجتي صبح عن خروج النساء هكذا فقلت لها: إنّ العرب قد جرت عادتهم أنّ المرأة إذا أرادت أن تُعْلِمَ أنّ وراءها شرًّا أسْفَرَتْ عن وجهها، ألم تسمعي قول الشاعر

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقَعَتْ فقد رابني منها الغداةَ سُفورُها

وقد كان هذا القائل قد أعمل الحيلة في الوصول إلى محبوبته فشعر قومُها به وعلمَتْ بذلك، فاحتالَتْ وخرجَتْ سافرةً حتى تُخبِرَهُ بأنَّ وراءها شرًّا يتهدَّدُهُ فيفِرَّ من بطشهم وينجو بنفسه.

اجتمعتُ في سلا بأبي أحمد الإشبيلي السلاوي، وكان رجلاً

مُسِنًّا من رجال البكاء. استأذنتُه في أن آخذَ بعض تلك الدموع التي كانت تسقط من عينيه، فلمّا أخذتها وجدتُ فيها رائحةَ المسك فمسحتُ بها وجهي، فكان الناس يقولون لي: من أين اشتريتَ هذا الطيب؟

كنت أجتمع به وأتبرّك بلقائه وأنشده بعض قصائدي وأزجالي فيأخذ في البكاء. ثم كانت تطرأ عليه حال مناقِضَة فيأخذُ في الضحك، فأتعجّب منه. فكان يقول لي: ﴿وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى﴾. وكان يقول لي: عليك ببجّاية، فإنّها مدينة بكّاية، ولذا قَصَدَها الشيخ أبو مدين، فهناك تظفرُ بأَعزِّ ما يُطْلبُ. كان، رضي الله عنه، يخبر عن مقامه وأحواله، فإنّه من رجال البكاء. وأخبرني عن بعض ما حصل له مع محيي الدين بن العربي الحاتمي في إشبيلية، ومن ذلك أنّهما باتا شهرًا كاملاً في مسجد ابن جراد. قال لي الشيخ أبو أحمد: كنت نائمًا عند باب مُسَقَّفِ ذلك المسجد، فقام ابن العربي الحاتمي يريد أن يتوضّأ ويصلّي فرأى أنوارًا متّصلة إلى السماء، فبقي واقفًا حتى قمتُ من نومي للصلاة فوجدتُه على حاله، وسألته لماذا هو كذلك يحدّق إليَّ فقال لي لقد رأيتُ أنوارًا متّصلة منك إلى السماء، وبقيتُ متعجّبًا لا أدري أَمِنَ السماء نزلَتْ عليك تلك الأنوار حتى اتَّصَلَتْ بك، أو منك انْبَعَثَتْ؟ فقلت له: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، ثم توضَّأْتُ وقمتُ أُصَلِّي. ثم كان يخبرني عن أبي مدين وصحبته له أكثر من ثماني

عشرة سنة، فحبَّبني فيه ورغِبْتُ في الاجتماع بأصحابه الباقين. وفي هذه المدينة بدأَتْ إرهاصاتُ سفري إلى بلاد السِّمسمة لأنّ هذا الشيخ كان يوصيني بالخلوة عند ساحل البحر في سلا، وعمِلْتُ بنصيحَتِه فكانت تأتيني البشائر من الماء، من عين نون الحياة. ونصحني قائلاً: عند الماء تجد سمسمة هذه البلاد فاذْهبِ الآن.

مشيتُ على سِيفِ البحر حتى عثرت على محارة قذفها الماء إلى الساحل، تشبه شكل حرف الصّاد بنِسَبٍ رفيعة لطيفة. جهِدْتُ في فتحها ووضعتُها على صِماخي، فسمعتُ ألحانًا شجيّة من عالم البقاء، وغبتُ عن نفسي فرأيتُ وجودًا غير وجودي، وفيه من علم الاستحالات ما يحيّر العقلاء في عالم الحسّ، لكنّه في هذا العالم أمر معتاد، بل الخارقُ للمعتادِ فيه هو عالَمُ الحِسِّ. ومن جملة تلك الاستحالات إيرادُ الكبير على الصغير والعكس، من غير أن يخرجَ الكبير عن حَجمه، ولا الصغير عن جِرمه، ويحصل بينهما التَّوالجُ والتزاوج، ومثاله إدخال الجمل في سَمِّ الخياط. نطقتُ باسمها فانفتحَتْ وكأنها مغارةُ سِمْ سِمْ وجُزْتُ الباب وسلّمت على البوَّاب فقال لي أهلاً ثم سلّم، وخاطبني: دخلتَ من الباب وانتقلتَ إلى عِلم اللُّباب يا ابن السمسمة. اسم جديد ونسبة أخرى تضاف إلى نسبتي إلى الماء والسؤال. فقلت في نفسي: هذه سمسمتي الثانية. ورأيت عوالمَ كثيرة ومخلوقات عجيبة، ثم رُدِدْتُ

إلى حسِّي والمحارة في كفِّي فأسلَمْتُها مرَّة أخرى للماء، وعُدْتُ إلى المدينة ودخلتُ من **باب المرسى**، وانغلقَ ذلك الوجود مرّة أخرى، وأنشدت:

في النشأة الأزليّة سقاها لي الحكيم
بها انجمعت عليّا وعاد قلبي سليم
الحبّ هُ ديني وَفْقُوني يا ملاح
وتنزّهوا في فنوني وكِفْ ترمي السلاح
وأنا في **مرسى** ضماني ما نخشى منها الرّواح

وفي سلا اجتمعت بابن الجنّان السلاوي، وهو أديب وشاعر بليغ. اقتنيت منه بعض المؤلّفات، إذ كان يحترفُ نسخَ الكتب. وقد سمع منّي وسمعت منه. وكنت قد التقيتُ به لمّا كنت أسكن مالقة.

أمّا عامل المدينة وقائدها لهذا الوقت فكان أبا الحسن محمّد ابن يعلو، وقد اجتمعت به وأخبرني عن تخوّفاته من بني مرين، وتحرّشاتهم للاستيلاء على المدينة واتّخاذها قاعدة لهجماتهم. ثم عبرتُ نهر أبي رقراق واجتمعتُ بأبي حفص عمر بن أبي إبراهيم ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، والي قصبة رباط الفتح من سلا، ورحّب بي وطمع في استكتابي فاعتذرت له. وأخبرته عن حال الأندلس كما تركتُها وشحذتُ همّته وذكّرته بوصيّة السلطان

يعقوب المنصور باليتيمة والأيتام. فقال لي: يا أبا الحسن، نحن لم ننس ذلك، ولكن يجب استتباب الأمن أوّلاً في المغرب، قاعدة فتح الأندلس. فالحفصيّون قد استبدّوا بتونس وإفريقية وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، والمرينيّون في المغرب الأقصى ينتهبون في كلّ مكان، وأميرهم أبو بكر المريني يناوش في أرجاء الرباط وسلا أمّا أهل الأندلس فقد خلعوا بيعة الموحّدين وسقطت قرطبة وإشبيليّة في الطريق. وأهل الأندلس غافلون عن العدوّ المحدق بهم، بل إنّهم يتحالفون معه لضرب المسلمين. لقد سمعتَ بحملة الخليفة السعيد على ما فيها من المغامرة، على مكناس. وهو اليوم يريد تلمسان ليقطع شوكة بني عبد الواد والمرينيّين قبل أن ينتقل إلى مبارزة الحفصيّين الذين طمعوا في هذه البلاد الغربيّة. فإن تمّ لنا هذا، تيسّر بإذن الله النَّظر في شؤون الأندلس.

كان أبو حفص عمر معتدل القامة، ساطع البياض، وفي كلامه نبرات الصدق والإخلاص، إلاّ أنّ أمارات الضعف على الموحّدين كانت بادية للعيان، ولا خير يُرجى من هذه الدولة منذ هزيمة العِقاب، فهي تصارع الموت والوهن.

## ١٧

تأهَّبْتُ للرحيل مرّة أخرى، وقصدت فاس وجلست إلى علمائها وصلحائها وكانوا يعظّمون الشيخ أبا مدين ويحبّون المديح والسماع، فأنِسْتُ إلى أهلها وعشت بين ظهرانيهم مدّة من الزمان، وكنت أنشد في الأسواق وأتوكّأ على عصاي وأُكثر من الصمت، ولا أُؤاخِذ أحدًا بأحدٍ آخر. وقد عاب عليّ بعضُهم تخريب الظاهر ممّن ترسّم بالمظاهر فقلت منشدًا:

| | |
|---|---|
| خذ كلامي في قرطاس | واكتبوا حرزي عنّي |
| آش عليّ من الناس | واش على الناس منّي |
| ثمَّ قَوْلَه مبينه | ولا تحتاج عبارة |
| آش على حدّ من حدْ | افهموا ذي الإشارة |
| وانظروا كبر سنّي | والعصا والغِرارة |
| هكذا عشت في فاس | وكذاك هونِ هَوْني |

عشقت فاس طَيِّبَةَ الأنفاس، وأحببت هذه العيشة الهنيّة، وهذا

الهوان الذي اخترته هنا. من آش إلى سلا ثم فاس، تحقّق بعين السؤال، تلك سفرة خضتها من **ألف ليلة وليلة**، فافهم ذي الإشارة. أحمل عصاي من سؤالي **آش**، وأُفْشي ألْفَ سِرٍّ من أسراري من غير مَين، وأُكثِرُ من الصلاة على النبي ﷺ، والرضا عن أصحابه. وزاد سؤالي من **آش لأنّي** من **وادي آش**، فأنا من الـ **ماء** أتيت. أنكرَ عليّ بعض هؤلاء المترسّمة حالي، فناظرته بلسان الحال وصرت أغنّي:

قولوا للفقيه عنّي      عِشْقُ ذا المليح فنّي

وشربي معو بالكاس

والحضرة مع الجلاّس

وحولي رفاق أكياس

قد شالوا الكُلْفَ عنّي

قولوا للفقيه عنّي      عشق ذا المليح فنّي

أيّ مذهب تَدريني

الشريعة تحييني

والحقيقة تفنيني

واعلم أنّني سُنّي

وتبعني الطلبة في الأسواق يردّدون قولي، فقامت قائمة الفقيه وأزبد وأرغى، وأفتى واستبغى، وظنّ أنّه في ساحة الوغى. فما زدت أن قلت:

قــولــوا لــلــفــقــيــه عــنّــي　　　عــشــقُ ذا الــمــلــيــح فــنّــي

فدعني من وهمك

فأنت غلام نفسك

هذا الكون هُو دارْ نوْمك

اِستيقِظْ ترى حُسني

قــولــوا لــلــفــقــيــه عــنّــي　　　عِــشــقُ ذا الــمــلــيــح فــنّــي

زاد النّكير، واشتدَّ النَّفير، على الشاعر والأمير، والصوفي الفقير، فأجمعتُ أمري ونصحتُ قُربي على الرحيل إلى مَهَبِّ قلبي.

غادَرْنا فاس وجيوشُ المرينيّين تُعسكِر في أحوازها وأنا أروم شرق فاس حيث تطيب الأنفاس، فأنشدت:

قد حلا لي　　خُمَيِّرْ كاسي　　والغُصْن آسي

بين حُضَيْرَة　　بشَرْقِ فاس　　طابتْ أنفاسي

يمَّمنا صوب هذه الأنفاس ونجونا من حركة الغزاة بفضل حِنكة

طَلَبتي وأتباعي ممَّن كانوا يرافقونني. كنتُ أبعث بجماعة منهم تؤمّن المسالك والطرق وتتخيّر أحسنَها وأوثَقها أمانًا، وكنّا نتوجّسُ من عَربِ رياح الذين يعيشون على السّلب والنّهب. نزلنا تلمسانَ في شهر صفر من سنة ٦٤٦، وزرت العُبَّاد وفيها قبر الشيخ أبي مدين. ذهبتُ لزيارته والترحّم عليه فصادفتُ جنازة الخليفة السعيد وقد حُمِلَ إلى هناك ليُدفن بعدما قتله أحد فرسان بني عبد الوادي، يُقال له يوسف الشيطان، وذلك أنّ السعيد كان مع رجلين من رجاله يطوف بإحدى القلاع فأبْصرَه يوسف فطعنه وأَرْداهُ قتيلاً

خلال وصولي إلى قبر أبي مدين، رأيتُ التَّابوت الذي يضمّ المصحف العثماني الإمام. اقتربت منه ولم أتمالك نفسي حتى استَلَمْتُهُ، فقام إليّ بعض زبانية ابن عبد الوادي وأشهر سيفه في وجهي، لكنّ الأمير يغمراسان انتهرَهُ وقصدني. سلّمت عليه فردَّ عليّ السلام، وسألني عن اسمي وبلدي فأخبرته. تهلّل الرجل سرورًا وقال لي: قد سبقَتْكَ شهرتُك يا أبا الحسن. ثم أردف قائلاً: لقد وقع الخليفة السعيد رحمة الله عليه في أحد المضائق فانقضَّ عليه بعض الأوباش وانتهَبَ الخُلْطُ محلَّتَه وسَبَوْا نِساءَهُ. فلمَّا علمتُ بذلك استخلصتُ نساءه وبعثتُ بهنّ إلى مراكش مكرَّمات معزَّزات، ثم سلبتُ خِباء الخليفة من الخُلط وباقي ما انتهبوه، فوجدتُ التابوت الذي يضمّ المصحف الإمام. ولا شكّ أنّك تعلم قصّة المصحف منذ أن استقدمَه عبد الرحمن الداخل

ثم آل إلى ملوك الطوائف، ثم إلى المرابطين وبقي في قرطبة حتى أمر ماهِدُ دولة الموحّدين بجمع أوراقه واستقدامِه إلى مراكش. وقد صنع له هذا التابوت العجيب المعمول بعلم الحيل، وبنى له المسجد الجامع في مراكش ليوضع فيه. فهل تريد أن تقرأ لنا فيه ما تيسّر من القرآن، وأنت إمام القراءات والتجويد؟ لم أكد أصدّق ما يقوله لي الأمير أبو يحيى يغمراسان، فأجبته على الفور: يا سيّدي، ومن لا يطمع في هذا الشرف العظيم والفضل العميم؟ فما لبث أن أدار الأمير مفتاح التابوت، وبمجرّد إدارته في مغلاق الباب انفتحَتْ دفَّتاه وتقدَّم المحْمَلُ وبرز المصحف على كرسيّه بحركة واحدة. بقيتُ مشدوهًا من هذا الصنع العجيب رغم مرور حوالى قرن على إنشائه. فقال لي الأمير: مالك لا تقرأ يا أبا الحسن، سمِّ الله ثم اشرع؟ فقلت له: معذرةً يا سيّدي الأمير، فإنّ غرابة هذا الصنع أذهلتني عمّا كنّا فيه، ثم تلوتُ أوّل سورة طلعت لي فإذا هي **سورة ص**. بدأتُ التلاوة فلم أتوقّف حتى أنهيتها وحصل لي حال عجيب وتحقّقتُ بحقيقة تلك السورة ولم يفطن مَنْ حولي بحالي، وقد أخَذَتْهُمْ شِبْهُ صيحة فأصبحوا في دارهم هامدين. وسمعتُ قائلاً يقول خُيِّل إليّ أنّه أبو مدين: ها قد حصَلتَ على سمسمتك الثالثة، فارحل الآن. لم يُفِقِ القومُ إلاّ بعد أن ختمتُ السورة وقدْ عَلَتْهُمْ سِنَة. الْتفَتَ إليّ الأمير وهو يَرْعُشُ وقال: ماذا فعلتَ بنا يا

أبا الحسن؟ لقد اخْتُطِفْتُ عن نفسي وأخذتني **الصيحة**، ورَأَيْتَنِي في **خَلاء** فَخفْتُ خوفًا لم أعهد مثله من قبلُ. فقلت له: وهو كذلك يا أيّها الأمير، إنّ ذلك الخلاء هو **موقف** يوم القيامة. ولم أَزِدْ على ما قُلْتُ. ثم إنّه أدار المفتاح مرّة أخرى في الاتّجاه المعاكس فانسحبَ الكلّ بانتظام بديع إلى داخل التابوت وانغلَقتْ دفّتا الباب كما انغلقَ ذلك الوجود الذي عاينتُ من المحارة التي على شكل الصّاد في سلا أمام ساحل بحر نون.

ثم قال لي: إنّ بيننا قرابة لفظيّة من النسبة إلى بلدك، فأنت الوادي آشي، ونحن ابن عبد الوادي، فكلّنا من ماء. وهذه النسبة تجعلنا نطلب منك أن تشتغل في عزّ دولتنا مكرّمًا، فإن شئت أن تكونَ من كتّابنا فأهلاً وسهلاً، وإن كنت تروم أن تسيحَ في الأرض، فاذهب إلى حيث تريد معزّزًا فلقد وقفنا خلال تلاوتك على بعض ما حباك الله به من الهيبة والحظوة، نسأل الله أن يخلع علينا ولو جزءًا منها. فقلت له: شكرًا لك أيّها الأمير، وإنّه لشرف لي أن أكون أحد كتّابك، ولكنّي منذ خرجت من بلدي في الأندلس وأنا أروم حجّ بيت الله، وزيارة سيّدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. ثم ودَّعته وانصرفتُ وأنا أتفكّر في النسبة إلى الماء. تذكّرت قول النبي ﷺ لمّا سأله شيخ من العرب قبل انطلاق معركة بدر الكبرى: نحن من ماء، ثم انصرف عنه، وبقي الشيخ يتفوّه، مَا، من ماء؟ أَمِنْ ماء العراق؟

مكثنا بضعة أسابيع في تلمسان، وهي مدينةٌ تَلُمُّ الإنسان وتجمعُه، وسمعتُ عن أخبار سيّدي أبي مدين وحمدت الله على أن أدخلني بلاد السمسمة في سلا، وتجلّى عليَّ بمنزل ص في ضريح الشيخ أبي مدين شعيب، وحصلت على حقيقة شعب الإيمان وسقيت للجاريتين من بئر مدين. تسامع الناس في تلمسان بما حصل في ضريح أبي مدين فقصدني أتباعه ولزمني بعضهم تابعًا، فكنت أنشد لهم:

يا مريدني اتبعوا الحقيقة

واستمسكوا بالعروة الوثيقة

وقولوا كيف قال شيخ هذي الطريقة

سيّدي أبو مدين الله يرضى عنّو

ملك قلبي من أنا بعينو

لكنّنا لم نَتَلَبَّثْ في تلمسان كثيرًا لكثرة الحِراك والعساكر، فأعملنا الركاب إلى بجاية، وقطعنا عشرين مرحلة إلى أن وصلناها.

## ١٨

أرسلت رسالة إلى الشيخ أبي محمّد عبد الحقّ مع بعض الطلبة لأخبره بقدومنا إلى بجاية. وهذه المدينة مباركة، فهي تَجْبي إليها العلماء وأهلَ الله، وتُجْبَى إليها الخيراتُ من كلّ مكان، لكنّها تَحُبُّ عنها المنكرين. ولو قصدها الحلاّج لنسَجَ جُبَّةَ أسراره فيها من غير أن يُحَبّ ويصلَب. ومن بركات إيرادِ ذكرِ شَهيد المحبّة ما أَنْشدْتُهُ:

قــدْ ســلــكــتَ يــا حــلاّج　　فــي هــذا الــطــريــقْ
سَــدِّي الــديــبــاج　　وانــســجْ غــزْلَــك الــرّقــيــقْ
واكْــسِ مــن حُــلَــل حُــلّــة　　بــيــتــك الــعــتــيــق

وصلنا إلى المدينة ومررنا بمقبرة أبي عليّ رسميّة فترحَّمت على مَنْ هناك من أرواح المسلمين، ودخلنا من باب البنود، أحد أبواب بجاية الخمسة. وله بوّابتان وغير بعيد عنه يرتفع شوف الرياض أو برج المنارة، ويُستخدَمُ للإشارات. قطعنا الطريق

الممتدّ بين باب البنود وحومة بئر مسفرة، حتى وصلنا إلى باب أَمْسِيوَن من أعلى سنَدِ بجاية، فأوّل ما عرجنا عليه رابطة ابن يبكي. ترجّلت عن دابّتي التي كانت تَسْنُدُ ذيلَها على قَطاتِهَا فَرَحًا بالوصول والنزول. ثم ترجَّل باقي الركب ونزلنا بالبيت المجاور للرابطة، ثم تفرّق الطلبة بحسب يَسَارِهِمْ، فمنهم من نزل في بيت مستقلّ ومنهم من نزل في هذه الرابطة وبعضهم الآخر نزل قرب مسجد الإمام المهدي، أو مسجد المرجاني في حومة اللؤلؤة، وهو مجمّع الصالحين. وابن يبكي أحد رجالات بجاية المقدّمين، وقد أوقفَ الأوقاف على هذه الرابطة لتدريس العلم وإيواء الغرباء، وقبرُه بها ولعمري إنّ بجّاية مدينة البكاء فهي بكّاية كما أخبرني بذلك أبو أحمد الإشبيلي السلاوي في سلا وهذه رابطة ابن يبكي تؤكّد ما قيل لي.

قضيت بعض الوقت في تدبّر أحوال أهلي حتى رضوا بالمقام في هذه المدينة، وكنت أتشوّق لرؤية أصحاب أبي مدين، فذهبت لزيارة القاضي محيي الدين بن سراقة، أحد تلامذة السهروردي صاحب عوارف المعارف، وجلست في مجلسه وأخذت عنه، وكلّمني عن أبي مدين كثيرًا وذكر بعض ما كنت قد سمعته عنه في بلاد الأندلس والمغرب. وحضرت عمارة لأصحاب أبي مدين فعمَّني من لقائهم خير كثير وسعِدتُ بصحبتهم.

بقيت مدّة أتردّد إلى أصحاب أبي مدين، ثم اشرأبَّتْ نفسي إلى ملاقاة عبد الحقّ بن سبعين، لكنّني لم أجرؤ على الذهاب إليه حتى يرسل في طلبي. جلست في الرابطة أعطي بعض الدروس وأنتقل إلى حومة اللؤلؤة لمذاكرة بعض تلامذة الشيخ أبي مدين. وكنت أنشد لهم قصيدته التي يقول فيها:

اللهَ قُلْ وذَرِ الوُجودَ وما حَوَى    إنْ كُنتَ مُرتادًا بُلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ الله إنْ حَقّقتَهُ    عَدمٌ على التّفصيلِ والإجمالِ

ثم نبدأ في الذكر بالاسم المفرد حتى نغيب عن ذواتنا ونفنى. وبعد حصّة السماع أبدأ في تفسير الأبيات، فأقول لهم: لقد عبّر الشيخ عن مقامه من خلال هذه القصيدة، وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿قُلِ اللهَ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. والوجود المعبّر به في البيت معناه الوجود الثاني الممكن، أي الكون، لا الوجود الحقّ، فهذا به قيام كلّ وجود، ولا يصحّ تركه بأيّ حال. وعلى الحقيقة، فليس في الوجود غير الله، وما سواه فظلال، ثم أستشهدُ بقوله رضي الله عنه: كلّ حقيقة لا تمحو أثرَ العبد ورسمَهُ فليستْ بحقيقة. فاحرِصُوا إخواني على الفناء في العبوديّة ومحو النفوس تظهر لكم الشموس. ولا تغترّوا بما أقوله لكم، فالحذر كلّ الحذر من تلوينات اللّسان، فعليكم بقياس الغائب على الشاهد، لكن لا تكثروا من القياس، فإنّه يرجع بكم دائمًا إلى الوراء، وصَحِّحوه

بالنظر إلى المقاصد، وهو ما نسمّيه في الفقه المالكي بقاعدة مراعاة المآل. فإنّها تنقلكم إلى ما يستقبلكم من الزمان. وفي ذلك يقول الشيخ: من رأيته يدّعي مع الله حالاً لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره. فها أنتم رأيتم تحذيره، وما أكثرَ أصحابَ صناعة الكلام، ولا خبر عندهم بمقامات رجالات الإلهام. وبينما أنا أتكلّم في هذه المقامات، دخل أحدهم وجلس ثم قال لي: هل أنت الفتى الذي يخبر عن الله؟

صُعِقْتُ من سطوة هذا السؤال، وقطعني عن الكلام فعلمت أنّ صاحب الحال يقطع صاحب المقال. لكنّ الرجل ما لبث أن خرج وعاد من حيث أتى. بقيت ذلك اليوم أتفكَّرُ في قول ذلك الرجل وأُقَلِّبُه على كلّ الأوجه، فوَقَرَ في نفسي أنّ صاحبَه ذو مقام خَطِر، وعزمتُ أن ألتقي به مرّة أخرى. لزمتُ **الصمت** كما لزمتُ داري حتى جاءني رسول فقال لي: إنّ الشيخ ابن سبعين يرغب في لقائك. فقلت للرسول: سِرْ بي إليه للتوّ. دخلتُ عليه بعدما أزال العمامة من رأسه على هيئة أهل الأندلس؛ فلمّا رآني قام مبتسمًا فرحّب بي ثم دعاني للجلوس. كان شابًّا وقورًا في مثل سنّي تمامًا، وعليه من سِيمَا العلماء. قلت له: أنت الغريب الذي سألني في الرابطة. فقال: نعم، ولقد أردتُ أن أعرِّفكَ بنفسي. وقد سألتُ عنك فقيل لي إنّك قد لزِمْتَ منزِلَكَ كما لزمتَ **الصمت**، فتحقّقتُ من فهْمِكَ عنّي فأرسلتُ في طلبك. فقلت له: يا سيّدي،

لقد مرَّتْ مُدَّةٌ وأنا في شوْقٍ للقائِكَ، وقد جئتُ إليك كما ذكرتَ في أجوبتك عن المسائل الصقليّة. لكنّي لم أدركْ بعدُ علمَ السّفر الذي تحدَّثتَ عنه، فإن كان سفرَ الأشباح فهذا ممّا لا يُخفى على عامّة الناس، وإن كان سفرَ الأرواح فذلك أمرٌ آخر. فقال عبد الحقّ: إنّه سفرُ الأشباح والأرواح معًا، أَلَمْ تَبْدُ لك لوامعُ من أرض السِّمْسِمَة؟ أطرقتُ برأسي ثم تعجَّبتُ من فِراسته فقلتُ على التَّوِّ: بلى يا سيّدي قد ظهرتْ لي بوارقُ من تلك الأرض أوّلاً في بلدي بالأندلس، ثم بعد ذلك دخلتُ أرض السمسمة وأنا على ساحل المحيط في بلاد المغرب. ولم يعلم بهذا أحد، فكيف علمتَ؟ فقال عبد الحقّ: نحن من ناداك لتأتي إلينا، وها قد وصلتَ بحمد الله، فكلّ ما عاينتَ هناك لم يكن إلا إرهاصات لما أنت مقبلٌ عليه بإذن الله. ولكن لا بدّ أن تلازمني إذا أردتَ أن يفتحَ الله عليك. فقلتُ له: إنّني ألازم بعض الشيوخ ممّن أخذوا عن الشيخ أبي مدين. فقال عبد الحقّ: لكلّ زمان رجال، واجعل طريقك للحيّ رجلاً حيًّا. أمّا أبو مدين، رضي الله عنه، فقد كان إمام الشِّمال وقد تقطَّب قبلَ أن يُغرغر، وهو من شيوخنا، لكنّك إذا أردتَ أن تجول في عالم السمسمة وتسافر في أرض صاد فعليك بمصاحبتي والأخذ عنّي، وإيّاك والإنكار. ثم عليك بالصبر في مواطن الإشكال فهذا الطريق صعب إلاّ لمن اختصَّهُ الله بعنايته الأزليّة. فقلت له: يا سيّدي، منْ هُمْ شيوخُك الذين أخذتَ

عنهم؟ فقال: لقد ذكرتُ لك أبا مدين وإن كنتُ لم ألتقِ به لأنّه توفّي قبل أن نظهرَ للوجود، لكنّي أخذتُ عمَّن أخذَ عنه، فهو شيخ شيوخنا. ثم أخذتُ عمّن أخذ عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن دهاق في مرسية، فهو أحد شيوخي وإن كان قد توفّي قبل أن أخرج للوجود. وقد أخذ عن شيخه أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الحلوي، لكنّ شيخي الحقيقي هو رسول الله ﷺ. فقلت له: لقد سمعتُ عن الحلوي لمّا كنتُ في تلمسان، فهل صحيح أنّه ترك القضاء في إشبيليّة وصار يبيع الحلوى في تلمسان مُظهِرًا الجنون؟ فقال عبد الحقّ: نعم يا ولدي، هؤلاء هم الرجال الذين تركوا زخرفَ الدنيا وزينتَها وأقبلوا على ربّهم، فإيّاك والقضاء، إيّاك والقضاء، إيّاك والقضاء، فقلَّما يَسْلَمُ مسلمٌ من هذا الابتلاء. وإنّي أحذِّركَ من هذا لأنّي أعلم أنّ أهلَ هذه البلاد أو غيرها قد يَعرضون عليك خطّةَ القضاء فتجَنَّبْها واسلُكْ نهجَ هذا الرجل. لقد استفدتُ كثيرًا ممّا وصلني من الشيخ ابن دهاق، وكلُّ خيرٍ ظهر عليَّ فمِنْ هذا الرجل، الذي كان يُرَدِّدُ الشيء نفسه عن شيخه الشوذي، فلم يكن يرى لنفسه معه وجودًا، وهذا من توحيد الوجهة يا أخي. فقلت له: يا سيّدي لماذا لا يرى التلميذ لنفسه مع شيخه وجودًا مع أنّه قد يَفْضُلُهُ علمًا وصلاحًا؟ فقال عبد الحقّ: مسألة الأفضليّة موكولة إلى الحقّ، وهو الذي يعلم السرائر، وإنّما للناس ما ظهر، وله ما بطن. ثم إنّ محوَ المريد أمام المراد هو الفلاح

لأنّ في محو النفس واستحضار الهمّة كلّ خير. والمريد ليس أنانيّة محضة بل هو أنا واحدة، أو لنقلْ هو نفسٌ واحدة أو ذاتٌ واحدة مع كلّ السلسلة التي في سنده من أشياخه. فحينما ينمحي بذاته الموهومة، تنفسحُ أمامَه ذاتُه الحقّة المطلقة، وتَعْلَقُ حَلْقته بباقي حَلقات السلسلة. فأيّهما أفضل: أن يرتبط بوجود موهوم محدود، أو أن يرتبط بالوجود الحقّ الذي لا يزول؟ ثم إنّه حين يُعظِّم شيخه يسُدُّ مداخل الهوى والمكابرة على نفسه فلا يجد الشيطان إليه سبيلاً إنّ الارتباط بالسند والسلسلة أو الأنا الحقّة أهمّ من الارتباط بالأنا الموهومة. فهل في السلسلة جزء أعظم وأفضل من غيره؟ قطعًا لا

فسألته: وكيف يصلُ السالك إلى تجريد التوحيد ويفوّتُ الفرصة على الأنا الموهومة؟ فأجاب عبد الحقّ: بالخلوة والصمت والجوع والسهر. فالخلوة عمّا سوى الله هي الوجود بالله؛ والصمت عمّا سوى الله هو النطق بالله؛ والجوع عن الكون والأكل من طعام المُكوّن؛ والسهر في النوم واليقظة مع مالك الزمان.

فقلت: فمتى نبدأ يا سيّدي؟ فقال عبد الحقّ: أوّل العلاج التوبة، وطَرْحُ النفس في مزبلة الأسواق، فقبل أن تخلو إلى ربّك عليك أن تُخْلِي نفْسَكَ منْ وَجَاهَتِكَ وسمعتك ورفعتك وعظمتك،

وتَنْطَرِحَ إلى ربّك أمام الأشهاد، لأنّك ما ارتفعتَ إلاّ لهم لا له، فمتى نزعتَ هذا الصنم عنك وأسقطتَ نفسَك منْ أعيُنِهم صحَّ لك الدخول إلى حضرة مولاك. فحين تُفني كلّ غير، ولا يبقى إلاّ الله فقط، فَإيهِ إِيهِ.

فقلتُ له: فمتى أبدأ؟

فقال: من الآن، تُسْقِطُ جاهكَ وتُفْني مالك، وتَنْزِعُ ثيابكَ الرفيعة وتلبسُ الصوفَ ثم تأخذُ بُنديرًا وتدخلُ للسوق وتقول:

بَدَيْتُ بذِكْرِ الحبيبْ

ولا تفتَأُ تُردِّدُها والناسُ منك يضحكون أو يتعجّبون، وبعضهم يسخرُ منكَ، والآخر يُشْفِقُ عليك، وأنتَ عن كلّ ذلك غافل لا تُلقي لهم بالاً وَوِجْهَتُكَ مولاك، إيّاهُ تقصدُ وبكلامه تلهجُ حتى تَنْخَرِقَ لك الحجب. فإن أنتَ وصلتَ هناك فانطقْ من تلك الحضرة وانْحُ نحْوَ ما ذكرتُ لك. وقل **الله فقط**، كهف المعرفة، كنه الحقيقة، كهف كمال المحقّق. فادخل من باب الكهف تلك البلاد تر العجائب مع رجال المعرفة والخمر طائب.

خرجت من عند الشيخ عبد الحقّ وعدت إلى بيتي وأخبرت أمّي وزوجتي بقصدي، ولم آبهْ لتخوّفاتهنّ، وبِعْتُ ما لديَّ وتصدَّقت بالكثير ثم لَبِسْتُ قُشَّابَةً من الصوف الخشن ووضعتُ فوقها سلهامًا

وخرجت إلى السوق. وفي الطريق رأيت فقيرًا يحمل بنديرًا فلمّا رآني حَدَجَني بنظرة وأمسكَ بطرف ثوبي ثم قال لي: أبهذا يُعبد الله؟

فقلت له: لم يبق لي غير هذا الثوب، فهل لك في أن تبيعني بنديرك بهذا السلهام؟ فقال لي: أجل، أفعلُ ذلك شفقة عليك، ثم أخذ السلهام وأعطاني البندير وقال لي: جرّدْ نفسَك يتجرّدْ توحيدُك. ثم غادرني فما لبثتُ أن رأيتُه يتصدّقُ بالسلهام لمسكين عجوز. فقلت في نفسي: هذا فقير جادَ بكلّ ما يملك إيثارًا لي، وأنا لا زلت مع نفسي وهواها، فَلأُحَرِّرِ القصْدَ وأُخْلِصِ النيّة.

## ١٩

وصلت إلى السوق أقدِّمُ رِجْلاً وأؤخّر أخرى، والوساوس تتنازعني والناس ينظرون إليّ متعجّبين مُحوقلين. وحاولتُ أن أُثْني عِناني لمنزلي خوفًا من الفضيحة، لكنَّ كابحًا في باطني كان يُلجِمني عن النُّكوص. ولكمْ ندمتُ على فعلتي هذه ثم ما لبثَ أن تساوى لديّ كلّ شيء فلم أعد أبالي. وبينما أنا في حيرة من أمري إذِ الْتَفَّ حولي بعض الأطفال وطلبوا منّي أن أضربَ لهم على البندير. تردَّدتُ بعض الشيء ثم أجمعتُ أمري، وقلتُ لنفسي، لعلَّ الله قد جعل لي مخرجًا على يد هؤلاء الأطفال، إنّهم عصافير الطريق. ثم نَقرْتُ الدَّفَّ وأخذتُ أُنْشِدُ عبارة شيخي: بَدَيْتُ بذِكر الحبيب.

وبدأ الأطفال يردّدون معي على اللّحن الذي وضعته لتلك الجملة العجيبة، فانتظم لي منها نغم جميل تكرّر في كلّ جملة موسيقيّة، وبدأَتْ عيني تذرِفُ الدموعَ، والأطفالُ من حولي ينشدون هذا النغم الجميل الجديد الذي لم يسبق أن سمعوه من

قبل. ثم صرت أتمايل يمنة ويسرة والإيقاع يرتفع ثم يعود فيتباطأ وتحلّق حولي العامّة ونقَدَنِي بعض رُوّاد السوق دراهم معدودة رموها في وسط الحلقة أو الطابق.

استمرّ الأمر ولم يطرأ عليّ شيء، ومرَّ اليوم وكأنّه دهر حتى أذّن المؤذّن للصلاة فتوقّفتُ عن الذكر وجمعتُ الدراهم ثم انصرفتُ إلى مسجد المرجاني في حومة اللؤلؤة، وهو مُجتمعُ الصالحين. تصدّقتُ بالدراهم على الفقراء وتوضّأت ثم دخلت أصلّي مع الناس. وبعد الصلاة سمعت بعضهم يتهامس عليّ فلم أُلْقِ بالاً، ثم خرجت من حيث أتيت وقصدتُ بيتي.

تلقَّفَتْني والدتي وزوجتي وهنّ في حالة من الذهول لما أصابني، وأخذن في البكاء والنحيب. أوقفتُهُنَّ بإشارة من يدي وقلت لهنّ: إذا ما استمرَّيتُما على هذا الحال فسأخرج في الحال وأترككنّ بلا عودة. كان لهذا التهديد وقْعُهُ حيث توقّفتا عن البكاء والنحيب. دخلت إلى خلوة كنتُ قد هيّأتها لي في البيت وأخذت في الذكر بلا كلل وانتابتني الوساوس والأفكار المزدحمة، فكنت أفتح عيني حينما تأتيني خواطر شيطانيّة حتى أُبْعِدَ شبحَها عن ناظري. كنتُ مُشتَّتَ الفكر، لا أستطيع التركيز على شيء بذاته، بل كنت أستعرض شريط حياتي وأسرتي. وكنت أقول لنفسي: كنتَ أميرًا فصرتَ تغنّي في سوق الدوابّ والحمير. ثم لا ألبثُ أن أطرد هذه

الأفكار وأعاتب نفسي، ولم يتخلّصْ لي شيء بعينه. لم أطعم في يومي شيئًا وأخذ الجوع يقطع أحشائي، لكنّني بقيت على صومي إلاّ شربة من ماء وتمرتين تناولتهما مع أذان المغرب. وبقيت ليلي كلّه قائمًا ذاكرًا

وفي صباح الغد خرجت مُجدَّدًا إلى السوق وأنا عازم على أمري أكثر من ذي قبل، فلمّا مررتُ بفقير الأمس ابتسم في وجهي لكنّني أكملتُ سيري لمنتهى دَيْري. تجمّع حولي الأطفال والعوامُّ، وكَبُرَت حلقة الجماعة وهم يصيحون خلفي ويغنُّون: بديت بذكر الحبيب، بديت بذكر الحبيب.

وأخذني الحال فَ هِمْتُ مع الأحوال وصرت أردّد معهم. وأنا لاهٍ عمّا يجري حولي، لا يَهُمُّني من أمر الناس شيء حتى دخلتُ السوقَ، فتحلّقوا حولي كما كانوا بالأمس وهم يردّدون معي. وكان ترديدهم معي يريحني من الوصال، فحمدت الله على هذه النعمة. في هذا اليوم الثاني تخلَّصَتْ لي بعض الأفكار، وصار الفكر يشقُّ طريقَهُ إليّ شيئًا فشيئًا، فتظهر لي بعض البوارق النورانيّة ثم تغيبُ لتعود مرّة أخرى في أشكال مختلفة، لكنّني على الرّغم من سعادتي بهذه البوادِهِ لم أكن أقف عندها، لأنّي كنت أعلم أنّ المقصود أمامي لم يتخلَّصْ لي بعد، بل لمّا تكاثرتْ عليّ اللّوامع واللّوائح كنت أطردها عنّي إذ غدت حجبًا تمنعني من معاينة ما

وراء ذلك. وبقي الأمر على ما هو عليه في اليوم الثاني، فعدتُ إلى البيت فرأيت أمّي وزوجتي في انتظاري وتباريحُ الحزن أَذْبَلَتْ نضارةَ خدودهنّ. سلَّمتُ عليهنّ ولم أتلبَّثْ كثيرًا حتى دخلت الخلوة مرّة أخرى. فلم يكن يهمُّني إلاّ أن أظفرَ بالكبريت الأحمر وأن يتخلَّص لي مقصودي برياضة الذكر والفكر. لم يَغْمَضْ لي جفن تلك الليلة، وعند تباشير الصباح، سطعَ نور في أفق قلبي واستمرَّ مدّة طويلة ففرحتُ به غاية السرور.

ولمّا طلع النهار وارتفعتِ الشمس قمتُ فخرجتُ إلى السوق مجدّدًا  وفي إحدى انعطافات المدينة رأيت الشرطة تتوجّه إلى بيتي، فأسرعتُ نحو السوق. لم يكن يهمّني الأمر، على الرّغم من أنّي كنت متيقّنًا أنّ بعض الفقهاء المترسّمين سيحاولون أن يؤلّبوا عليّ صاحب الشرطة، وسيقولون له بوجوب الأخذ على أيدي السفهاء. لكنّي لم آبهْ للنتائج، رغم أنّ روّادَ الحلقة تكاثروا، وفيهم من الرعاع والسفلة وشاربي الخمر. كنت في غاية السرور لأنّ حلقتي جمعت مثل هؤلاء، وكنت أقول في نفسي: أليس من الأفضل أن أَشْغَلَ هؤلاء بذكر الحبيب بدل ما هم فيه من ذكر الشيطان ومعاقرة الدنان. ولم أكن أتردّدُ في أفْضَلِيَّة هذا العمل، لكنّي لم أكن أقف عند هذا رغم ما فيه من صلاح، فالمقصود أمامي، فلا بدّ من توحيد القصد وجمع الهمّة من التشتّت في الأغراض المختلفة. دخلتُ السوق مجدّدًا وتجمّع حولي الناس

والأطفال وعقلاء المجانين، وبدا وكأنّ السوق أصبح ميدانًا لموسم من المواسم الكبرى التي تقام مرّة في السنة. وعلى الرّغم من كثرة من حضر، فلم يكن يهمّني سوى أن أكرّر ذكر الحبيب، وبينما أنا خائض في لُجَّة الذكر، إذ لمع في ضُراح قلبي أن أستبدل لفظة الحبيب بذكر الكلمة المشرفة الله، فصرت أكرّر الاسم المفرد وانْتظمَ لي من اللَّحن الأوّل لحن آخر أتمَّ منه، وانهملتْ الدموع من عيني سبعًا تُطَهِّرُ المدامعَ من شُهودِ السِّوَى. وكنتُ أقول في قرارة نفسي: فَلأُطهِّرِ الإناءَ الذي وَلَغَ فيه الكلبُ امتثالاً للأمر النبوي. وما الإناء إلاّ نفسي، حتى يَخْلُصَ قلبي لمحبوبي وحِبّي وحبيبي. كانت الجملة الموسيقيّة هذه المرّة أتَمَّ من سابقاتها حيث يتكرّرُ الاسم المفرد فيها سبع مرّات جوابًا لعبارة الشيخ: بديتُ بذكر الحبيب التي كانت تُكرَّر مرتين. وهكذا تخلَّصَ لي هذا النغمُ الجديد مع لازِمَته بالاسم المفرد. ولمّا انْصَبَغْتُ بذكر الحبيب من كثرة الترديد في مقام التفريد، تشَكَّلَتْ تلك الجملة ثلاثة أَحْجارٍ لها لسان وعينان فسألتني قائلة: يا فلان ابن فلان، لماذا تقول بديت بدل بدأت؟ أُسْقِطَ في يدي، إذ لم أكنْ قد تصوّرتُ هذا السؤال من قبل على بداهته، بل أخذتُ ذلك الصَّدر من عبد الحقّ من غير أن أناقشه فيه. فقلت لها: لا أدري، فقالت: بل إنّك تدري، فحاول. فعلمتُ أنّ هذه الصورة البرزخيّة هي روح الشيخ جاء يعلّمني ويرقيني، فقلت بعدما ظهرتْ لي بارقة

نورانيّة: لقد أمرني الشيخ بأن أقول بديت بدل بدأت، وهي إشارة عظيمة، **فبدأت** من الابتداء، ولا أظنّه يقصد ذلك، فلست مبتدئًا في الطريق ولا في الذكر، بل القصد هو بديت أي بدوتُ وظهرتُ بذكر الحبيب. إنّ ظهوري بهذا الذكر مرحلة فاصلة بين زمن مضى وزمن آت، ثم إنّي لست أنا الظاهر بل ما أنا إلاّ مظهر من مظاهر القديم. وهنا تذكّرتُ ما قاله لي الشيخ عن «بُدُوّ العارف» أي ظهور العارف حينما سألته عن علم التحقيق. فزَجَّني مباشرة في مقام المحبّة، وهو مقام حيرة لأنّه يطلب الطالب بالفناء والبقاء معًا، وهما ضدّان، فمرّة يطالبك الحبّ بطلب المشاهدة وهي تفنيك عنك، ويطالبك بامتثال الأمر فيبقيك معك. فالحبّ يطالبك مرّة بالوصل ومرّة بالفراق؛ وفي كلتا الحالتين أنت محجوج. فلمّا تبيّن الأمر وانكشف الغطاء، ولاحتْ ولاح النور، من خلف الستور، ووقفت على الطور، تجلّى لي دهر الدهور، فأملى لسانُ الغيب:

بديتُ بذكر الحبيب وهِمْتُ وعيشي يطيب

وبُحْتُ بسرّ عجيب

لمّا دار الكاسْ ما بين الجلاّسْ

أحيتهم الأنفاس عنهم زال الباسْ

سقاهم بكاس الرضا عفا الله عمّا مضى

اشـــربْ يــا نــديــمــي وطِــبْ وعِـشْ فـي أمـانـي الـحـبـيـب

قد فُزْتَ بسرّ عجيب

قُــمْ خَــلِّ الــكــاســات واشــرب بــالــطــاســات

واغْــتَــنِــمْ لــذَّات فــي مْــقــام الــســادات

بُــرَيْــقُ الــحِــمــا قــد أضــا عــفــا الله عــمّــا مــضــى

يــا ســاقــي تــرفَّــقْ بــنــا الــمــولــى غَــفَــرْ ذنــبــنــا

ســقــانــا مُــدام وانْــعَــمْ بــالــســلام

ونــحــن هــيــام مَــعْ ســادات كــرام

وَأَوْسَــعْ عــلــيــنــا الــفــضــا عــفــا الله عــمّــا مــضــى

ورأيْتُنِي بعدَ هذا البوح قد وقفتُ على ساحل المحيط أقطعُه حتى عثرتُ على محارة فانفتحتْ مغارة، وولجتُ إلى كهفٍ مُثلَّثِ الأضلاع، وبه **بَلَق**، فكان السؤال، هل أنت **اللّقب**؟

فعلمت أنّي حصَّلتُ السمسمة الرابعة واسطة عقد السمسمات السبع.

## ٢٠

خُرِقَتْ لي الحجب فرأيتُ نفسي في فلاة أركبُ حمارًا، قاصدًا الغابة للاحتطاب. كانت الشمس المحرقة تُذيب الصَّفَا، والحمار المسكين يتقدّمُ وهو ينزفُ عرَقًا فتنزلُ عليه الهوام وتؤذيه، لكنّه كان صابرًا على مُصابه. لمّا رأيت ما به، ترجّلتُ حتى لا أزيدَ من تعبه. كانت الغزالةُ في كبد السماء تقذفُ بِلَهَبِهَا على الأرض، وكنت أسيرُ متلفّعًا متلثّمًا حتى أتّقي شرَّها وبينما أنا أسير إذ توقّف الحمار فعدتُ لكي أستحثَّهُ على مواصلة المسير، لكنّي لمحت زوبعة كبيرة في الهواء فأسرعتُ بالحمار إلى صخور قريبة في أصل الجبل خَوْفَ أن تدركنا الزوبعة وتذهبَ بنا. ربطتُ الحمار إلى سِدرة هناك ثم اختفيت وراءها. وبدأتِ الزوبعة تقترب وأنا أحوقل خَوْفَ أن يصيبني منها ضرر. وبينما أنا على هذه الحال إذ تَكَشَّفَ الغبار عن كوكبة من الفرسان المحجّبين، فزاد رعبي وأمعنت في الاختفاء. وبدا وكأنّ الفرسان يقصدون المحلّ الذي اختبأت فيه، فَرَبَا فَرَقِي ووجِمْتُ عن الحركة حتى يقضي الله

أمرًا كان مفعولاً  توقّف الفرسان وترجّلوا عن خيولهم فإذا هم من العُتاة الأشرار، وكنتُ قد ظننتُ أوّلاً أنّهم من جيش السلطان، لكنَّ هيئاتهم كانت مخيفة. ثم سمعتُ كبيرَهم يأمرهُم بإنزال أحمالهم وصناديقهم فامتثلوا لأمره. وبعد أن تأكّدَ من خُلُوِّ المكان من أيّ أحد تقدَّمَ نحو صخرة في الجبل وقال: افتح يا سم سم. تعجَّبتُ من قول الرجل كيف يخاطب الجبل الأصمّ، لكنّي ازددت تعجّبًا لمّا سمعت للجبل، الذي كنت أختبئ بين صخوره، دَرْدَبةً عظيمة، ثم عاينتُ فاغرَ الفَمِ، الجبلَ وقد انفتح عن مغارة عظيمة. تقدّم كبير القوم ودخل إلى داخل الكهف ثم تبعه الآخرون محمَّلين بصناديقهم. كان عدد هؤلاء المحجّبين أربعين مع رئيسهم. لكنّي رأيت أنّ **سبعة** منهم بمن فيهم رئيسهم يلبسون ثيابًا مختلفة. وبعد أن أدخلوا جميع ما كانوا يحملونه، خرجوا مرّة أخرى. ورأيت الصخرة تعود إلى مكانها وكأنّ كهفًا لم يكن قبل هذا. ركب القوم خيولهم وراحوا من حيث أتوا فابتلعَتْهُمُ الأرض. خرجتُ من مخبئي وأنا حائر في أمري ثم عزمت على اكتشاف سرّ هؤلاء اللصوص المحجّبين.

تقدَّمْتُ نحو الجبل وأنا أَرْعُشُ بكلّ جوارحي مخافة أن يندَكَّ عليّ الجبل، أو أُصْعَقَ بصاعقة مباغتة. وقفتُ بين يدي الصخرة، وتذكَّرْتُ ناقة صالح التي خرجت من صخرة، فلمّا عقروها رَغَا فَصِيلُها ثلاث مرّات فانفتحت صخرة وغاب فيها  فكنت إزاء هذه

الصخرة مثل الفصيل. وبعد تردُّدٍ نطقتُ بالكلمة العجيبة: افتحْ يا سِمْ سِمْ. فما لبث الجبل أن زَمْجَرَ وتحرَّكتِ الصخرةُ مرّة ثانية كما لو أنّها لم تكنْ في موضعها. دخلتُ إلى الكهف وأسْرَجتُ المصباحَ وعاينتُ ما لم يكنْ يخطرُ على بال، ولم تعاينه من قبل العيان. أَكْداسٌ وأكداسٌ ممّا غلا ثمنُه وخفَّ وزنُه، أحجارٌ كريمة وذهبٌ وفضّة، وديباج وحرير وأنواع المُسوك والطّيب. وبينما أنا أتملّى بهذه الكنوز العجيبة، دَلَفْتُ إلى قلب الكهف، فوجدت صناديقَ غريبة، محكمةَ الإقفال. قُمْتُ بِعَدِّ الصناديق فوجدتُ عدَدها أربعينَ صُندوقًا في غاية الصنعة والإتقان، مُعَشَّقَةً بعجيب الأحجار وأندَرِها، وعليها أقفالٌ بديعةُ الصنع والإحكام. وقفتُ أمامها مشدوهًا والنورُ يشعُّ من كلّ جهاتها ويُضيءُ الكهفَ إضاءةً تامّةً. تقدَّمْتُ نحو أحد الصناديق محاولاً فتحَه من دون جدوى، إذ كان القفل الذي وُضع عليه سميكًا، كما أنّه غريب في شكله، إذ هو عبارة عن قطعة من لسان معدني تمَّ إيلاج الطرف الثاني منه في فتحة على جسم القفل، وطرفُه الآخرُ هو قاعدةُ تَحَرُّكِ اللسان وَوُلوجِهِ في الفتحة. أمَّا جسمُ القفل فهو عبارة عن سبع أسطوانات مسنّنة بدرجات على عدد حروف الأبجد في كلّ أسطوانة. انتقلت إلى الصندوق الثاني فوجدتُهُ على النظام نفسه، وهكذا كان الأمر في باقي الصناديق الأربعين.

مكتبة الرمحي أحمد٧٨

بعد التَّدَبُّر، تبيَّن لي أنّ فتح الأقفال مرصودٌ على كلمة سرِّيّة

تُؤَلَّفُ وتُجْمَعُ من الأسطوانات. وبعمليّة بسيطة، فإنّ عددَ الإمكانيّات المتاحة بتقليب الأسطوانات السَّبعِ مع حروف الأبجد **التسعة والعشرين** تجعلُ من مجرَّد تَخيُّل الإمكانيّات الرياضيّة المتاحة غير ممكن حتى على التصوّر. إنّها هندسة روحانيّة ورياضيّات مقدّسة إلٰهيّة. وطَّنْتُ نفسي على استحالةِ فتحِ هذه الصناديق العظيمة التي لا يستطيع حَمْلَ أحدِها عُتاةُ الرجال، ثم سايرتُ هوايَ بالقناعة في أخْذِ بعض ما في الكهف. لكنَّ خاطرًا مُفاجِئًا ردّني إلى الصناديق، فعُدتُ أتأمَّلُها لعلّ الله يفتحُ عليّ بشيء من مواهبه المُبرئة من ظلام الجهل. تقدَّمتُ إلى منازل الصناديق وبدأت أُعاينها عن قرب فرأيت نورًا عجيبًا يشعّ من الأحجار المنبثّة في غطائها وكأنّها شيفرةٌ مُعمّاة، لكنَّ النورَ كان أشدَّ في منزل أحد هذه الصناديق، ثم لمّا اقتربتُ منه انتقلَ إليّ ذلك النور وعمّني ضياؤه وأَخَذَتْ أناملي في التحرّك، حركةً نوريّةً قهريّةً نحو القفل المسبّع لا أملكُ أن أتحكَّمَ فيها، ثم شعرتُ كأنّ داعيًا يأمرني بأن أنطق مرّة أخرى بالكلمة العجيبة: **سِمْ سِمْ سِمَهْ** فأَخَذَتْ أصابعي تُديرُ الأسطوانات في اتجاه الأحرف السبعة التي نطقت بها حتى خرجَ لسانُ القفل من فَتْحته فعمَّني النور وغَرِقْتُ في لُجَّتِه. وبعدَ أنْ أَفَقْتُ من سكرتي بَدَأَتْ معالمُ محتوى الصندوق تتبدَّى لي. فهو كالمدينة العامرة، رأيتُ فيه بيوتات كثيرة عددها **ثمانية وثمانون**. إزاء رؤية هذه البيوت، دعاني داعٍ للصلاة

على **حبيب الله**. في كلّ بيت من تلك البيوت عدّة خزائن، وعلى كلّ خزانة أقفال. أردتُ أن أفتحَ أحدَها فسمعتُ هاتفًا يقول لي: سِرْ حتى ترى ما في كلّ بيت وبعد ذلك تَفْتَحُ أقفالها. عمِلتُ بالنصيحة وأخذتُ في السّير. فكنتُ أدخلُ البيتَ الواحد ثم أخرجُ منه إلى غيره حتى استوفيتُها عن آخرها. ثم رجعتُ إلى البيت الأوّل، ونوره أعظم من نور باقي البيوت، لكنّه ممتدّ على جميع البيوتات، وله خيوط ممتدّة إلى بعض البيوتات الأخرى. عاينت هذه الخيوط النوريّة فوجدتها **تسعًا وعشرين** في الصندوق كلّه. ثم رأيت دهليزًا لا يدخله أيّ أحد، ففُتِحَ لي ودخلتُه فأفْضى بي إلى الخزانة الأولى فرأيتُ معلّقًا على كلّ قفلٍ مفتاحُه، وبعضُ الأقفال عليها مفتاحان وثلاثة. أمّا القفلُ الأوّل فلمْ يكنْ عليه مفتاحٌ فَفَتَحْتُهُ وعاينتُ فيه كلَّ ما في الصندوق كلِّه، فقد اشتملَ على أَنْفَسِ ما في ذلك الصندوق. وبدا لي وكأنَّ ما فيه يشبهُ ماءَ النهر لا يتعيَّنُ فيه كنزٌ من آخر إلاّ بعد أن يُؤْخَذَ بمفرده، تمامًا كما يقع للماء قبل أن يوضعَ في الأواني المختلفة. فماءُ البئر غيرُ ماءِ الجرّة أو ماءِ الكُوز. فظهورُ الماء كان بواسطة هذه الأواني، فَهْيَ للماء كالجسم والجسد، وشَكْلُ الماء شكلُ إنائه. وكذلك هذه الكنوز التي حصَّلْتُها لمّا فتحتُ ذلك القفلَ الجامعَ، فبعضُها له أجسام طبيعيّة وبعضها الآخر له أجساد لطيفة. وهذا من أعجبِ ما رأيتُ وأبدعِ ما عاينتُ. ثم رأيت حُللاً عجيبةً في هذا الصندوق كأنّها حجُبٌ

نورانيّة، فَنَشَبْتُ آخذُ منها وأخلَعُ عليَّ. وكلَّما لبِستُ حُلَّة منها ظهر عليّ من العلوم والأنوار بقدر ما لبستُ. ولما عددتُها وجدتُها أربعين حلّة، كلٌّ واحدة تَفْضُلُ الأخرى بمزايا ليست في غيرها وكانت هذه الحُلل لرجالِ الحُجبِ الأربعين، أصحابِ الكهف وكلمةِ السِّرِّ: افتح يا سمسم. فهذه حُلَلُهُمْ، وهي حلل الملوك، وليس لمَلِكٍ في الأرض مثلُها، فلا شكَّ أنّ لهم مملكة وسلطانًا، وهذه الثياب يضعونها حين يجلسون في إيوان الملك. وأعجبُ ما في هذه الحلل أنّها تُعيرك جسمًا طبيعيًّا وجسدًا معنويًّا في الآن ذاته. فالأجسام للخِلقة الطبيعيّة، والأجساد للأرواح البرزخيّة اللطيفة. وبقدر ما يَلْبَسُ المرءُ حلّةً منها فهي تكسوهُ من الإشراق ظاهرًا وباطنًا، حسًّا ومعنى. ولمّا لبستُ أوَّلَ تلك الخِلع أكسبتني العلم، فأدركتُ الفرْقَ بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين. فمعرفتي بوجود الكعبة علم، ومشاهدتها عين، ومعرفة ما لأجله وُضِعَتْ حقٌّ. فالمشاهدة برزخ بين عِلمين، العلم الأوّل، وهو التعرُّف قبل المشاهدة، والعلم الثاني وهو التَحقّق بعد المشاهدة. ثم لبستُ الحلَّة الثانية من غير أن أَنْزِعَ الحلّة الأولى، فأكسَبَتْني ذوقَ الحُبِّ وتحقَّقْتُ من تناقض الأمر بين امْتِثَالِ أَمْرِ المحبوب في كلِّ ما يطلبُ حتى ولو طلبَ الهِجران، وهو مضادّ للحبّ، وأنتَ هنا مُؤْثِرٌ للمحبوب على نفسك. أمّا إن خالفتَهُ وطلبتَ الوصل، فقد آثرتَ نفسَك على المحبوب. وفي كِلا الحالتين، فالمرء

محجوج مغلوب لأنّه في مقامٍ متناقضِ الأحكام. ثم لبستُ حلّة ثالثة فأكسبَتْني علمَ الخلوة به والأنس به وأنا مع الملأ ثم لبستُ حُلَّة الستر ففنيت عمَّن لم يكن، وبقي من لم يزل. ثم لبست حلّة الصحو فأعطتني المعرفة واقتضى منّي ذلك الأدب، وهذا أكسبني الحكمة، وهي وضع الأشياء مواضعها من غير تقديم أو تأخير. ثم ما زلت ألبس في الحلل حتى لبستها جميعًا، فذقتُ منها معرفة حجب الوحدانيّة والاتّحاد والتوحيد والحضور مع التوحيد والشوق والاشتياق والمشاهدة وحفظ الأدب وحفظ السرّ، وحجاب الرؤية وحجاب الكون وحجاب السكون وحجاب القلق وحجاب الانبعاث وحجاب الفترة وحجاب صلصلة الجرس وحجاب القرب وحجاب الرجوع وحجاب تقارب الأوصاف وحجاب المراسلة وحجاب التلوين وحجاب الرجوع من البساط وحجاب من ذكر نفسه وحجاب كتمان المحبّة وحجاب العلل وحجاب الروح القدسي وحجاب العارف المردود وحجاب المخالفة. وبعدما لبست هذه الحلل **الثلاث والثلاثين** وأكسبتني من العلوم والأذواق ما ذكرت، بقي لي سَبْعُ حُلَلٍ من أَرْفَعِ الحُلل وأثمنها ولا تضاهيها باقي الحلل لا شكلاً ولا لونًا، فلمّا حدّقت فيها وجدت أنّ فيها من باقي الحلل التي خَلَعْتُ عليّ، فهي أجمعُ من غيرها وأوْعَبُ من سابقاتها في الشكل واللون واللُّحْمَةِ والسَّدَى. أخذتُ أُولَى تلك الحلل وقبضتُ عليها كما قبض يعقوبُ على قميصِ يُوسفَ،

فَسَرَتْ فيّ الحياة الأبديّة، ثم لبستُ حلّة ثانية فأكسَبَتْني من العلم الإحاطي، ثم لبست حلّة ثالثة فرأيت كلّ شيء مرادًا لي، ثم لبست حلّة رابعة فرأيت الأكوان في طيّ قبضتي، ثم لبست الحلّة الخامسة فَنَطَقْتُ بالكلام الأزلي، وفي السادسة سمِعْتُ من كلّ شيء وفي كلّ شيء وبكلّ شيء، أمّا الحلّة السابعة فلمّا لبستها أبْصرْتُ قَبْلَ كَوْنِ الزمان. وبعد أن اشْتَمَلْتُ على حُلل هؤلاء الملوك واستوفيتُ كلّ ما عندهم واجتمَعْتُ على ما تفرَّقَ فيهم، فزتُ بكنوز هذا الكهف العجيب.

# ٢١

رجعتُ إلى نفسي فوجدتني أذكر الاسم المفرد: الله الله الله، وسمعتُ المؤذّن يؤذّن للصلاة، فقمت قاصدًا المسجد وقد نلتُ ما نَويت، وخمري منّي شربت، وعنّي رويت. عدت إلى بيتي بعدما أدَّيتُ فرْضي منشرحَ اللّباب وقد زال الحجاب، فتلقَّفَتْني زوجي وأمّي وأفضيتُ لهما بسرّي، وأعلَمَتَانِي بزيارة الشرطة للبيت وسؤالهما عنّي، فهدَّأتُ من مخاوفهما.

وفي صباح الغد قصدتُ أستاذي، ومررتُ بحارة المقدسي، فوجدتُ قومًا جالسين في الحانوت الذي بطرف الحومة، المسمّى حانوت العلم، يتذاكرون في أمور الطريق. سلَّمت عليهم فردُّوا السلام، ثم أكملتُ طريقي إلى بيت عبد الحقّ. استأذنت في الدخول فخرج إليّ مصافحًا مبتسمًا وبدأني قائلاً: الله فقط.

فقلت: الله فقط.

ثم قال لي: هنيئًا لك يا أخي، لقد نلتَ السمسمة الرابعة في

سلسلة إسنادك العالي. ولقد فتح الله عليك وخَرقْتَ حجب العادة، فأبصرْتَ موطن السعادة، ودخلتَ بلاد صاد وأرض السمسمة، بالاسم المفرد: الله الله الله، وسمعتَ الألحان في الخلوات، وطربتَ بذكر الحبيب وفرحتَ، فقد أصبحتَ من سكّان مملكة الفرح. وقد طلعَتْ ليلةُ قدْرك بعد ألف ليلة، ودخلتَ كهف صدرك، وأسْرجتَ مصباح قلبك، وفتحتَ صناديق العلوم ولبِستَ حُللَ الأسماء وخَرقْتَ الحجب الأربعين، وطلع فجر الصباح فَسَكَتَّ عن الكلام غير المباح. فأنشدتُه للتوّ:

فجرُ المعارف في شرقِ الهدى وَضَحَا　　بَسْمِلْ بِكأسكَ هذا اليومَ مُفْتتحا
يـومٌ تَـنَـزَّهَ عَـنْ أَيَّـامِ عَـادَتِـنَـا　　وَعَنْ أَصِيلٍ فَمَا تُلْفِيهِ غَيْرَ ضُحَى

ثم ذكر لي عبد الحقّ أنّه سمع بقصّة الشرطة التي زارت بيتي، وأنّه كَلَّمَ مُشْرِفَ المدينة في هذا الموضوع، وذكر بعض أنواع المضايقات التي يلقاها من المترسِّمة الذين صاروا يؤلّبون أولياء الأمور عليه وعلى أصحابه، لكنّه ذكر لي أنّه وعد المشرف بأن لا يثير أحد أصحابه فتنة في المدينة. ثم قال لي: لم تعد تحتاج يا أبا الحسن لتخريب نفسك، فقد نجحتَ في مهمّتك، ولله الحمد. شكرته على صنيعه في غيبتي وخلوتي، فقال لي: إنّ الشيخ مسؤول عن كلّ أصحابه حسًّا ومعنى.

ثم سألته: لماذا كان اللصوص في الكهف أربعين؟

فأجابني: اعلم أنّ اللّصوص في قصّة **علي بابا** هم الحجب المانعة من الوصول إلى الحقيقة، لكنّ كلمة السرّ، افتح يا سمسم، هي اسم الله المفرد الذي يفتح كلّ شيء، وعلي بابا، رمز لذلك السرّ الذي أتانا من سلسلة سيّدنا عليّ بن أبي طالب، لقول النبي ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». فَلِكَيْ تدخل مدينة العلم، يجب أن تأخذ السرّ من البوّاب، وهو سيّدنا **عليّ باب** مدينة العلم، **وعلي بابا** صورة أدبيّة لهذا المعنى، فاخرِقْ حجبَ اللصوص تَرَ حقيقة الأمر. إنّهم لصوص لأنّهم يتلصّصون عليك، يا من يريد منزل صاد، فعليك باصطيادهم واحدًا تلو الآخر. ثم إنّ الله تعالى لمّا خلق آدم تخمَّرتْ طينتُه وتحوَّلت إلى جسم إنساني في أربعين يومًا، فنشأ من ذلك أربعون حجابًا على نور صفاء الروح القدس. وقد اسْتَنَّ أهلُ الطريق الخلوات الأربعينيّة ليقطعَ السالك كلّ يوم حجابًا فيرجعَ إلى أصله الملكوتي اللطيف ويتنعَّمَ بالمشاهدة والحديث. ومن هذه الحقيقة يمرُّ الجنين في بطن أمّه منْ سبع مراحل، كلُّ مرحلة من أربعينَ يومًا. ولهذا السبب ذاتِه لم يبعث الأنبياء والرسل إلاّ بعد تمام الأربعين، ما عدا سيّدنا عيسى ويحيى عليهما السلام لغلبة الروحانيّة عليهما. وبنهاية الأربعين مرحلة تظهرُ آخر الأمّهات **السبع** التي قطعتَها في سلوكك، وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام. فبعد تلك الأربعين قام آدم ناطقًا بالحمد.

والآن وقد قطعتَ كلَّ الحجب، وأعظمها حجاب الجهل، وحجابُ أنتَ على نفسك، فقد صحّ منك العزم وآنَ رجوعُكَ إلى الصحو. وهذه أيّام أكل وشُرْب وتوسِعة. فقد أدَّيتَ ركنَ الحجّ الأعظم ونحرْتَ نفسَك قربانًا لربّك، فآن لك أن تفرحَ بالعيد وتلبس من جديد، وترْفُقَ بالوليد والمرأةِ النَّهيد. فَلَكَ أن تتحلَّل التحلّل الأكبر. عُدْ إلى أهلك واسلُكْ سيرتك المعتادة. ثم ناوَلني رسالةً عجيبة وقال لي: طالعها جيّدًا. فتحت الرسالة التي عنوانها الرسالة النوريّة، وقرأت أوّل كلام طلع لي بحضرة عبد الحقّ: «اعلم أنّ أنواره ﷺ تختلف باختلاف متعلّقاتها ومضافاتها، ومن حيث الأقلّ والأكثر، والأشدّ والأضعف». ثم أغلقت الرسالة بإشارة منه وقال لي: لقد أجزتُكَ في هذه الرسالة التي عدد أنوارها خمسة وثلاثون، لكنّي لم أشرح نور العلانية ونور الكشف، كما أغفل الحاتمي الإجابة عن سؤالين من أسئلة الحكيم الترمذي البالغ عددها سبعةً وخمسين ومائة. وقد يظنّ القارئ أنّها **ثلاثة وثلاثون** نورًا فقط كما صرّحتُ بذلك في الرسالة. ولهذا وجه عجيب وإشارة لطيفة وهو أنّ أنوار النبي ﷺ مستمدّة من آية النور، وهي الآية ٣٥ من السورة نفسها ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مثلُ نُورِهِ. . ﴾. ثم إنّ هذه الأنوار قد ورثها أهل بيته مصداقًا لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْس أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فإنّ هذه هي الآية ٣٣ من سورة

الأحزاب التي ترتيبها ٣٣ كذلك. وبمجموعهما نحصل على قيمة عدد الاسم المفرد ٦٦ : الله، فافهم.

فقلت لعبد الحقّ وما سر عدد هذه الأنوار؟

فأجاب: إنّها إشارة إلى المقام الأحمدي، ومقام المحبوبيّة، وقد ذقتَ من ذلك في خلوتك لمّا صلّيتَ على **حبيب الله** حينما رأيتَ بيوت صندوق النور، فهل تذكر؟ فقلت له: نعم أذكرُ ذلك وإن كنتُ وقتَها أجهلُ سرَّ تلك التصلية على حبيب الله. فقال عبد الحقّ: لقد دخلتَ **منزل صاد** وعدد بيوته، أي **آياته** هو عدد **حبيب الله**. فهل أدركتَ الآن معنى النور، ومنْ هُوَ النور الأعظم؟ اقرأ رسالة الأنوار ليحصل لك علم التفصيل، أمّا الإجمال فقد ذقته في الخلوة.

ثم طرح عليَّ ابنُ سبعينَ لغزًا حِسابيًّا وطلبَ منّي أن أَفُكَّهُ، فقال: لدينا زوجٌ من الحمام، يلدُ زوجًا آخر كلَّ شهر، على اعتبار أنّ كلّ زوج جديد يصبح مُنْتِجًا بدوره ابتداء من الشهر الثاني، فكم عدد أزواج الحمام التي يمكن إنتاجها خلال سنة كاملة؟ إنّك قد نلت الجواب عن هذا اللّغز في خلوتك، فهل تستطيع أن توظّف الإجمال لِتَحُلَّ المسألة الآن؟

تفكّرتُ قليلاً ثم نطقتُ بالاسم ثلاثًا وصلَّيتُ على حبيب الله

فجاءني الحلُّ من ظهر الغيب في شكل متوالية قيل لي أن أسمّيها متوالية جل:

| الشهر | ١ | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ | ٦ | ٧ | ٨ | ٩ | ١٠ | ١١ | ١٢ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| عدد الأزواج | ١ | ١ | ٢ | ٣ | ٥ | ٨ | ١٣ | ٢١ | ٣٤ | ٥٥ | ٨٩ | ١٤٤ |

ثم جاءني الخبر، فقلت: إنّ هذه المتوالية الذهبيّة لها تطبيقات في الوجود كلّه، في الإنسان والنبات والحيوان والجماد. وأصلها مستمدّ من الاسم المفرد الله (٦٦)، فإذا أخذنا نصفه، أي ٣٣ (عدد جَلَّ أو جُلْ)، وهو عدد أنوار النبي في الرسالة التي أَلَّفْتَهَا والمستمدّة من سورة الأحزاب وآيتها ٣٣، استطعنا أن نبني ما نشاء من العمارة المادّيّة والمعنويّة في غاية من الحكمة والاتّساق. و٣٣ هو مجموع عناصر المتوالية السبعة وهي: ١ + ١ + ٢ + ٣ + ٥ + ٨ + ١٣. فالمدار كلُّه على السبعة، وما بقي توليد.

هنّأني ابن سبعين على هذا الفتح، ثم ذكر لي أنّ أحد علماء الحساب النصارى اسمه فيبوناتشي كان قد أخذها لمّا كان يدرس في بلاد المغرب، ثم لمّا عاد إلى بلده ضمَّن هذا اللّغز في كتاب له، واستخرج قانونًا نَسَبَهُ لنفسه سمَّاه متوالية فيبوناتشي، وقد تكلَّم عنها قبلَه عمر الخيام وعلماء الإسلام.

ثم سألت عبد الحقّ: ما هي أصناف الطالبين، وما هي مرتبتنا من بينهم؟ فأجابني قائلاً: اعلم يا أخي أنّ الوجود واحد، وهو

وجود الله فقط. أمّا سائر الموجودات، فوجودها عين وجود الواحد، فهي غير زائدة عليه، بل هي قائمة به. وهذه هي الإحاطة، المشار إليها **بأنا**. وقد أخبرني أحدُ الطلبة عن أبيات قلتَها لمّا سَمِعْتَ قارئًا يقرأ ﴿إنني أنا اللهُ لا إلهَ إلاّ أنا فاعبدني﴾، فأصابكَ حالٌ عجيبٌ وأنشدتَ للتوّ:

انْظُرْ للفظِ أنا يا مُغرمًا فيه ... مِنْ حَيْثُ نَظْرَتُنا لَعَلَّ تَدْرِيهِ
**خَلِّ ادِّخارَكَ لا تَفْخَرْ بِعَارِيَةٍ** ... لا يَستعيرُ فَقيرٌ مِنْ مَوَالِيهِ
جُسومُ أَحْرُفِهِ للسِّرِّ حَامِلةٌ ... إنْ شِئْتَ تَعْرِفُهُ جَرِّبْ مَعَانِيهِ

إنّك نطقتَ بالحقّ، فـ «**أنا**» هي نون الإجمال وحقيقة الإنسان الكامل قبل البروز. ثم إنّها محصورة بين الذّات المنفصلة، والذّات المتّصلة، أو لنقل إنّها عارية عن كلّ شيء، لكنّها أيضًا سارية في كلّ شيء. والقوى الأربع كلّها راجعة إلى الإحاطة، والباقي إدراك وإرادة وتفصيل، وهو الخبر عن المدركات والمتخيّلات. ومجموع هذه القوى يُسمّى الكمال. والتقييد عبوديّة، والإطلاق حقّانيّة. وليس التقييد إلاّ التزام الأوهام الواقع بها التعدّد، والتعدّد باطل. إنّ الوحدة المطلقة تنفي كلّ النِّسب والإضافات والمراتب. والزمان والألم واللذّة كلّ ذلك من الأوهام. فلا يصحّ أن يقال في العالم إنّه قديم أو حادث، لأنّ هذا القول مبنيّ على الزمان، وقد تقدّم أنّ الزمان وهم. فكلّ

المدركات وتقيُّدها بالمكان من لوازم البشر وبها كانوا عبيدًا فهل سمعتَ بقصّة الراهب وجَرّةِ السَّمْن في كتاب **كليلة ودمنة**؟ فقلت له: لا فأَخْرجَ كتاب **كليلة ودمنة** وصار يقرأ منه: «زعموا أنّ ناسكًا كان يُجْرَى عليه من بيت رجل من التجّار رزقٌ من السمن والعسل والسَّويق. وكان يُبقي من ذلك السمن والعسل فيجعلهُما في كُوزٍ له قد علّقه حتى امتلأ الكوز من ذلك. ووافقَ غلاءٌ في السمن والعسل فقال: أنا بائعٌ ما في هذه الجرَّة بدينار، أقلُّ ما أنا بائعُه فأشتري بالدينار عشْرةَ أعنُزٍ فيحْمِلنَ ويلِدْنَ لخمسة أشهر. فَحَزَرَ على هذا الحساب لخمس سنين فوجدَ ذلك أكثر من أربعمائة عنز في حسابه ثم قال: فأشتري مائة من البقر بكل أربعة أَعْنُزٍ ثورًا وبقرةً فأصيبُ بذرًا فأزرع على الثيران وأنتفع ببطون الإناث وألبانها فلا يأتي عليّ خمس سنين إلاّ وقد أصبت منها ومن الزرع مالاً كثيرًا، فأبتني بيتًا فاخرًا وأشتري عبيدًا ورياشًا ومتاعًا فإذا فرغتُ من ذلك تزوَّجتُ امرأة ذاتَ حسب ونسب ثم تلدُ لي ابنًا سوِيًا مباركًا مُصلحًا، فأسمّيه بما فيه وأؤدِّبهُ أدبًا حسنًا وأشُدُّ عليه في الأدب. فإن رأيتُه عَقوقًا مُهتبِلاً ضربتُ رأسَه بهذه العصاة هكذا ورفع العصاةَ يشير بها فأصابتِ الكوز فانكسر وانْصَبَّ السمنُ والعسل على رأسه وذهبَ تدبيرُه وكلُّ أمانيه باطلاً». ثم أغلق عبد الحقّ الكتاب وقال: لم يصحّ من كلّ ما تقدّم سوى وجود الناسك. أمّا الممكنات التي لفَّقَها فهي أوهام في أوهام،

وكذلك سائر التقييدات. وأكملُ أفراد الناس هو المتحقّق بهذه الوحدة المطلقة. ويتميّز عن باقي الطالبين من الفقيه والأشعري والفيلسوف والصوفي. فالرجال الخمسة هم أصناف الطالبين، والمقرَّب أو المحقِّق هو أعلاهم، بل إنّ سوى مرتبته باطل لاندراج الجميع في مرتبته. وقد اخترتَ الدخول في سلك المقرّبين والمحقّقين، فَالْزَمْ حتى تصل. ثم قال: يا أبا الحسن، لقد تكلّمتُ عن أصناف الطالبين في **بُدّ العارف**، وهو كتاب كتبتُه في سنّ الشبيبة. وهو تاسع كتاب وقع في العالم، وإن كان لم نغتبط بتأليفه، ولا أودعتُه من الأسرار إلاّ القليل، فخذ من الفقيه المحافظة، ومن الأشعري السياسة بك في مذهبه لا به، والمصانعة والاحتياط على صنائعك، ومن الفيلسوف الصناعة الرئيسيّة والحكمة التي تفيد معرفة الأشياء حسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان، ومن الصوفي مكارم الأخلاق والتجرّد المحض عنك حتى تجدك وتظفر بك، ومن المقرّب ماهيّة كمالك الأوّل والثاني. والكمال الأوّل هو ما يكمل به النوع في ذاته، أمّا الثاني هو ما يكمل به النوع في صفاته. ثم إنّ الفقيه يقول الحقّ ولا يعلم مدلوله، والأشعري يتعرّض لحقائق الأمور ويقول الباطل في مذهبه ومذهب غيره وإن علم بعض المدلول من أجله فإنّه لا يعلم الأمر بكماله، والفيلسوف يقول الحقّ ويعلمه بالإنسان في الإنسان خاصّة ويجهل غير ذلك، والكمال المحض إنّما هو في الذي

جهل. والصوفي يقول ما يغلب عليه ويعلم ما يجذبه إخلاصه إليه، فإن نطق نطقَ بحقّ، وإن علم علمَ محض الحقّ، وأكثر علومه من غير الإنسان، والذي للإنسان فيها هو الموضوع الذي توجد به وحدة الإنسان الذي يقبل المذاهب كذلك. والمقرّب عين الخبر وأُسُّ الأثر وكلُّ الكون ومالك كلّ كون.

فقلت له: ألا تعتقد يا أخي أنّ لكلّ مرتبة أصالتُها وأصْوَبِيَّتُها؟ فإنزالُ الناس منازلهم هو الحقّ الذي لا مراء فيه. وإعطاءُ المراتب حقَّها هو من ضمن هذا الإنزال الشرعي. فكلّ مذهب صائب في مرتبته.

فقال عبد الحقّ: نعم هو صائب في مرتبته لكنّه باطل بالنظر لمن هو فوقه. ألا ترى الشارعَ قد سمَّى ذلك، كما ذكرتَ إنزالاً فهذا خطٌّ نازل، وأنا أتحدّث معك عن الخطّ الصاعد. فالذي فوق يُفني الذي هو تحت، لكن هذا لا يمكنه إلاّ أن يشْرئبَّ لمن هو فوقَه، فهذا هو الفرق. فكلامي معراجي مَلكوتي وكلامك تنزّلي مُلْكي.

ثم سألته: إذا كان كلّ شيء هو كلّ شيء، فأين المزيّة، وأين الفرق بين الخير والشرّ؟

فقال: سأجيب ابتداء عن سؤالك الأوّل حول الهويّة، ثم أجيب ثانيًا عن سؤال الأخلاق حول الخير والشرّ. لقد ذكرتُ لك أنّ

الوجود واحد، لكنّه باعتبارين اثنين، أوّلهما الهويّة وهي الكلّ وثانيهما الماهيّة وهي الجزء. والهويّة هي الربوبيّة، والماهيّة هي العبوديّة. ولا هويّة من دون ماهيّة، ولا ماهيّة من دون هويّة، كما أنّه لا ربوبيّة من دون عبوديّة، ولا عبوديّة من دون ربوبيّة، أي لا ربّ من دون مربوب ولا مربوب من دون ربّ. فليست هناك تفرقة بينهما على التحقيق، بل هي وحدة مطلقة. وهذا هو مذهب المحقّق الذي أشرتُ إليه. أمّا الكثرة فهي من وهم الجهّال. والجواب عن سؤالك الثاني، فاعلم أنّ الخير والسعادة الحقيقيّة هو في التحقّق بالوحدة المطلقة. أمّا من حيث الحقيقة الوجوديّة، فقد استوى الماء والخشبة، أي أنّ الخير والشرّ لا فرق بينهما لأنّ الوجود كما ذكرتُ قضيّة واحدة لا تعدُّدَ فيها، فهي خير مطلق، وليس هناك شيء اسمه الشرّ. والمحقّق هو عين الخير والسعادة، فلا يوصف بأنّه سعيد، إذ الأوصاف أوهام.

ثم سألته عن رأيه في بعض حكماء المسلمين مثل ابن باجة وابن طفيل وابن رشد والفارابي وابن سينا والغزالي.

فقال: أمّا ابن باجة فهو رجل مفتون بنفسه، وله سفسطة كثيرة مثل ما ذكره في المادّة والصورة، وزعمِه أنّه خلَّص الخلاف فيها، وكذلك ما ذكره عن صناعة المنطق من أنّها تكذب في شيء وتَصْدُقُ في آخر. وأمّا ابن رشد فهو رجل مفتون بأرسطو ومُعَظِّمٌ

له، ولو سمع ابن رشد أرسطو يقول إنّ القائم قاعد في زمان واحد لقال به واعتقده، وهو في نفسه قليل الباع، قليل المعرفة غير أنّه إنسان جيّد، قليل الفضول، ومنصف وعالم بعجزه. وأمّا الفارابي، فقد اضطرب وخلط وتناقض وتشكّك في العقل الهيولاني وفي النفس الناطقة، وتنوّع اعتقاده في النفوس. وأكثر كلامه في المنطق، لكنّه أفهم فلاسفة الإسلام وأذكاهم وأدراهم بالعلوم القديمة، وهو الفيلسوف لا غير، ومات وهو مدرك محقّق وزال عن جميع ما ذُكِرَ عنه، وظهر عليه الحقّ بالقول والعمل. وأمّا ابن سينا فرجل مُمَوِّهٌ مُسَفْسِطٌ، كثير الطَّنْطَنَةِ، قليل الفائدة، ويزعمُ أنّه أدرك الفلسفةَ المشرقيّة وهو في العين الحَمِئَةِ. وأغلبُ كتبِه مأخوذ من أفلاطون ومن كلام الصوفيّة، وقد خالف أرسطو في الشفاء، وهذا ممّا يُشْكَرُ له. وأحسن مَا لَهُ في الإلٰهيّات بثّه في **الإشارات والتنبيهات ورسالة حيّ بن يقظان**[١] أمّا الغزالي، فلسان دون بيان، وصوت دون كلام، وتخليط يجمع الأضداد، وحيرة تُفَتِّتُ الأكباد، مرّة صوفي، وأخرى فيلسوف، وثالثة

(١) رسالة حي بن يقظان الأولى لابن سينا، ثم جاء ابن طفيل فكتب قصّته المشهورة **حي بن يقظان**. والعجيب في الأمر أنّ معنى البدّ أو بوذا عند الهندوس: الحيّ المتيقّظ. فلعلّ في هذا ما يشير إلى علاقة فكريّة بين ابن طفيل وابن سبعين في كتابه **بدّ العارف**، خاصّة أنّه لم ينتقده كما فعل مع باقي فلاسفة الإسلام الآخرين.

أشعري، ورابعة فقيه، وخامسة مُحَيَّر. وإدراكُه في العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت، وفي التصوّف كذلك لأنّه دخل الطريق بالاضطرار الذي دعاه لذلك. والغزالي يعتقد في العقل ما يعتقده الفيثاغوريّون، فإنّهم يطلقون العقل على النفس، كما فعل في تقسيمه الأرواح في رسالته **مشكاة الأنوار**. وهو كأصله ضعيف لأنّه مأخوذ من كلام إخوان الصفا. فهذا قولي في هؤلاء.

فقلت لعبد الحقّ: إنّ الجرح حادّ والعبارة قاتلة والتَّسْخِيف لائِحٌ، لكنّي استفدتُ من كلامك عدمَ التَّعويل على أهل الفلسفة في الأمور الإلٰهيّة، فهم قد اصطنعوا تقسيمات صناعيّة للنفوس وترتيبات وهميّة للعقول، وغفلوا عن حقيقة الوحدة المحضة، وجهلوا أنّ كلّ كلامهم في التقسيمات والوضع والإضافة وغير ذلك يجب أن يُترك في الأعتاب قبل دخول باب الحقيقة.

خرجتُ من عند عبد الحقّ لكنّي لم أكن واثقًا ممّا ذكره لي، فقد أخافتني عباراته، وتدفَّقَ منّي الكلام الرقيق وأنشأتُ بل أنشدتُ قائلاً:

الحبيبْ عَرفتو وأنا منه خايف
ما يْحِبَّك إلاّ مَنْ هوَ بكَ عارف
مذ عرفت ربّي زالت عنّي الأغيار
وانشرح لي قلبي وبدت لي أسرار

وَأنَا طُولَ حْياتي في نورٍ وأنوار

وبعد هذا سألته أن يضع لي كتابًا عن ظهور أو بدو العارف كما أخبرني، يشرحُ لي فيه غوامض علم السفر والتحقيق، فوافقني إلى ما طلبت ووعدني خيرًا.

## ٢٢

اجتمعت بتلامذتي وصرتُ أخبرهم عن المذهب الجديد بلغة مبسّطة قريبة المأخذ. كانت الدروس التي يعطيها المشايخ في بجّاية تبتدئ يوم السبت أو الأحد، وقد كنت ممّن يتفاءل بيوم الأحد من باب إفراد الأحديّة بحقّها أمّا يوم السبت فكنت أخرج للنزهة مع الطلبة إلى خارج المدينة من باب البنود في حومة بئر مسفرة، فنصل إلى حيث الحدائق الغنّاء والبساتين الفيحاء. وفي الطريق نتوقّف عند الوادي حيث كانت غسّالات الثياب وهنّ من السود في عمل دائب، فحينما نمُرُّ بهِنَّ نَنْقُدُهُنَّ بعض النقود ثم نواصل مسيرنا نتذاكر في العلوم على طريقة المشّائين من حكماء اليونان. وكنت أصطحب معي للنزهة قطّةً أليفة أتركها في البيت حين أخرج للتدريس فإذا عدتُ جاءت إليّ تتمسَّح وتُبَصْبِص. وحتى في أوقات الذكر كانت تأتي إليّ وتجلس في حِجري وتَسْكُنُ سكون العارفين. ويشهد الله أنّها من العارفات لأنّ لها هيبة ووقارًا عجيبًا. وقد لقَّنتُها بعض أورادي فوجدتُها نِعْمَ الصاحب. وحينما

كنت أخرج للنزهة كانت تخرج معنا فترتع في مراتع الظباء والغزلان وينشرح قلبها وتنطلق حرّة أنيسة تقفز من هنا وهناك يملؤها الجذل والحبور.

ومرّة رأيتُ رجلاً يقطع شجر الشَّعْراء ليبيع أعوادها، فدعوتُه ليحضر معنا. فلمّا وصل سألته عن اسمه فأخبرني بأنّه يُدعى بأبي زكريّا البلنسي. فرِحْتُ بهذا الرجل الأندلسي وتفرَّست فيه الخير فقلت له: أعوادُك تعود أعيادًا إذا لزمتنا يا أبا زكريّا فما كان من الرجل إلاّ أن انضمّ إلينا وصار من أخلص تلامذتي.

كان منتزهُنا في ظاهر بجّاية حيث الأشجار العظيمة والفواكه اللذيذة، وخاصّة منها التِّين البجّائي الأسود. كما كان الطلبة يهيّئون لنا غذاء من السمن والعسل نأتدم بهما مع الخبز. والعسل كثير في بجّاية ويؤخذ من بيوته ليُصنعَ منه الشمع حتى صارت هذه المدينة معروفة في أقاصي الأرض وأدانيها بصناعتها للشموع. وانتقل اسم الشمع إلى لغات الروم من اسم بجاية، فيقال bougie. كما أنّ بها الجلود البجّائيّة المعروفة. كان هَمُّ الطلبة أن يعرفوا تفاصيل دخولي للخلوة وكيفيّة السلوك ومراحله. وكثير من هؤلاء الطلبة كانوا يحضرون أيضًا مجالس عبد الحقّ بن سبعين، لكنّهم كانوا يتذمَّرون من استعماله لغة معقّدة ملغّزة، ويطلبون منّي فكّ تلك الألغاز، فكنت أنظم وأنشد لهم الأشعار التي تختصر لهم

الطريق. ومرّة سألني أحدهم عن معنى ترديد ابن سبعين لعبارة **الله فقط** وخاصّة في رسالته **خطاب الله** بلسان نوره حيث تتكرّر عنده ٣٦ مرّة، فأنشدت للتوّ هذه الموشّحة:

اسمع كلامًا ملتقط افهمني قطْ افهمني قطْ

إيش قال لي واحد علّه

ذا المعنى افهم شرحه

إيشْ اِسْمُ حِبّكْ قلتُ هو

اسم المليح ما يختلط افهمني قطْ افهمني قطْ

محبوبي قد عمّ الوجود

وقد ظهر في بيض وسود

وف نصارى معْ يهودْ

إلى أن قلت في الختام:

وقل هو الله فقط افهمني قطْ افهمني قطْ

وقد كرَّرتُ كلمة **قطْ** ستًّا وثلاثين مرّة، مُنَبِّهًا بذلك إلى أنّ هذا الكلام الزجلي المبسّط إجمال لكلام عبد الحقّ في رسالته المذكورة. فلمّا سمع الطلبة هذا الزجل حفظوه وصاروا يردّدونه ويرفعون من شأني ويُقلِّلون من شأن الشيخ عبد الحقّ، وكنت أبذل

قصارى جهدي في ردِّهِمْ عن هذه المفاضلة لكنّهم كانوا يتمادَوْن. والحقّ أنّ استغلاقَ كلام عبد الحقّ عليهم مردُّه إلى عُلُوٍّ كعبه وارتفاع نور نجمه فانحَجَبَتْ مرتبته عنهم بحجابي، فظنّوني فوقَه. وكثيرًا ما كنت أقول لهم، مهما عَلَتِ العينُ فلا بدّ أن يأتي فوقَها الحاجب، فلا تظنّوا أنّ ارتفاعَ الحاجبِ أعطاه التقدّم على العين، فليس له مزيّة إلاّ بها. فعبد الحقّ هو العين أمّا أنا فلست سوى حجابه وحاجبه. افهموني قطّ، الله فقط يا إخواني، ثم سألني أحد الطلبة قائلاً: قل لنا يا أستاذ، إن علم التحقيق خارج عن الزمان لأنّ هذا من الأوهام، ولفظة **فقط** مركّبة من الفاء وقطّ، وفقط ظرف مختصّ فيما مضى من الزمان. فكيف صحّ إضافة الاسم المفرد: الله، إلى ظرف مخصوص بزمان مضى؟

فقلت: ليس المقصود من هذه العبارة ما ذكرتَ من كونها ظرف زمان لاستغراق الماضي، مختصّة بالنفي، بل تلك، **قَطُّ** وهو الأبد الماضي، وهي ظرف زمان، تقول: ما رأيت مثلَه قَطُّ. أمّا **قَطْ** التي استعملتها في هذا الموشّح فهي اسم فعل بمعنى: حَسْبُ، تقول: قَطِي وقَطْكَ وقَطْ زيدٍ درهمٌ، بمعنى حسبي وحسْبُ زيدٍ درهمٌ. والفرق بينهما أنَّ حَسْبُ معربة، وقَطْ مبنيّة، فلا تتعاورُها أحوالُ الإعراب فأُضيفتْ للاسم المفرد تأكيدًا على هذا المعنى، الله فحسبُ، أو حسبُك الله أو حسبيَ الله. ومثل قَطْ، **قَدْ**، فهي كذلك تستعمل بهذا المعنى وتدخل على الأسماء، كما في

الموشح الذي أقول فيه: «**لقد** أنا شيء عجيب» أو في قولي الآخر «**لقد** هو المتعوب»، أو كما قال ابن العربي الحاتمي في موشّحته «كبريتك الأحمر **لقد** معلوم». وقد وَهِم بعض المتحذلقة فَظَنَّنِي أَخْطَأْتُ وأَدْخَلْتُ **قد** على الأسماء مع أنّ **قد** تدخل على الأفعال. ولو عَلِم أنَّ **قد** الأولى حرفيّة غيرُ **قد** الثانية وهي اسميّة، لما أنكر وفي الحديث حول قَطْ: «إنّ النار تقول لربّها: إنّك وعدتني مِلْئِي، حتى يضعَ الجبَّار فيها قدمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ»، بمعنى حسبُ، وتكرارُها للتأكيد. فهل فهمتَ؟ افهمني قَطْ، افهمني فحسب. افهم بأن لا وجود للغير مع العين، ولا وجود للسوى مع الذات، ولا وجود للعالم مع الله. وإن لم تفهم، افهمني صبْ، وهذه لفظة زجر للقطط كما يجري على ألسنة عامّة الناس، فهل فهمتَ المقصود؟

لم أتركه يجيب لأنّ سؤالي كان بقصد توليد الفهم في ذهنه، ثم أكملتُ: افهمني الصَّبْ(١)، معناها أنَّ حديثنا يتمنَّعُ فهمُهُ إلاّ لمن يستحقّ ذلك، فهي عبارة وُضِعَتْ لطرد وزَجْرِ قِطَطِ الجهل عن ورود مناهل الصَّفَا افهمني قطْ، افهمني صب. وفي **الصَّب** توارى الحجاب الأعظم، وفي **الصّب** ماء عين الحياة، والنور

(١) كان الشيخ عبد اللطيف بن منصور، متّعه الله بالعافية، كثيرًا ما يردّد هذه العبارة على سبيل النكتة والعبرة.

الأعظم الذي يعطي الرؤيّة والمشاهدة، والغاية التي تُصاب. أمّا أنثى القطّ فهي **القطّة**، وشأنها شأن عظيم، وخاصّة حينما أدعو بدعاء حرف القاف الذي وضعه عبد الحقّ: بسم الله القاهر القوي القاصم.

فيطرأ على قطّتي حال عجيب وانقباض عظيم، كما لو أنّ هذا القول الثقيل ينزل على قلبها فيذيبه ويكسوها **حلّةً قرآنيّة** عجيبة، فهي بنتُ **القرآن** التي **اقْتُطِعَتْ** لجنابه الأقدس. **قِ طَهَ**، ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. استر بقاف القرآن المجيد طه القرآن العظيم. والقطّ الحكيم صاحب العدد والتجلّيات.

كنّا نمضي اليوم في الذكر والمذاكرة والعلم والمحبّة، وهي أركان الطريق، ثم نعود بعد العصر وقد أَسْفَرَتِ الشمسُ وغادرتِ الغسّالات الوادي، فندخلُ من باب البنود ثم نجدِّدُ الوضوء لصلاة المغرب. وبعد ذلك أذهبُ لبيتي وأجلس إلى أهلي وأداعبُ ابني وأَبَرُّ بأمّي.

كانت بجّاية مدينة عامرة بالعلماء وفيها شيء من علم الحكمة الذي تركه الأكابر ممّن سبقونا هنا، وخاصّة أبا الحسن الحرالي، صاعقة العلوم وأحد وجوه العلم ممّن لا يُظفر بهم في الزمان كلّه، بلْه أن تجد لمثله نظيرًا في الزمان الفرد. وله أتباع وتلاميذ نهجوا نهجه الفريد، بل فيهم حتى من الأعاجم. وقد أخبرني ابن سبعين

عن طالب نجيب اسمه ليوناردو فيبوناتشي من أهل مدينة البندقيّة، وصل إلى بجّاية والتحق بوالده الذي كان يعمل في مكتب للتجّار الإيطاليّين في بلاد المغرب. وحرص الوالد على تعليم ابنه علوم العرب وخاصّة الحساب حتى نَبَهَ فيه. وكان هذا الرجل هو الذي أخبر الإمبراطور فريديريك عن ابن سبعين ليحلّ له المسائل الصقليّة، ولمّا قرأ عن علم السفر في الأجوبة عن المسائل الصقليّة سمّى نفسه باسم لاتيني هو: المسافر (Bigollo). كما أنّه نقل إلى بلاده الحساب العربي والصفر، لكنّهم لم يفهموا أهمِّيّة الصفر في الحساب فظنّوه نوعًا من السحر، إذ لم يكن عندهم علم بكمِّيّة الفراغ، وحسبوا أنّه يزيد الأمر صعوبة وتعقيدًا فسمّوه نظام الشيفرة (cifra)، أي النظام السرّي. وقد كان الإمبراطور فريديريك مولعًا بحلّ ألغاز علماء الحساب العرب والمسلمين. فكان فيبوناتشي يصنعها له فيتحدّى الإمبراطور بها علماء بلده ثم يحلُّها لهم فيبوناتشي الذي أخذها عن المسلمين.

كما أنّ أصحاب أبي مدين قد عمَّروا هذه المدينة وانتشر نورهم في البلاد. وكنت أجتمع إليهم، فكانوا يشتكون من استغلاق كلام ابن سبعين، ويستنكرون ما يُنسب إليه من سلسلة الرجال الذين ذكر منهم هرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطو والإسكندر الأكبر، إلى جانب أئمّة علماء المسلمين. وهي سلسلة عجيبة لم يوجد مثلها، فكنت أسعى في تقريبهم من خصوصيّة هذه السّلسلة وأقول لهم:

إنّ الحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها حيث وجدها، ومع ذلك أذكرُ لهم انتقادات ابن سبعين لأرسطو وغيره من الفلاسفة بمن فيهم فلاسفة الإسلام، وأقول لهم هذا دليل على بطلان وجود هذه السلسلة. وأستشهد بقوله في **بدّ العارف** «ولا يخدعوك، (أي الفلاسفة) بالتوحيد الذي نسمعهم يطلقونه بأنّ العالم والعلم والمعلوم واحد، وأنّ الواجب الوجود لا يصدر عنه إلاّ واحد. والقوم (الفلاسفة) يجهلون الغايات بأصولهم الفاسدة». ثم أنشدُ القصيدة النونيّة التي وضعتُها، وهي من أمّهات قول المحقّقين:

أرى طالبًا منّا الزيادةَ لا الحسنى ... بفكر رمى سهمًا فعدّى به عَدْنا

وقد ذكرت فيها هذه السلسلة العجيبة، ابتداء من هرمس وانتهاء بالغافقي أي ابن سبعين. والحقيقة أنّني ما ذكرت أصناف هؤلاء الرجال إلاّ في مسألة موقفهم من العقل. وليس معنى هذا أنّهم سند السبعينيّة بل سندنا يقف عند رسول الله ﷺ. والقصيدة من تسعة وستّين بيتًا، وفيها إشارة إلى أنّ قائلها ينزل بدرجة واحدة عن صاحب دائرة السبعين، أي عبد الحقّ بن سبعين. إنّها قصيدة منزل صاد. حينما يوضع عَدَدًا المغربي والمشرقي الصغيران بإزاء بعضهما وجملة الرجال المذكورين في القصيدة أربعة وعشرون، ويشكّلون مع المرآة إشارة إلى من تحقّق بالاسم المفرد. فهم سلسلة المحقّقين. ولا معنى للتسلسل الزمني في ذكرهم، لأنّنا قلنا

إنّ الزمان من الأوهام، كما أنّ الصحبة الشبحيّة ليست شرطًا في أخذ الحكمة عنهم.

كان في هذا المجمع أحد فقهاء الرسوم ممّن لم يحقّقوا معنى الفقه، فقام يسألني، يريد بذلك توريطي في إحدى قضاياهم المعتادة، فقال: لقد استمعتُ إلى قصيدتك التي قرأت علينا، ولاحظت أنّك تتبنّى سند صاحبك ابن دارة نفسه، كما يحبّ أن يسمّي نفسه. وممّا أثارني ذكر السكّير بقراط الذي ذكرت أنّه سكن الدنّ، فهل يصحّ الأخذ عن مثل من يعاقر الدنان ويشرب الخمور؟

فقلتُ للمتكلّم: أوّلاً، هذا الذي تسمّيه سندًا ليس كذلك، وإنّما هي سلسلة ذكرتها فيمن تكلّم عن العقل. لقد ذكرتُ هؤلاء الرجال في معرض الحديث عن هذه القضيّة، وأنّه ظهرتْ عليهم منه آثار مختلفة، فمنهم من وقف معه، ومنهم من استنار عقله فنفذ، وهو قولي:

فَكَمْ واقفٍ أَرْدَى وَكَمْ سَائِرٍ هَدَى وكَمْ حِكْمَةٍ أبْدَى وكم مُمْلِقٍ أَغْنَى

ومن بين من وقف مع عقله بقراط، وأريد أن أنبّهك إلى أنّ المقصود من ذكر الدَّنِّ في البيت:

وتَيَّمَ أَلْبَابَ الهَرَامِسِ كُلِّهِمْ وَحَسْبُكَ مِنْ بُقراط أسْكَنَهُ الدَّنَّا

ليس ما ذكرتَ من إدمانه معاقرة الدنان وشرب الخمور، وإنّما لذلك قصّة لا تعلمُها، وها أنا أذكرُها لك حتى يزولَ عنك

الإشكال وتنْعمَ باليقين وتظفرَ بالمعنى الأمين. يحكي الحكماء أنّ بقراط دخل جرّة عظيمة فيها ماء ساخن ثم دعا بخمر شديد التركيز وشربه، وجلس فيها حتى لا يُشَوِّشَ على عقله، فمات. وظنّ أنّ ذلك من نوع الخلوات، وقد ذُكر أنّه كان في زمن موسى عليه السلام، فقيل له: لو ذهبتَ إليه لتأخذ منه الشريعة، فقال: نحن قوم مهذّبون لا نحتاج إلى أَخْذٍ. فأردتُ أن أُنبِّهَ كلّ أريب لبيب أنّ عَقْلَ هذا الرجل أرْدَاهُ حسًّا ومعنى، وصَرَفهُ عن التمسّك بأنوار الشريعة، فكان ممّن سلك طريق الضلال والعَماية والهوى. ولهذا قلتُ وأَوْصَيْتُ:

أمامك هوْلٌ فَاسْتَمِعْ لِوَصِيَّتِي عِقالٌ من العقل الذي منه قد تُبْنَا

لكنّ الرجل عاد للسؤال مرّة أخرى بالإنكار نفسه فقال: هذا عن أوّل الرجال الذين ذكرتَ في القصيدة، والمعاني تحتمل أشياء كثيرة، لكن دعنا من بقراط ودَنِّه وَلْتَشْرَحْ لنا البيت الذي تقول فيه:

ولِلأَمَويِّ النظمُ والنَّثْرُ في الذي ذَكَرْنَا وإِغرابٌ كما نحنُ أغْرَبْنَا

فقد أتيتَ بذكر هذا الرجل وهو من هذه الفرقة الضالّة المبتدعة المنحرفة التي تُسَمَّى باليزيديّة، وهم يعبدون الشيطان ويعتبرونه طاووس الملائكة، فكيف تجعله من شيوخِكَ وشيوخِ صاحبِكَ ابن دارة؟ أم أنّ ذلك للمناسبة بينك وبينه لأنّه من وادي لالش وأنت من وادي آش؟

فقلت: أراك قد تسرَّعتَ كثيرًا في الحكم على أحد عباد الله وذكرتَ عنه ما ذكرتَ من الزَّيغ والضلال وعبادة الشيطان، حاشاهُ حَاشَاه من ذلك، وإنّما هو أبو الفضائل عديّ بن مسافر الأموي، وهو ممّن هربوا من العبّاسيّين إلى كردستان. وينتهي نسبه إلى مروان بن الحكم. وقد لقي الشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه.

لقد كان الشيخ عديّ بن مسافر الأموي، الذي وصفه ابن خلّكان بـ (العبد الصالح المشهور) يخرج كرجل زاهد منقطع إلى الأماكن المنعزلة في القرن الماضي، ثم ينزوي بين أقوام بسطاء يعتقدون بصلاحه وينقادون إلى آرائه وإرشاداته ويغالون فيه غُلُوًّا يتجاوز الحدّ، ويؤدّي إلى قولِهِمْ فيه ـ بعد وفاتِهِ طبْعًا ـ بما لا يوافقُ عقلاً ولا شرعًا

فقد سعى هذا العبد الصالح المشهور إلى بناء زاويته في جبل لالش المنقطع، ثم انصرف إلى تهذيب هؤلاء القوم الذين حلَّ في وسطهم، وألقى عليهم الموعظة، وبشَّر فيهم بالحسنة، فكان لعمله هذا أثرُه في نفوسهم، ولكنّه ما كاد ينتقل إلى الرفيق الأعلى قبل ما يقرب من قرن من زماننا، ويُدفنُ في زاويته، وما كاد يرأسُ هؤلاء القوم حفيدٌ من حفدته، وهو الشيخ حسن شمس الدين، حتى دبَّ الزيغ والفساد فيهم، وظهرتْ براعم المعتقد القديم، وعاد أصحابه إلى معتقدات توارثوها عن أجدادهم وأسلافهم من مجوسيّة وزرادشتيّة وغيرها.

وقد اشتهر الشيخ عُديّ بن مسافر بالزهد والورع، وكثرة المجاهدة، وتسامع به الناس فقصدوه من الأطراف للاسترشاد، وتبعه خلق كثير، اتّخذ منهم المريدين وأظهر الطريقة العدويّة، وصار أتباعه يعرفون بالعدويّة أو الزيديّة أو الإيزيديّة نسبة إلى يزيد ابن معاوية الأموي، أو ربّما إلى إيزيد، وتعني الإله أو الربّ في لغتهم. ولعلّ هذا أقرب من غيره في نسبتهم، فهم على هذا يسمّون أنفسهم بالإلٰهيّين أو الربّانيّين، والله أعلم بكلّ ذلك. وقد اختلف المسلمون في يزيد بن معاوية، فذهب الشيعة فيه مذهبًا معروفًا، وافترق أهل السُّنّة، فمنهم من غالى في بغضه وأجاز لعنه، ومنهم من اقتصد، ومنهم من خالف وحسَّن الظنّ، وكان من هؤلاء الشيخ عُديّ بن مسافر. فقد أُثِرَ عنه أنّه قال في حقّ يزيد «إنّه إمام وابن إمام، وليَ الخلافة وجاهد في سبيل الله، ونُقِلَ عنه العلم الشريف والحديث وأنّه بريء من قتل الحسين رضي الله عنه». فربّما من هذا القول نشأ اعتقاد اليزيديّة في يزيد بن معاوية أوّل الأمر، أو لعلّ هذا كان فقط تداخلاً مع النسبة إلى إيزيد. لكن بعد وفاة الشيخ بمدّة وتولّي حفيده شمس الدين حسن مقاليد الأمور، آل الأمر إلى الانحراف والغلوّ في يزيد، بل وجَعْلِهِ نبيًّا ثم أَحَدَ الآلهة السبعة حَسبَ زعمهم. والشيخ عُديّ بن مسافر بريء من كلّ هذا وقد أنصفه العلماء من جريرة هؤلاء الكفرة الجهلة.

فها قد أجبتك عن سؤالك ورددتُكَ إلى الحقّ الذي لا مراء

فيه، فلا عُذْرَ لك في أن تتقوَّل مرّة أخرى على هذا العبد الصالح.

أمّا عن النسبة التي ذكرتَ بيني وبين هذا الرجل فأنت على حقّ فيما ذكرتَ من حُكْمِ الاسم، فأنا من وادي آش، وهو استقرّ في وادي لالش في منطقة الشيخان بالعراق، كما أنّه ترك رسالة في اعتقاد أهل السُّنّة والجماعة، وبعض الوصايا، إضافة إلى أنّه كان ينظم شعرًا رقيقًا، نرى بعض معانيه عند ابن الفارض في خمريّته المشهورة:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة		سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

ومن ذلك قوله:

شربت بكأس الحبّ من قبل نشأتي		سكرت بها من قبل توجد خلقتي

وبعد إماطة الأذى عن طريق رجل من صالحي المؤمنين، فلا أظنّ أنّ لمثلي أن يتكلّم مع المنكرين مثلك في حقائق هؤلاء الرجال، فأحوالهم وخصوصيّاتهم لا يعلمها إلاّ الله.

امتقعَ وجهُ الرجل وابتلعَ ريقَه وسكتَ من غير أن يضيفَ شيئًا ثم رأيتُه يحمل نعلَه ويخرجُ، فأنهيتُ المجلس وطلبتُ الإذن في الانصراف من الحاضرين. قصدتُ بيتي مرّة أخرى وحكيت لزوجتي ما حصل، فذكرتْ لي أنّ صديقتَها ريحانة قد كتبتْ لها كتابًا لمّا علمتْ بوجودنا في بجّاية وتدعوها للمجيء إلى تونس. كانت الفكرة تراودني كثيرًا لمغادرة بجّاية، وقد أخبرني صاحبي

عبد الحقّ بن سبعين أنّه صار هو أيضًا مضطهدًا في بجاية رغم علاقاته وصداقاته مع أولي الأمر. وكان قد أخبرني أنّه يروم هو أيضًا السفر إلى تونس.

من الغد ذهبت إليه أستشيره في الأمر فقلت له: أرى أنّ الخناق صار يضيق عليّ في بجّاية بعد تجربة الخلوة والسوق وتخريب النفس. فأصحاب الرسوم لم يَرُقْ لهم ذلك وأوْغَروا صدور أولياء الأمور عليّ. وأنت تعلمُ أنّ الشرطة أتت لتعتقلني لكن الله قَدَّرَ غيابي وقتها، فتروَّع أهل بيتي ولم يعد يطيب لهم المقام هنا، ولهذا جئت أستشيرك في مغادرة بجّاية. فقال عبد الحقّ: لقد وقع في نفسي ما وقع في نفسك، وقد قرّرت السفر أيضًا إلى تونس، فلنتوكّل على الله، لكنّني أطلب منك أن تغادر بعد أن أغادر حتى أرتّب مجيئك، ثم خرجت من عنده بعدما ودَّعته، وقد سكن روعي واطمأنّ خاطري لأنّي سأبقى برفقة صاحبي، مغناطيس النفوس، وإكسير الذوات، في حلّي وترحالي.

عدت للبيت وأعلمت أهلي بالاستعداد للرحيل. قضينا بضعة أسابيع في بجّاية ريثما نستكمل الاستعدادات. أمّا عبد الحقّ فقد غادر قبلنا ووصلني خطابه للُّحوق به هناك، ومعه التأليف الجليل الذي طلبت منه أن يضعه لي عن علم السفر والتحقيق. ويقول منبّهًا على ذلك بقوله «. ولولا خوف الفوت، وعدم اللقا في

الحضر، وقواطع الوقت، واحتفازك للسفر لشرحت لك ما يُضنّ به حتى يقع الاجتماع بك، ونتكلّم مشافهة معك. وطالع هذا التقييد ومقدّماته وما صعب عليك فيه راجع به إليّ لنجيبك بقدر الطاقة».

ودَّعْتُ أصحابي وأرسلت طلبتي ممّن كانوا لا يفارقونني لتأمين الطريق وأخذ أمتعتنا وتجهيز مكان نزولنا في تونس. وبينما كنت أستعدّ للرحيل جاءني أحد معارفي ونصحني بالخروج حالاً لأنّ قاضي المدينة يروم القبض عليّ بتهمة إثارة الفتنة وترويج عقائد فاسدة.

# ٢٣

خرجنا من بجّاية مباشرة بعد صلاة الصبح قاصدين تونس فوصلناها بعد أيّام، واستقبلني الطلبة على مشارف المدينة حيث دخلنا من باب البحر.

كانت الأحوال مضطربة في تونس التي وصلناها في ٢٢ جمادى الآخرة من سنة ٦٤٧ هـ. فما إن نزلنا حتى وصلتني الأخبار عن موت السلطان أبي زكريّا بعد أن أمضى اثنتين وعشرين سنة في ولايته. إنّ أصعب شيء هو أن تحلّ ببلد مفتوح على كلّ الاحتمالات بعد أن رحل السلطان. كنت متوجِّسًا من ابن الرميمي الذي لا شكّ أنّه لم ينس ما حصل له إثر خروجه من بلده ألمريّة طريدًا مع أهله، رفقة ريحانة. أمرْتُ زوجتي أن تلتزمَ الحَذَرَ والحيطة ثم بعد ذلك تتحايل لرؤية صديقتها. لكنّني لم أكن أعوّل كثيرًا على كتم أمري لأنّ الأخبار تنتقل بسرعة.

كنت أخرج للصلاة في جامع الزيتونة وأذهب إلى الأسواق التي

تحيط به من كلّ جهة. وكانت زوجتي تصرّ على مرافقتي فكنت آخذها إلى سوق الصاغة لكي تختار لنفسها بعض الحليّ. ثم نمرّ إلى سوق القماش فأشتري لها ما تحبّ. وقد كَلِفَتْ بسجّاد العَلُّوشة القيرواني فاشتريتُ لها قطعة منه. وهذا السجّاد تُجهّز به العرائس فلا يكاد بيت يخلو منه. وبينما نحن نسير إذا بامرأة تستوقفنا ثم ترتمي على صبح تعانقها كان الحياء يغلب عليّ فلم أحدِّق في المرأة كثيرًا لكنّي لمحت جمالها خلسة. بقيتْ زوجتي حائرة من هذه المرأة الغريبة حتى قالت لها: ألا تذكرينني يا ماريّة؟ استغربتُ مع صبح كيف تنادي هذه المرأة على زوجتي باسمها المسيحي سابقًا لكنّها أضافت بسرعة: أنا ريحانة صاحبتك. ارتمتْ صبح تعانق ريحانة التي تبدَّلت حالتها وبدتْ كأنّها من أهل هذا البلد، ثم سلَّمت عليّ فرددت عليها السلام ودعوناها لمرافقتنا إلى دارنا جلست صبح وريحانة ووالدتي يتحدّثن عن أخبارهنّ وماذا حصل منذ افترقنا قبل أكثر من اثنتي عشرة سنة. ثم جاء ولدي إلى جمع النساء فعانقته ريحانة بحرارة ودمعت عيناها وقالت: بارك الله في ولدك يا صبح، أمّا أنا فلم يرزقني الله بالذرِّيّة التي تعوّضني عن الغربة في هذا البلد. ثم أردفتْ: لكنّ زوجي يعطف عليّ ويرعاني رعاية كبيرة وهو يحبّني. وهذا هو عزائي الوحيد. أمّا الآن فأنا سعيدة بكم، فأنت يا صبح في محلّ أختي. ثم تعانقتا والدموع بينهما تجري حتى دخلتُ

وواسيتُ ريحانة. وبعد أن أمضتْ عندنا ساعةً أو يزيد تحيَّنَتْ للمغادرة وطلبتْ من صبح أن تأتي لزيارتها. لكنّني قلت لها هل نسيتِ يا ريحانة ما حدث في الماضي؟ إنّ زوجك ما زال يحمل في قلبه علينا، وإذا علم بأمرنا فسيسعى إلى الإيقاع بنا فمن الأفضل أن لا تخبريه بشأننا، كما أنّ صبح لن تستطيع أن تأتي إليك. والأفضل أن تأتي أنت إلينا بدون أن تخبري زوجك. امتعضتْ ريحانة من قولي لكنّها وافقتْ ثم ودَّعتنا فأرسلتُ أحد الطلبة لمرافقتها حتى يخبرني عن مكان سكنى ابن الرميمي.

بعد وفاة السلطان تمّت البيعة لولده أبي عبد الله الذي تلقّب بالمستنصر، ودخل تونس ثالث رجب من السنة نفسها، فجدَّد بيعته واستوزر محمّد بن أبي مهدي الهنتاتي، كما استعملَ على القضاء أبا زيد التوزري. كنت خلال هذه المدّة أذهب لزيارة عبد الحقّ ابن سبعين للمذاكرة في علم التحقيق. ولم أكن أعطي دروسًا إلاّ للخاصّة من أصحابي وطلبتي المرافقين لي، حيث كنّا نخرج إلى مسجد العابدين المبني على هضبة قرطاج الأثريّة. كنّا نجول في نواحي المسجد بين مسرح قرطاج وآثار كنيسة قديمة. كان المكان ملائمًا للخلوة فلم يكن يُنَغِّصُ علينا الفضوليّون أمرنا

أمّا ابن سبعين فإنّ السلطان قرَّبه منه وبدأ يجاهر بأفكاره في البلد، كما أنّ السلطان اتّخذه مستشارًا وطبيبًا، وكانت له في

تونس مناظرات واتّصالات مع رجال الكنيسة الدومينيك الذين كانوا متشبّعين بفكر أرسطو وابن رشد، للتوفيق بين اللاهوت والعقل. كان ابن سبعين يتدخّل في شؤون السياسة فتقوّى حلف أعدائه من بقايا الموحّدين في تونس الذين قاموا على المستنصر حتى استأصلهم بمن فيهم عمّه اللحياني وابن عمّه. ومن بقي منهم استقوى بعلماء الظاهر كما هي العادة عند كلّ معارض. كانت مواقف ابن سبعين قد أغاظت هؤلاء المترسّمة وحلفاءهم فسعَوا للنيل منه والنكاية به. وكان رأس المعارضين له شيخ المتكلّمين في إشبيلية ثم تونس الفقيه أبو بكر بن خليل السكوني. وكان لهذا الفقيه صولات وجولات وله الرئاسة على غيره من العلماء، فخشي عبد الحقّ على نفسه رغم وجاهته عند السلطان أبي عبد الله المستنصر الذي كان يحبّه. لكن أمور الملك والسياسة لها اعتبارات كثيرة تَنِدُّ عن المشاعر الشخصيّة مهما قويت. كانت الزيتونة، مع القرويّين في فاس، والأزهر في القاهرة، المساجد العظمى الثلاثة التي يتخرّج منها العلماء. وكان علماء المذهب يعتبرون أنفسهم حُماةَ الدِّين ولا يسمحون بظهور أفكار غريبة، لكن ابن سبعين كان قويّ النفس ولا يأبه لمعارضيه كثيرًا.

كنت أتحاشى الكلام في علم التحقيق بسطوة كلام ابن سبعين نفسها، واشتغلت بنسخ نسخة من كتاب **بُدّ العارف**، وبنظم الأشعار والموشّحات والأزجال فهام بها الناس وصاروا يردّدونها

وحتى الفقهاء وعلماء الظاهر كانوا يستحسنون كلامي، لكنّني كنت أتخوّف من ابن الرميمي وسعايته.

وفي أحد الأيّام خرجت على عادتي إلى ظاهر البلد وتركت صبح في البيت وعدت مساء فوجدتها مضطربة وسألتها عن أمرها فأخبرتني قائلة: لمّا خرجتَ من البيت جاءتني ريحانة لكي نذهب للسوق فرافقتُها وتركتُ ابننا مع جدّته. وتجوَّلنا في أسواق المدينة كالعادة وما زالت تمرّ من زقاق إلى زقاق حتى وَقَفَتْ بي أمام أحد البيوت، فقالت لي: هنا أسكن، فَارْتَعَبْتُ لكنّها هدَّأَتْ مِنْ رَوْعِي وقالت لي: لا تخافي فإنّ زوجي غائب في القنص مع السلطان في المصيد. هَدَأْتُ شيئًا ما لكنّها ألَحَّتْ عليَّ في الدخول فسلَّمْتُ أمري لله ودخلتُ تطييبًا لخاطرها أمضينا ساعة أو ساعتين وهي تتجوَّل بي في بيتها وتُعرِّفُني بأهله وتُريني أثاثَها وحِلِيَّها. بقينا على هذا الحال حتى سمعنا جلَبَةً فأَطَلَّتْ ريحانة من شُبَّاك حُجرتها فعايَنَتْ زوجها وقد عاد بغتة من القنص فأخبرتني بالأمر، حتى كدت أصعق. وبينما نحن نخمِّن في كيفيّة الخلاص إذ دخل ابن الرميمي على زوجته فوضعْتُ نقابي على وجهي. ولمّا رآني سأل زوجته عنّي فأخبرته بأنّي من صواحباتها، لكنّه لمح عليّ ثيابًا أندلسيّة فراعه الأمر. وقال لزوجته: لعلّ المرأة غريبة عن البلد. فقالت له زوجته وقد فَطِنَتْ لدهاء زوجها: لقد تعرَّفتُ على أمّ الحسن منذ مدّة في السوق وهي من بلاد الأندلس. تهلَّلَتْ أساريرُ

الرجل لكنّه حدَّق باتّجاهي وحيَّاني ثم انصرف خارجًا. وبعد أن خرج طلبتُ من ريحانة العودةَ إلى بيتي حالاً فأرسلَتْ معي أحد غلمانها حتى أوصلني إلى البيت.

لمّا انتهتْ صبح من حديثها قال عليّ لزوجته: لقد حذّرتك من الذهاب إلى بيت ريحانة، وهذا الرجل قد تعرَّف عليك وهو الآن يعرفُ بيتَنا من الغلام الذي أرْسَلَتْهُ زوجته معك ولن تمرَّ أيّام قلائل حتى يسعى في إيذائنا. والرأي عندي أن نغادرَ على عجل من تونس ونستريح بعض الوقت في القيروان ثم نُيَمِّمَ إلى قابس بعيدًا عن ابن الرميمي، فتأهَّبي للرحيل مرَّة أخرى ولا تخبري ريحانة بذلك.

## ٢٤

بعد أن رتَّبْتُ أمورَ الرحيل ذهبتُ إلى عبد الحقّ وأخبرتُه بالأمر فوافقني وأخبرني بأنّه هو أيضًا يفكّر في الرحيل إلى مكّة، لكنّه سيبقى بعض الوقت هنا حتى يرتّب أموره مع السلطان الذي لن يتركه يرحل بسهولة.

خرجنا، كما هي العادة، بعد صلاة الصبح وتكلّف أصحابي وطلبتي بخدمتنا، جزاهم الله خيرًا، فقطعنا الطريق حتى وصلنا إلى نابل، ثم سرنا في الطريق الساحليّة فمررنا بالحمّامات حتى وصلنا إلى مدينة سوسة، ثم تركنا الساحل باتّجاه القيروان التي وصلناها وأمضينا فيها أيّامًا وتبرّكت في الصلاة بمسجدها الذي بناه عقبة بن نافع رضي الله عنه. ومن غريب الموافقات أنّ أحد أبواب جامع القيروان يحمل اسم باب لالة ريحانة. وزرت قبر الصحابي الجليل عبد الله بن أبي زمعة البلوي. ومن القيروان قصدنا قابس فقطعنا أرضًا سبخة حتى وصلنا إلى الساحل على خليج قابس وأخيرًا وصلنا وجهتنا. نزلنا بعد التعب الشديد

بجوار مسجد الصهريج، وهو رباط بحري. وما إن نزلنا ورتّبنا أمر نزولنا حتى باشرتُ الخروج للخلوة. وكان أهل الله يزورونني. ومن هؤلاء الشيخ الصالح المبارك أبو إسحاق الورقاني، إذ قد وصلته أخباري وأنظامي. وصادف وصوله وصول الشيخ الصالح المبارك أبي عبد الله الصنهاجي مع جماعة من أصحابه بقصد زيارتنا. ولمّا حضروا كنت في الخلوة خارج المدينة فجلسوا ينتظرونني. دخلت إلى مسجد الصهريج فسلّمت على الحاضرين ثم صلّيت تحيّة المسجد وأقبلت على الفقراء. كانت آثار الدموع على خدّي فطلبت مدادًا ولوحًا وتأوّهت بزفرات كادت أن تحرق الجالسين. والزفرات من نعوت المحبّين وهي نار محرقة يضيق القلب عن حملها فتخرج تحت أثر الضغط، فيُسمع لخروجها صوت تنفّس شديد، كما يُسمع للنار صوت عند الاحتراق، وذلك ممّا يجده المحبّ من الكمد، وهو شدّة الحزن. وعادة لا يجري مع الكمد دمع إلاّ أنّ صاحبه يكون كثير التأوّه. وهذا الحزن مجهول ليس له سبب إلاّ الحبّ خاصّة وليس له دواء إلاّ وصال المحبوب. وقد حصل لي هذا مذ خرجت من تونس، ففقدت أنسي بمفارقة صاحبي عبد الحقّ وكَلِفْتُ بفتاة قيروانيّة كنت رأيتها مرّة في السوق فنظرتْ إليّ نظرة سلبت منّي الفؤاد واستلّتْ منّي الروح، إذ فيها شيء من نعيم الجنّة ومن عالم الفرح. لكن أنّى لمثلي أن يَخْفِرَ دواعي المروءة

بالتَّصَابي؟ فلمّا دخلت الخلوة كَنَسْتُ قلبي من كلّ الأغيار وتوجّهت بحبّي لربّي وجعلته قصدي. ولمّا أخذتُ الدواة واللوح كتبت بضعة أبيات منها:

لا تـلـتـفـتْ بـالله يـا نـاظـري لأهيفِ كالغُصُن النَّاضِر
يا قلبُ واصرفْ عنك وَهْمَ البقا[1] وخَلِّ عَنْ سِرْبِ حِمَى حَاجِرِ
مـا الـسِّـرْبُ والـبـانُ ومـا لَـعْـلَـعٌ ما الخيفُ ما ظبيُ بني عامر
جـمـالُ مَـنْ سـمَّـيـتَـهُ داثِـرٌ مـا حـاجـةُ الـعـقْـل بـالـدَّاثِـرِ

فأطرق الحاضرون من هذا الإملاء الإلهي والإلقاء الربّاني الذي حصل لي في الخلوة بهذه الأبيات.

وفي قابس أكملت نسخ كتاب **بدّ العارف** الذي كتبه لي الشيخ عبد الحقّ في بجّاية جوابًا عن السؤال الذي كنت قد سألته إيّاه. وكنت أخرج للخلوة إلى خارج المدينة لأنّ ساكنها أو طارقها لا يكاد يَخْلُصُ من حُمَّى العَفَن بوجه. والعامَّة يتداولون في سبب هذه الحمى أمورًا خرافيّة منها أنّه وقع فيها حفْر ظهر فيه طلّسم في إناء من نحاس مختوم بالرصاص. فلمّا فُضَّ خِتامُه صعِد منه دخان إلى الجوّ وانقطع. وكان ذلك مبدأ أمراض الحميّات في هذا البلد. والحقيقة أنّ هذا لا يعوّل عليه، وإنّما البلد به مياه راكدة

(١) وفي رواية: النَّقا، وهو دقيق القصب، قليل اللّحم، ولعلّه يتوافق مع وصف قَدّ ذلك الغصن الأهيف.

فإذا عدا عليها الماء حمل ما فيها من جراثيم وأوبئة فأصابت الناس بشَرِّها

بعد أن أمضيت عدّة أسابيع في قابس وصلتني رسالة من أحد الطلبة من تونس يخبرني بما جدّ منذ أن خرجنا منها خروجًا مباغتًا فبعد أن غادرنا أرسل ابن الرميمي زبانيته مع صاحب الشرطة إلى بيتي فلم يجدوا أحدًا سوى صاحب البيت الذي أجَّرَنَا إيَّاهُ، وسألوه عن وجهتنا فأخبرهم بجهله لهذا الأمر. ثم إنّ ريحانة كانت قد أعدَّت كتابًا لصديقتها تعتذر لها عمّا سبَّبته وتتمنّى أن تلتقيا مرّة أخرى. أمّا عن عبد الحقّ فبقي بجانب الأمير رغم اشتداد النكير عليه. *مكتبة الرمحي أحمد*

لم تكن قابس إلاّ مرحلة من مراحل وجهتي باتّجاه الشرق الذي كان يموج بصراعات أخرى. أعملتُ الفكرة مجدّدًا لمغادرة قابس باتّجاه طرابلس.

سلكنا مرّة أخرى الطريق الساحلي، وقطعنا عشر مراحل في أربعين يومًا، فمررنا بخليج بوغرارة المقابل لجزيرة جربة ثم بن قردان فزوارة فالزاوية حتى وصلنا أخيرًا إلى طرابلس.

طاب لي المقام في هذه المدينة فأهلها مسالمون مهادنون ويُعَوِّلون في أَمْنِهِمْ على جيرانهم من الموحّدين، ولمّا خَفَتَ نجم هؤلاء وضعوا ناصيتهم بأيدي الحفصيّين في تونس، ورثة

الموحّدين، فكانوا أقرب إليهم بحكم طبيعة البلاد. هذه البلاد صحراويّة في عمومها، فهي تختلف عن بلاد الأندلس والمغرب، إلاّ شريطها الساحلي قرب طرابلس فهو خصيب. لكنّنا عانَينا من رياح القبلي التي هبَّت علينا لمدّة ثلاثة أيّام بعد وصولنا مباشرة. وهذه الرياح الجنوبيّة حارّة وتحمل معها حبّات الرمل التي عمّت كلّ أرجاء منزلنا. لم تحتمل زوجتي هذا الجوّ الذي لم نعهد مثله في بلدنا. وممّا يقوله أهل البلد تَنَدُّرًا: إن هبَّتِ القبلي أربعين يومًا حملتِ الناقة دون أن يمسَّها الفحل. لكن جوَّ هذه البلاد صحّي على عكس جوّ قابس.

لقيت في طرابلس الاحترام والتقدير، وقدّمني أهلها في كلّ مجالسهم، وصرت حديث الصغير والكبير والعالم والمتعلّم. والناس هنا أهل فطرة، ويعظّمون العلم والعلماء. وليس فيهم طَنْزُ بلادنا وترفُّعُهُم، بل إنّ بداوتهم تجعلهم في غاية البساطة واللّطف على عكس أهل الأندلس. صرت أعطي دروسي كالعادة وأجيز الطالبين في الإجازة. كما كنت أعقد مع طلبتي مجالس السماع، فهام أهل طرابلس بهذا اللّون الجديد الذي لم يكن لهم به عهد، ووجدت فيهم خير من يحمله. وما من كبير أو صغير عندهم إلاّ ويحفظ أشعاري وأزجالي.

وبعد أن خَبَروا سيرتي تداولوا فيما بينهم لتوليتي قضاء البلاد

من دون استشارتي فأرسلوا إلى السلطان بهذا الشأن الذي كلَّف الوالي بإنفاذ الأمر. فلمّا جاءني الوالي وأخبرني بمهمّتي الجديدة حتى أتهيّأ لمقابلة السلطان الذي كان قد اعتزم زيارة إيالته في طرابلس، وَعَدْتُه خيرًا وأَضْمَرْتُ عقدي على مخالفة الأمر.

دخلتُ على زوجتي وأمّي وأخبرتهما بالأمر وكراهتي له تأسِّيًا بشيوخي، ابتداءً من ابن عسكر وأبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الذي رفض القضاء وتظاهر بالجنون، فكان يبيع الحلوى للأطفال ويتصدَّق بثمنها على الفقراء، إخفاء لحاله مع الله، والناس يظنّون به الجنون. وهل مَنْ به جنون من يقول مثل ما قال:

إذا نطقَ الوجودُ أصاخَ قومٌ ... بآذانٍ إلى نُطقِ الوُجودِ
وذاك النُّطْقُ ليسَ به انْعِجَامٌ ... ولكنْ دَقَّ عن فهْمِ البليدِ
فكنْ فَطِنًا تُنادَى مِنْ قريبٍ ... ولا تَكُ ممَّن يُنادَى مِنْ بعيدِ

فهؤلاء هم أهل السماع المطلق الذين يسمعون الوجود الحقّ من كلّ شيء وفي كلّ شيء ولكلّ شيء. فلمّا أعربتُ وأبنتُ عن رفضي المطلق لتولّي القضاء، وذكرتُ لهما نصيحةَ صاحبي عبد الحقّ بهذا الابتلاء وتحذيره لي من قبوله، تَكَلَّمَتْ والدتي وقالتْ لي لعلَّك تفعلُ مثلَ ما فعلَ أبو عبد الله الشوذي لكنْ بطريقة أخرى أصعب وأشدّ عليك، ولعلّ فيها كلّ الخير لك، إذْ بها تسقطُ من أعين الناس وترتفعُ في عين الحقّ؛ لكنْ يجبُ أن تَرُوضَ نفسَكَ

على هذا الابتلاء. فقلتُ مستعظمًا قولها، وماذا تقترحين يا أمّاه؟ فقالت: أرى أن تَحْلِقَ لِحْيَتَكَ وحواجبَك وتخْضِبَ أطرافَك بالحِنَّاء، وتَلْبَس ثيابًا مُعَصْفَرَةً ومزوَّقة كالبهلوان، فإذا أتى رسول السلطان بالبغلة لتحمِلَكَ إليه، تمشي على هذه الهيئة، فإنّه بمجرّد أن يراك على حالك سينعتُكَ بالجنون ويُعفيك من خطّة القضاء. فلمّا أنهتْ كلامها تدخَّلَتْ زوجتي وقالت: أمَّا أنا فلا أرى هذا الرأي لأنّ هذا من التَّمثيل بخلق الله، ولستُ مستعدَّة لأن أراك هكذا يا أبا الحسن. فقلت لها: إشفاقُكِ عليّ هو الذي دفَعَكِ إلى هذا القول، ولكنّي لا أرى حلاًّ آخر غير هذا للاستعفاء، فالقومُ قد أجمعوا أمرهم على توليتي القضاء ولستُ أجدُ ذريعة للخلاص أقوى من رأي والدتي. واعلمي يا صبح أنّ الضرورات تبيح المحظورات، وأنا مضطرّ لهذا الأمر ولن تمضي أيّام حتى ينبتَ شعْر حواجبي ولحيتي ويزول خضاب أطرافي، وليس هذا من التمثيل في شيء لأنّ أثره محدود بالوقت. وإنّ الذي أنطق والدتي بهذا الرأي هو الذي كان قد ألهمني إيّاه قبل أن أفاتحكما في الحديث. ففي الطريق إلى البيت التقيتُ أحدَ أعاجم المجاذيب فأخذني من لحيتي ثم قبض طرفًا من كُمِّ جبّتي وقال لي: أبهذا يُعبد الله؟ وتركني حائرًا في أمري وانصرف إلى حال سبيله وهو يقول: نلتقي في الشام، نلتقي في الشام، ثم أنشد:

آشْ عليّا من الناس    واشْ على الناس منّي

وكان على مثل الهيئة التي ذكرت والدتي، حليق اللحية والحاجبين، مخضوب الأطراف. والآن فهمت معنى قوله وتأكَّدَ لي الأمر حين اقترحَتْ والدتي أن أفعلَ بنفسي ما ذَكَرَتْ. فهذا من وقوع الحافر على الحافر، وهذا الفقير المتجرّد من أتباع القلندريّة. وقد عزمت على مثل هذا الأمر لمّا رأيت أحد أتباع الشيخ أبي مدين، وهو الشيخ أبو محمّد صالح يحثّ أصحابه على حلق الرأس واللحية ولبس الشاشيّة.

والرأي عندي أنّ تستعدًّا للرحيل، إذ لا أظنّ أنّ السلطان سيتركني أبقى في هذا البلد إذا رآني على تلك الحال، فلتكونا مستعدّتين للرحيل. غادرتهما وهيَّأت نفسي لهذا الامتحان الجديد واعتبرتُه مندرِجًا في أبواب عِلْمِ السَّفر الذي تحدَّث عنه قطبُ الدين عبد الحقّ.

ولم تمض أيّام قلائل حتى دخل السلطان طرابلس فهبَّ إليه الأعيان بالطَّلب بعد أن أعفى القاضي السابق لهَنَة وقعَتْ منه. أتاني الرسول ببغلة فركبتها وذهبت إلى السلطان الذي سامني بذلك على هذه الحال، فقال لرجاله: أخرجوه عنّي، فلا حاجة لنا بمثل هذا الأحمق، أخرجوه من هذه البلاد. كان ابن الرميمي جالسًا في حاشية السلطان، لكنّه لم يتعرّف عليّ وظنّني من هؤلاء المجاذيب فلم يُعرْني انتباهًا خرجتُ من عند السلطان وتحوّل عليّ الناس

فصاروا يشتمونني وينعتونني بالأحمق، وصار الأطفال يسخرون منّي. ولم أكن مشمئزًّا من هذا الوصف بل كنتُ سعيدًا به، وأضحكُ في قرارة نفسي من جَهْلِهِمْ بحالي، فكنتُ أقولُ لنفسي: بهذا يُعْرَفُ الله، ثم أُنشدُ غير آبِهٍ بإنكارهم واستغرابهم.

رَضِيَ المُتَيَّمُ في الهوى بجُنونِهِ ... خَلُّوهُ يفْني عُمْرَهُ بفُنونِهِ
لا تَعْذِلوهُ فَليْسَ يَنْفَعُ عَذْلُكُمْ ... لَيْسَ السُّلُوُّ عَنِ الهَوى مِنْ دينهِ
قَسمًا بمَنْ ذُكِرَ العَقيقُ مِنَ اَجْلِهِ ... قَسَمَ المُحِبِّ بِحُبِّهِ ويَمِينِهِ
مَالي سِواكُمْ غير أَنّيَ تائبٌ ... عَنْ فاتِراتِ الحُبِّ أوْ تَلْوينِهِ
مَالي إذا هَتَفَ الحَمامُ بِأَيْكَةٍ ... أَبدًا أَحِنُّ لِشَجْوهِ وشُجُونِهِ
وإذا البكاءُ بغير دمْعٍ دأبُهُ ... والصَّبُّ يجري دمعُه بعيونهِ

ثَمَّ قصدتُ بيتي حالاً ودخلتُ على زوجتي وأُمِّي فوجدتُهُما قدْ تهيَّأتَا للرحيل. أخبرتُ أصحابي بالأمر فتأهَّبُوا واستعدُّوا كما هو الشأن في كلّ مرّة أَمَرْتُهُمْ بذلك. إنّني ربَّان السفينة فإذا أمرتُ بنشْر القِلاع وهبَّت الرّيح الرُّخاء أقْلَعْنَا مِن مَرْسًى لآخرَ. وفي الصَّباح الباكر غادرنا طرابلس فابتلعَتْنا صحراءُ سِرْتْ، هذا الحاجز الذي يفصل غرب هذه البلاد عن شرقها، ويجعلها تترنَّح دائمًا بين مغرب ومشرق. ولو أحْسَنَتْ لجَمَعَتْ بين الأمرين.

## ٢٥

دفعنا في هذه الصحراء التي تجاور الساحل من جهة الشمال، وكانت السفرة شاقّة متعبة. وقد كان الأمر ميسّرًا في السابق لكثرة المراحل بين طرابلس ومصر، والتي كانت تبلغ خمسًا وأربعين مرحلة، والعمارة متّصلة والقوافل تمشي فيها ليلاً ونهارًا وكانت هذه المراحل حصونًا متقاربة جدًّا. فإذا ظهر في البحر عدوّ نوَّر كلّ حصن للحصن الذي يليه واتّصل التنوير، فينتهي خبر العدوّ من طرابلس إلى الإسكندريّة في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من اللّيل، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوّهم. لكنّ الأعراب قد خرّبوا هذه الحصون منذ قرنين من الزمان، أيّام خلّى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب.

ولحسن الحظّ، كان الطلبة يقومون بالخدمة أحسن قيام فيسقون رواحلنا ويطعمونها، ثم يهيّئون لنا الخيام للراحة والنوم، ويتناوبون على الحراسة، حتى قطعنا حاجز هذه الصحراء الكبيرة ووصلنا إلى بلاد مصر والناس في جلبة وحركة غير عاديّتين. فالأيوبيّون في حالة

تفرّق وضعف بعد وفاة الكامل محمّد عام ٦٣٥ هـ، والصليبيّون قد أجمعوا أمرهم على إضعافهم ومهاجمة مصر، ثم بعد ذلك مهاجمة الشام. لكنّهم كانوا يفتقدون إلى قائد صليبي يجمع كلمتهم كما كان الأمر سابقًا مع حملة ريتشارد قلب الأسد، وحملة فريديريك الثاني. ففرسان الداوية كانوا يرون ضرورة التحالف مع الصالح إسماعيل في دمشق، وفرسان الإسبتار كانوا يؤيّدون الصلح مع الصالح أيّوب في مصر. ثم طرأَتْ أحداث كان من أشدِّها على المسلمين تسليمُ الصالح إسماعيل بيتَ المقدس وطبريّة وعسقلان وسائرَ بلاد الساحل، ممّا أَحْنَقَ عليه الناس. وشنَّع عليه العزّ بن عبد السلام تصرُّفَهُ وقَطَعَ الدعاءَ له في الخطبة، فاضطرَّهُ إلى مغادرة البلاد إلى مصر. واستنجد الصالح أيّوب بالخوارزميّين فاقتحموا بيت المقدس وأخرجوا الصليبيّين منه نهائيًّا واستتبَّ الأمر لفائدته بعد معركة أَرِبيا التي قُتِلَ فيها الصليبيّون شرَّ قِتْلَة، وأدَّت إلى تغيُّر جميع التوازنات والأحلاف السياسيّة السابقة.

وصلنا إلى القاهرة في هذه الأجواء المضطربة. وهي مدينة عظيمة بناها الفاطميّون الذين أتوا من المغرب. وقد أخبرني عن قصّة بنائها أبو يعقوب بن مبشر، وهو أحد طلبتي الذي كان يسكن بحارة زويلة في القاهرة. قال: يذكر أصحاب الشأن أنّه عند بدء بنائها وقف المنجّمون المغاربة يتشاورون فيما بينهم لتحديد موعد بدء العمل، وكانت الأجراس معلّقة على الحبال الممتدّة من عمود

لآخر، وذلك انتظارًا للموعد الذي يحدّده أولئك الحكماء لإعطاء الانطلاقة حتى يبدأ العمّال، إلاّ أنّ شيئًا ما قد حدث أصاب الجميع بالدهشة والذهول، إذ وقف طائر على طرف أحد الأعمدة، فأخذَتْ جميع النواقيس تَدُقُّ، ومن ثَمَّ بدَأَتِ المعاولُ تَحْفِرُ، ولحظةَ دَقَّتِ الأجراسُ، كان كوكب المرّيخ في صعود، ومن أسمائه القاهر، فسمّوها القاهرة. فقلت له: أَمَا كان الأَوْلَى أن تسُمّى باسم ذلك الطير الذي كان هو من أعطى بداية الانطلاق في أشغال البناء. فقال لي: لربّما عَدِموا آنذاك من يقترح عليهم هذا الاقتراح.

ثم أضفت: أمّا تسميتها بالقاهرة، فصفات القهر من صفات الجلال التي اختصّ بها الحقّ سبحانه. على كلّ حال، فإنّ هذه الحاضرة الإسلاميّة قد أبلتْ بلاء حسنًا منذ أن أعطى ذلك الطائر الميمون انطلاقةَ بنائها، ولهذا ترى أهلها دائمًا على جناح طائر فيما يعرض لهم من القضايا.

وطَّنتُ النفس على الجهاد في سبيل الله. نزلنا قريبًا من المسجد الأزهر في أحد الخانات، ريثما أجد منزلاً لأهل بيتي الذين أعجبتهم المدينة العظيمة بأسواقها الكثيرة التي لا توجد مثيلتها في مكان آخر. فهناك سوق الصبّاغين والخرّاطين والخيميّين والخشّابيّة، والخلعيّين والحدّادين والحجّارين والقصّارين

والفحّامين والغرابليّة والمنخليّين والسرّاجين والشمّاعين والبزّازين، وباعة الثياب، والأكفانيّين والحلاويّين والكعكيّين والعطّارين، وقيساريّة العنبر وسوق الحرير، وقيساريّة الصناديقيّين وسوق الطيوريّين والوزّازين والدجّاجين، والكفتيّين، الذين يكفتون الأواني النحاسيّة بمختلف النقوش المحفورة، وسوق الكتبيّين، وسوق الرقيق ويُسمّى دَكّة المماليك. وبهذه المدينة أنواع الملاهي والمغاني، والناس لا يتحرّجون هنا من فعل ما يروق لهم، بل إنّ الدولة تتقاضى الرسوم والضرائب، ويسمّونها الضمان، حتى على بعض المهن المحرّمة كالبغاء. كانت مظاهر هذه الحياة تجذب الناس من مختلف البقاع، وكلٌّ يَأْنَسُ إلى ما يُشاكِلُه. وفي هذه المدينة من أنواع التناقضات ما يحار العقل فيه، فتجد الشيء ونقيضه متجاورين، والناس لا يلتفتون لذلك ولا يجدون غضاضة فيه. بل هم من أهل الوسع، ولا تضييق عندهم. وهذا من علامات الحضارة وتراكم التقاليد والعادات وتجارب كلّ الأجناس والأعراق والأديان. ولأهل مصر اعتقاد كبير في الوافدين عليها وخاصّة من صلحاء المغرب؛ فأكثر أولياء البلد من أهل المغرب، ولهم بهم عناية كبيرة، ويُقيمون لهم الأضرحة الرفيعة والمساجد الجليلة، تعظيمًا للحرمات واهتبالاً بها. ويسكن هؤلاء الفقراء في الخوانق والربط. وهؤلاء خمسة أنواع؛ فهناك الملامتيّة والصوفيّة والمتصوّفة والمتميّزة والظرفاء. وسكّان الخوانق هم الصوفيّة لا

غير. أمّا المتصوّفة فيتكلّمون في أذواق القوم ويلبسون ما وجدوا ويتسبّبون ولا يُرَتِّبونَ في الرُّبُطِ. والمتميّزة يلبسون الثياب الفاخرة على هيئة معلومة ويعيشون بالسؤال وبخدمة أبناء الدنيا. أمّا الظرفاء فصنف من المتميّزة. وأمّا الملامتيّة فهم أحسن القوم وأعلاهم في المرتبة. وهناك القلندريّة، ولهم زاوية خارج باب النصر من القاهرة من الجهة التي فيها التُّرَبُ والمقابر التي تلي المساكن، أنشأها الشيخ حسن الجوالقيّ القلندريّ، أحد فقراء العجم. وتُسمّى القلندريّة نفسها ملامتيّة. كما لأهل مصر عناية بالعلماء حيث أقاموا لهم المساجد والمدارس يدرسون فيها. ومن أشهرها جامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون وقبّة الشافعي، ودار الحديث الكامليّة والمدرسة الفاضليّة والصالحيّة.

كان الفقراء في خانقاه سعيد السعداء وغيرها من الخانقوات قد أعلنوا النَّفير ضدّ الصليبيّين. فقد جاء ملك فرنسا لويس التاسع واحتلّ دمياط التي كانت نقطة ارتكازهم دائمًا لاحتلال مصر. ولم يكن بمقدور الصالح أيّوب أن يَرُدَّهُمْ بسبب إصابته بداء السُّلِّ، رغم أنّه حصَّن المدينة لعلمه باعتزام الصليبيّين القيام بحملة لمهاجمة مصر. وعلى إثر احتلال دمياط صار الملك الفرنسي يتشوَّف لاحتلال القاهرة، أمّا الصالح أيّوب فقد شنقَ مجموعةً من رجاله لتركِهِمْ مواقعَهُم الدفاعيّة. واشتَدَّ به المرض وأَصَرَّ أن يُحمَلَ

على مِحَفَّةٍ إلى المنصورة ليُشرِفَ على تنظيم الجيش بنفسه ثم أرسلَ في طلب الإمدادات من القاهرة. وأعلنَ الأئمّةُ في المساجد الدعوةَ للجهاد، وأمر أبو الحسن الشاذلي أصحابَه وأتباعَه بالجهاد. ووصلتني الدعوة من أبي الحسن الشاذلي حين كنتُ أجتمع بالفقراء والمريدين والأصحاب في الأزهر، أو قربَ باب زويلة في القاهرة عند أبي يعقوب بن مبشر. وقرّرت بناء رباط للجهاد ضدّ الإفرنج في دمياط مع جماعات الفقراء وفيهم الكثير من القلندريّة. ومن بين تلامذتي المصريّين، إضافة إلى أبي يعقوب ابن مبشر، الشريف عبد العزيز المنوفي وعبد الغفّار القوصي. وكان هذان لا يفترقان، وللأوّل منهما على الثاني حظوة ومكانة. كان الشاذلي مستقرًّا في الإسكندريّة إلاّ أنّه كان يقوم ببعض الزيارات إلى القاهرة لملاقاة أصحابه أو المشاركة في الجهاد ضدّ الصليبيّين. كنّا نجتمع قرب هذا الباب الذي سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة من البربر في المغرب انضمَّ جنودُها إلى جيش جوهر الصقلي لفتح مصر. وللباب برجان مُقوَّسان عند القاعدة، ولكنّهما أكثر استدارة. وعلى مدخل الباب مُحَصِّلُ ضريبةِ الدخول إلى القاهرة، ويسمّونه متولّي باب زويلة إلاّ أنّه كان لا يأخذ من أصحابنا. يحتوي الباب على فتحات تُسمّى «سقّاطات» لصبِّ الزيت المغلي على الأعداء أثناء الحروب. ولا يكاد المرء يحسّ بالملل عند هذا الباب إذ تُعَلَّق عليه رؤوس المتمرّدين. ومن

عقوباتهم الجسيمة التي كانت تُنَفَّذُ عند هذا الباب التَّوْسِيطُ وهو أن يُعَرَّى المحكوم من الثياب ثم يُشَدُّ إلى خشبةٍ مَطْرُوحَةٍ على الأرض، ويُضْرَبُ بالسيف تحت سُرَّتِهِ ضربةً قويّةً تَقْسِمُ جِسْمَهُ نِصْفَيْنِ فَتَنْدَلِقُ أمْعَاؤُهُ على الأرض.

كما أنّ النساء اللاّتي لا ينجبن يعلّقن خيوطًا على مسامير الباب رجاء أن يرزقهنّ الله بالولد. كنّا نجتمع في هذا الباب لمواساة الناس والاعتبار بالدنيا الفانية. كما كنّا نقوم بواجبنا في صدّ الناس عن بعض المنكرات التي كان يتعاطاها بعض مَنْ عَدِمَ الرجاء والأمل، فيعاقر الدنان ويدخّن الحشيش. وكان باب زويلة أحد مناطق اجتماعهم مع جنينة الطبّالة في القاهرة. فلا يمضي شهر إلاّ وتهرق جرار الخمر ويحرق الحشيش. رجال تعلَّق رؤوسهم ونساء يطلبن الولد ويعلِّقن خيوط الأمل، وآخرون يغرقون في دنان الخمور ودخان الحشيش. الموت والحياة عند باب زويلة، فهل يتفكّر الناس في الزوال عن نفوسهم وقَطْعِ رؤوس كبريائهم وتعليق مسامير رجائهم على جدار قلوبهم. هذه كانت وظيفة الفقراء في هذا الباب، الذي يجمع بين الموت والحياة في لحظة واحدة. حبالٌ للحتف وخيوطٌ لِلُّطف.

طلبتُ من أصحابي الانضمام لهذه المعركة الفاصلة بين الغزاة والمسلمين، والفوز بالشهادة. وبدأنا نستعدّ للمواجهة بعد أن

وَصَلَتِ الإمدادات إلى المعسكر الإفرنجي. وُزِّعَتْ علينا الأسلحة بحسب دُرْبَةِ كلّ واحد على استعمال السلاح الذي يحسنه، والغالبيّة كانوا يحسنون المسايفة، فَوُزِّعَتْ عليهم السيوف الإناث أو السيوف الفولاذ، بحسب قوّة الرجل ومقامه. والبعض الآخر، وهم قلّة كان يحسن الرماية، فوُزِّعت عليهم الأقواس والسهام والتحقوا بصنف النَّشَّابة. وكانت الأقواس مصنوعة من خشب النَّبْع، لَيِّنَةً ومتينة. بل كان أحد أصحابنا من أمهر الرماة، فأُعطي له القوس العربيّة أو قوس الحسبان كما تُسمّى، لأنّها ترمي أربعة أو خمسة أسهم في الوقت نفسه. والبعض الآخر وُزِّعت عليه الرماح، وهي على صنفين، القَناة وهي من خشب الزَّان أو الشَّوْحَط، وفي طرف منها السِّنان، وفي الطرف الآخر الزَّجّ، وهي حديدة مستديرة تساعد على تثبيته في الأرض أو الطعن به. والنوع الثاني هو الخَطل ويستعمله الفرسان لطوله. وبجانب هذه الأسلحة وُزِّعت علينا دُروع من الزَّرد أو تُروسٌ من جِلْد أو خشب أو حديد، إضافة إلى الخُوذَات لحماية الرأس. أمّا الجيش النظامي، فإضافة إلى هذه الأسلحة، فإنّ بعضهم كان مُكَلّفًا بالأسلحة الثقيلة كإدارة المنجنيق أو الدَّبَّابَة لهدم الحصون وفتْحِ الثَّغرات فيه، وعادةَ ما تُغَطَّى الدبّابات بالجلد واللُّبود، وتُنْقَعُ بالخَلِّ لمَنْعِ احْتِرَاقِها وهناك أيضًا رأسُ الكبش، وهو مثل الدبّابة فيه عمود أفقي من الخشب يُرَكَّبُ فيه رأس كبش من الحديد أو الفولاذ. ويعملْ

الرجالُ على دفع العَمود لتهشيم حجارة الأسوار. كما أنّ هناك من هو مكلفّ بسلالم الحصار.

انحسرت مياه النيل التي كانت تمنع الجيوش الغازية من التحرّك. تحرَّكْنا نحو المنصورة التي كانت عند نقطة التقاء الذراعين الشرقيّين لنهر النيل. وقد بنى الملك الكامل هذه القلعة لحماية القاهرة وسمّاها المنصورة تيمّنًا بحصول النصر وكان من السهل منعُ وصول الجيوش الغازية بفَتْحِ التُّرَعِ وتَرْكِ الماء يفيض عليهم. خرج الجيش الصليبي وسلك طريقًا كثير التُّرع وعليه الكثير من القنوات وفروع النيل وكان أكبر تلك الفروع البحر الصغير أو جزيرة دمياط، وهو عبارة عن مثلّث تقع المنصورة في رأسه من جهة الجنوب الغربي. كان رجالي ضمن فرق المتطوّعين مع باقي الفقراء، وفيهم الكثير من أهل المغرب والأندلس. كان هؤلاء هم الهشيم الأوّل الذي يضرم المعركة، إذ لم يكونوا يهابون الموت ويرغبون في الشهادة. وكان القادة العسكريّون يدركون هذا فيجعلونهم في مقدّمة الجيوش لإلهاب حماسة باقي الجيش والتيقّن من اندفاعه واستبساله في هذه المعارك التي تعتمد على العنصر البشري وقوّته النفسيّة. وكان الرباط الذي بنيته بقصد جهاد الإفرنج الغزاة عامل حسم في إعاقتهم.

وقفنا في معسكر أمام المنصورة ننتظر، وأرسل الوزير فخر

الدين يوسف وحدات خفيفة من الفرسان لمناوشة جيش الصليبيّين وإلحاق الخسائر بهم ثم الفرار. كانت هذه العمليّات تعرقل تقدّم الجيش الصليبي عند عبور كلّ قناة، وتنال من معنويّاته. خصوصًا أنّ فرسان الإِسْبِتَار والدَّاوِيَة والتُّوتُون كانوا مُدَجَّجِينَ بالسلاح والحديد. وهذا كان يعرقل حركتهم وسرعتهم. ورغم كلّ الإعاقة فقد استمرّ جيش لويس التاسع في التقدّم حتى عَسْكَرَ على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة. ثم عبر أخيرًا بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون بمساعدة أحد الأقباط. ولم يكن أمامنا وقت لإعادة تنظيم الهجوم ومات منّا عدد كبير وقعوا في كمين نصبه فرسان الداوية، وهرب آخرون إلى المنصورة ليحتموا داخل أسوارها لكنّ زعيمهم اغترَّ بنصره هذا فهاجم المنصورة قبل أن يلتحق بهم الملك وبقيّة الجيش الصليبي. دخل الفرسان الصليبيّون من أحد أبواب المدينة، الذي تركه ركن الدين بيبرس مفتوحًا، ووزَّع رجاله على نقاط التقاطع في شوارع المنصورة. تدفّق الفرسان مُنتشين مُغترِّينَ حتى وصلوا إلى أسوار القلعة فانقضضنا عليهم كما ينقضُّ السبع على فريسته فاضطربوا واختلَّت صفوفهم ولم ينْجُ منهم إلاّ آحَادٌ. كانت هذه المعركة مقبرةَ الجيش الصليبي إذ كُسِرَتْ مُقدِّمته التي طالما اكتوَتْ منها جيوش المسلمين. أصابتني بعض الجروح واستُشهدَ بعض أصحابي فحزنتُ لذلك، ثم دفنَّاهم في قبر واحد وصلّينا عليهم.

أمّا ملك الفرنج فقد جَزِعَ لموت فرسانه وخَشِيَ من هجومنا عليه فقوّى دفاعات جيشه، ثم أقام جسرًا من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله ثم وَزّعَ رُماتَه على الطرف البعيد للنهر حتى يكْفَلوا الحمايةَ للجند عند عبورهم. لكنّنا هاجمناهم مرّة أخرى في معسكرهم فصدُّونا واضْطرُّونا إلى التراجع نحو المنصورة.

بقيتِ الحالة كما هي عليه بدون نصر حقيقي لأحد الطرفين حتى سمعنا بموت السلطان الصالح أيّوب وإعلان ابنه توران شاه خلفًا له. وقد توفّي السلطان قبل مدّة لكن زوجته شجرة الدرّ أخفت الأمر وساستِ الأمور مع الوزير فخر الدين يوسف حتى وصل ابن السلطان توران شاه من الشام. لمّا سمع الناس بوصول السلطان الجديد ارتفعت المعنويات عند الجيش وأهل مصر وبقينا نتربَّص بالصليبيّين زهاءَ ثمانية أسابيع بين كرٍّ وفَرٍّ لإضعاف معنويّاتهم، وانتظار أن تقِلَّ مؤونتُهم وتفتِكَ بهم الأمراض.

اجتمعت بأبي الحسن الشاذلي في المنصورة الذي كان مع مجموعة من أصحابه وفيهم العزّ بن عبد السلام وابن الصلاح وابن الحاجب وعبد العظيم المنذري وابن عصفور وابن سراقة الشاطبي وغيرهم من نجوم العلم، فكنّا فرسانًا بالنهار، رهبانًا باللّيل. وكان البرنامج العلمي الذي نتدارسه في لحظات الهدنة حافلاً مثل كتاب

**ختم الأولياء** للإمام الترمذي، **وقوت القلوب** لأبي طالب المكّي، **والإحياء** للإمام الغزالي، **والرسالة** للقشيري، **والشفاء** للقاضي عيّاض، **والمحرّر الوجيز في التفسير** لابن عطيّة. ومثل هذه الكتب كانت تشحذ هممنا لجهاد الإفرنج بالنهار، والقيام للذكر والعبادة باللّيل. وقد قصّ علينا الشاذلي رؤيا رآها، فقال: أبشروا يا إخواني، إنّه لمّا كان يوم الثامن من ذي الحجّة رأيتُ فسطاطًا واسع الأرجاء، عاليًا في السماء، يعلوه نور ويزدحم عليه خلق من أهل السماء، وأهل الأرض عنه مشغولون، فقلت: لمن هذا الفسطاط؟ فقالوا: لرسول الله ﷺ. فبادرت إليه بالفرح ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحوًا من السبعين. وأردت التقدّم فألزمت نفسي التواضع والأدب مع الفقيه العزّ بن عبد السلام، وقلت: لا يصلح لك التقدّم قبل عالم الأمّة في هذا الزمان، فلمّا تقدّم وتقدّم الجميع، ورسول الله ﷺ يشير إليهم يمينًا وشمالاً أن اجلسوا وتقدّمت، وأنا أبكي بالهمّ والفرح. أمّا الفرح فمن أجل قربي لرسول الله ﷺ، بالنسب، وأمّا الهمّ فمن أجل المسلمين والثغر، فمَدَّ يده حتى قبض على يدي، وقال: لا تهتمّ كلّ هذا الهمّ من أجل الثغر، وعليك بالنصيحة لرأس الأمر، يعني السلطان. ثم قال ﴿وَمَنْ يتولَّ اللهَ ورسولَه فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُون﴾. ثم قال: وأمّا السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما وَالَى أهلَ ولايته ونصحَ المؤمنين من عباده، فانْصَحْهُ واكتبْ له،

وقُلْ في الظالم عدوّ الله قولاً بليغًا: ﴿واصبرْ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، ولا يَسْتَخِفَنَّكَ الذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾. فقلت: نُصِرْنَا وربِّ الكعبة وانتبهت. فقلت لأبي الحسن الشاذلي: وهل كنتُ ضمنَ السبعين يا إمام؟ فقال لي: وكيف لا، وكذلك صاحبُك ابن سبعين. خرجتُ من عند أبي الحسن مُبْتهِجًا مسرورًا، وأبلغتُ أصحابي بهذه البشارة.

كان أوّل عمل قام به توران شاه بناء مجموعة من السفن الصغيرة التي تعترض سفن الصليبيّين التي تحمل لهم المؤن من دمياط، نقَلَها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المختلفة، فقطع بهذا العمل إمدادات العدوّ وقطع الطريق أمام تواصلهم مع قاعدتهم في دمياط. كان لهذا القرار الحكيم دور كبير في حصار الجيش الصليبي، فلا هو يستطيع التقدّم أو التقهقر حتى طمِعَ فيهم الجيش الإسلامي. وأراد لويس التاسع التفاوض لكنّه كان في وضع حرج جدًّا وليس لديه ما يقدّم فقرّر الانسحاب إلى دمياط، لكنّه كان في حقيقة الأمر هروبًا ورغم شجاعة لويس التاسع فإنّنا طاردناهم وأعملنا فيهم السيف فوقع جيشه تحت الأسر أو القتل أو الجراح. وأسرنا الملك نفسَه وسقناه مكبّلاً إلى المنصورة. وحصل أمر لم يكن في الحسبان، وهو أنّ توران شاه لم يكن رجل المرحلة رغم هذا الانتصار لأنّه جاء برجاله من الشام فوضعهم في المناصب المهمّة، وأغاض باقي المماليك

الذين كان لهم فضل كبير فيما أبلاه مماليك أبيه. احتجَّ هؤلاء على هذه القرارات لكنّه بدل أن يُصلح الأمور اعتقلهم وجرَّدهم من كلّ سلطة، كما تنكّر لشجرة الدرّ التي حفظت له مُلكَه واتّهمها بإخفاء ثروة أبيه، وهدَّدها، لكنّها بثَّتْ شكواها لرجالها من المماليك البحريّة الذين ظلّوا على إخلاصهم لزوجة أستاذهم[١]

ومن حماقات توران شاه عزمه على التخلّص من المماليك البحريّة، إلاّ أنّ هؤلاء تغذَّوا به قبل أن يتعشَّى بهم بمساعدة شجرة الدرّ. وكان على رأس هؤلاء أقطاي وبيبرس وقلاوون وأيبك، فاتّفقوا على قتله فدخل عليه بيبرس في خيمته وضربه بسيفه ثم أضرموا النار في البرج الذي هرب إليه فاشتعلت ثيابه وألقى بنفسه في الماء إلاّ أنّ بيبرس لحق به وأجهز عليه بسيفه.

---

(١) كانت العلاقة بين المملوك وسيّده تُسمّى في الاصطلاح الرسمي المملوكي، بالأستاذيّة. أمّا رابطة الزمالة فتُسمّى الخوشداشيّة. وقد قامت دولة المماليك على عمق هذه الروابط.

## ٢٦

بمقتل توران شاه، كانت نهاية حكم الأيّوبيّين في مصر، حيث لم يكن بينهم زعيم في مصر وأمام شُغُورِ السلطة قامتْ دولة المماليك الذين وضعوا على رأس دولتهم شجرة الدرّ. وهي جارية من أصل تركي اشتراها الصالح أيّوب لتكون محظيّتَهُ ثم ما لبث أن أعتقها وتزوّجها

وهي أوّل امرأة تحكم بلاد المسلمين، ممّا حدا بالخليفة العبّاسي المستعصم أن ينتقد المماليك على تولية أمورهم امرأة. ولم يكن أمامهم من حلّ سوى أن يُزوِّجوها أحدَهم، وهو الأمير عزّ الدّين أيبك، وتتنازلَ له عن الحكم. أمّا في الشام فقد استمرّ حكم الأيُّوبيّين الذين اعتبروا ما حصل في مصر ثورة لا يمكن السكوت عنها، ورفضوا أن يعطوا ولاءهم لشجرة الدرّ. وكان العُرف منذ صلاح الدّين أن يتزعّم سلطان مصر باقي الأمراء الأيّوبيّين. ومرّة أخرى تجدَّدت المنافسة بين مصر والشام. خلال هذه الأوقات العصيبة اعتكفتُ في الأزهر تاركًا الناس يصارعون

من أجل حظوظ فانية. وأسكرتني خمرة المعرفة والمحبّة فكنت أنشد:

ما نَجِدْ خليعًا مثلي حرَّقَتْهُ الكَاس والأدنان
مُعتكف في جامع أزهر مختلي في شِقّ ثعبان
وبَقِيتْ عَاشق مُهَتَّكْ نَنْظَمْ الزَّجل والأوزان
وفي محرابي إبريقي فيه خمره معنويّا
وجعلت السكر دأبي وهوَيتُ العِشق غيّا

زحف الأيّوبيّون على مصر، فوضع السلطان أيبك البلاد تحت سلطة الخلافة العبّاسيّة. واستنجد الأيّوبيّون بالملك لويس التاسع، لكنّه بقي على حياده مخافة أن يبطش المماليك بالأسرى النصارى الذين في حوزتهم. ونشبت الحرب بين الفريقين وانتصر المماليك وعاد الأيّوبيّون إلى الشام.

لكنّ الخطر الأكبر الذي كان يتهدّد الجميع هم المغول. تصالح أيبك مع الناصر يوسف الأيّوبي، بِسعْيٍ من الخليفة المستعصم، لردّ هذا الخطر الذي لا يُبقي ولا يذر.

عزمت مرّة أخرى على السياحة وتحقيق حلم السفر بعيدًا عن أجواء الاختناق والصراع في القاهرة بين المتصارعين على السلطة. وكنت أَرومُ أداء فريضة الحجّ والمجاورة في الحرم المكّي، لكنّ الأوضاع المضطربة كانت تحول دون تحقيق هذا

المراد. لقد انتهى حكم الأيّوبيّين في مصر وانحصر في الشام، والصليبيّون ما زالوا يؤمّلون احتلال هذه البلاد. وكلّما انحسَرتْ قوّتهم جاءتهم الإمدادات من بلادهم، أمّا المغول فهمجيّة لا يُقاس عليها.

كنت أجتمع كثيرًا بإخواننا من الشاذليّة، وخاصّة بالشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي صار له أتباع في كلّ البلاد المصريّة، من الإسكندريّة إلى أسوان. أمّا عبد الحقّ بن سبعين فقد كاتبني وأخبرني بقرب وصوله إلى القاهرة بسبب تأليب المترسّمة للعامّة عليه. وتكثر مثل هذه الدَّعَاوَى في الأوقات العصيبة فيطاوعُ الحكّام أصحابَها رجاءَ الْتِفَافِ الناس حولهم. لم أكن أتكلّم في علم التحقيق على طريقة ابن سبعين لما في ذلك من الغَوْر والبعد عن أفهام عامّة الناس، لكنّي كنت أسلك مسلك أهل السماع فأنشد الأشعار والأزجال والبَرَاوِلَ التي تحمل هذه المعاني العظيمة في عبارة بسيطة قريبة المأخذ يفهمها كلّ أحد. وممّا عمَّق هذا التوجّه الجديد نحو تبسيط الحقائق اجتماعي بالسادة الشاذليّة والشيخ أبي الحسن الشاذلي المغربي. دخلت عليه ذات يوم في مجلسه فرأيت رجلاً آدم اللّون، نحيف الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين كأهل الحجاز. وكان فصيح اللسان، عذب الكلام، ضعيف البصر. فلمّا رآني بشَّ في وجهي وعانقني قائلاً: أهلاً بأخينا وسمِيِّنا الأندلسي. ثم دخل

علينا رجل من أصحابه وسلَّم فَرَدَّ عليه بعض أصحاب الشيخ، أمّا هو فلم ينظر إلى جهته. لكنّ الرجل جاء إلى الشيخ ليقبّل يده فسحبها منه بقوّة، وقال له: أرضيتَ أن تكون من القاعدين يا ابن المنير؟ فقال: أرجو من الشيخ أن يعذرني، فقد كنت مشغولاً بتأليف في الردّ على كتاب **الكشّاف** للزمخشري، وقد خشيت أن أستشهد في جهاد الفرنسيّين في معركة المنصورة قبل أن أُنهي هذا التأليف. فقال له أبو الحسن الشاذلي: ولو أنّ هذا التأليف نافع بإذن الله للردّ على الشبهات الواردة في **الكشّاف**، إلاّ أنّ أمر جهاد الفرنسيّين أولى في الوقت. فقال ابن المنير لقد استفتيتُ قلبي فتقوَّى عندي القعود على الخروج، وأرجو أن يغفر الله لي. فقال الشاذلي: لا تعد لهذا، فإنّي كنت قد أعلنتُ النَّفير في كلّ أصحابي للخروج لجهاد هؤلاء الغرباء، ولم يتخلّف غيرُك، وأسأل الله لك المغفرة وأن ينفع بكتابك. ثم توجّه الشيخ إلى بعض خاصّته وقال: ألا رجل من الأخيار يعْقِلُ عنّا هذه الأسرار، هلُمُّوا إلى رجل صيّرهُ الله بحر الأنوار. فلمّا باح بهذه الكلمات غرِقْتُ في محبّته وأنواره، وفهمت عنه أنّه يقصدني. ثم كلّمني عن شيخه الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش، وأنّ فتْحه كان على يديه، وإليه ينتسب. وقد ذكر لي أنّه دخل العراق بحثًا عن القطب، واجتمع بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فقال له ارجع إلى بلادك تجده، فكان ذلك سبب اجتماعه بالشيخ ابن

مشيش. ثم سألته عن سرّ انتسابه إلى شاذلة مع أنّه من المغرب، فقال لي: يا أخي أقول لك ما قال أديب الزمان أبو العبّاس بن العريف «ليس بينه وبين العباد نسب إلاّ العناية، ولا سبب إلاّ الحكم ولا وقت إلاّ الأزل». ومع ذلك فقد سألت ربّي هذا السؤال نفسه، وقلت له: يا ربّ لِمَ سمّيتني الشاذلي ولست من شاذلة، فقيل لي: يا عليّ ما سمّيتك بالشاذلي، وإنّما أنت الشَّاذُّ لِي، يعني المُفردُ لخدمتي ومحبّتي. ثم سألت أبا الحسن الشاذلي عن سرّ إقامته بمصر فقال لي: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا عليّ انتقِلْ إلى الديار المصريّة تُرَبّي بها أربعين صِدّيقًا فاشتكيت له من الحَرّ، فقال لي: الغمام يُظِلُّكم والسماءُ تمطركم. فهذا سبب مجيئي لمصر وقد عزمت هذا العام على الحجّ فهل تنضمّ إلينا يا شِشتري؟ فقلت له: ذاك قصدي، لكنّي سمعت أنّ السلطان لن يجهّز ركب الحاجّ هذه السنة لخطورة الطريق وتربُّصِ النصارى بالحُجَّاج. وقد أفتى القاضي عزّ الدين بن عبد السلام بعدم جواز السفر على الغرور وعَدَمِ إشغال الجيش هذه السنة. فهو متربّص لحماية البلاد من الغزو ولا يمكن تصريفه مع الحجّاج خشية إضعاف الثغور. فقال أبو الحسن الشاذلي: لقد سمعت هذه المقالة، وجئت إليه لأكلّمه اليوم بعد صلاة الجمعة. فهل ترافقني؟ فقلت: أجل.

ذهبنا للجامع وأدَّينا الصلاة ثم اجتمعنا بالقاضي عزّ الدين بن

عبد السلام فقال له أبو الحسن الشاذلي: يا فقيه، أرأيتَ لو أنّ رجلاً جُعِلَتْ له الدنيا خطوةً واحدة، أَيباحُ له السفر في المخاوف أم لا؟ فقال العزّ من كان بهذا الحال فخارج عن الفتوى. فقال أبو الحسن: أنا بالله الذي لا إله إلاّ هو ممّن جُعِلَتْ له الدنيا خطوة واحدة. فإذا رأيتُ ما يخوِّفُ الناس أتخطَّى بهمْ حيثُ آمَنُ، ولا بُدَّ لك من المقام بين يدي الله عزّ وجل، وتسألني عن حقيقة ما قلتُ.

ثم خرجنا من عنده وقد أخذنا الإذن بالحجّ. وحملتُ أهلي معي فوالله ما رأيتُ أيسر من هذه السفرة. وحتى اللّصوص كانوا يأتون لنَهْبِنَا ليلاً فيجدون مثل السُّور حائلاً بيننا وبينهم، ولا يستطيعون الخروج من الركب. فإذا أصبح الصباح يأتون إلى أبي الحسن ويتوبون إلى الله تعالى. أدَّينا الفريضة وزرنا القبر النبوي الشريف وحصَلَتْ لنا أمور عجيبة، وجُلْتُ في بلاد صاد ودخلتُ أرض السمسمة.

وممّا باحثت الشيخ أبا الحسن بشأنه، في عرفة، قضيَّة دائرة الإحاطة، فقلت له: يا سيّدنا، ما قولك في كلام الشيخ عبد الحقّ في قضيّة الإحاطة؟

فقال: يقول الله تعالى ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء﴾. لقد أخذتُ دائرةَ الإحاطة عن مشايخي رضي الله عنهم.

ولها خواصّ وبركة عظيمة وأسرار كثيرة وكيفيّات لوضعها، وآداب في كتابتها، ولها أوقات معلومة. أمّا أسماؤها فهي ليست بلسان عوالم الملك والملكوت، ولا بِلُغة من لغات العالمين. وإنّما هي لغة جبروتيّة. وأنا أجيزك فيها في هذا اليوم. ثم أخرج قطعة من حرير وبدأ يكتب بمسك وزعفران وكافور وماء ورد. ووقتَ الكتابة أمسكَ عن الكلام وجلس تحت خِباءٍ في غفلةٍ عن الأعين. ولمّا أنهى عمله ناولني القطعة وقال هي لك الآن. ثم علَّمني كيفيّة النطق بأسمائها وهذه الدائرة عبارة عن عدّة دوائر متداخلة وتلتقي بها أربعة خطوط، اثنان من فوق وآخران من أسفل. ثم حدّثته عن رسالة الإحاطة لابن سبعين، التي يلخّص فيها مذهبه في الوحدة المطلقة بقوله «ربّ مالك وعبد هالك، ووهم حالك وحقّ سالك، وأنتم ذلك. اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد. .». فقال الشيخ: لا بدّ من الفرق يا أخي، وإلاّ ارتفعت حكمة الأشياء. وكلام صاحبك مسلّم له، لكنّه من عين القدرة، والشريعة نزلت بالقدرة وبالحكمة، فمرّة لهذه ومرّة لتلك، والله ربّ كلّ شيء. فاحرص يا أخي على ما ذكرت لك ففيه النجاة. ثم دعا بالحليب والحلوى فشربنا الحليب ثم ناولني قطعة من الحلوى. ثم قال لي: هذه الحلوى مصنوعة من السمسم، وهي نافعة بإذن الله، فسَمِّ الله ثم كُلْها. أخذت الحلوى العجيبة وسمّيت الله خمسًا ثم ازدَرَدْتُها فإذا هي من ألَذِّ ما أكلت. فلمّا استقرّت في جوفي قال لي أبو

الحسن: هذه هي سمسمتك الخامسة، وقد وفَّقَك الله فذكرتَ الاسم المفرد خمسًا. وهذا دليل العناية والتوفيق الإلهي. ثم بدأنا في الذكر فخضنا بحارًا وعَرَجْنَا صُعودًا ولَبِسْنا من الحُلَل ما تحارُ فيه العيون ثم ترادفَتْ علينا التجلّيات وصَحَّتِ المعرفة في جبل المعرفة. وختم أبو الحسن هذه السَّفرة الخامسة بدعاء عرفة فقال وقلت معه: «لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير». ثم قال لي: بقي لك سمسمتان من المجموع. فها قد أوقفتك على غائب عنك، وبعد ذلك تصير من الكُمَّل فَتَنْبُتُ شجرة في أرض الموت والحياة، وتنحَلُّ فيكَ كلُّ التناقضات.

## ٢٧

ثم عدنا إلى القاهرة فخرج لاستقبالنا الأهالي وقد وصلَتْ أخبارنا إليهم بالأعاجيب. وخرج الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام واجتمع بأبي الحسن وحطَّ رأسَه بين يديه وقال: يا سيّدي، أنت شيخي من هذه الساعة. فقال له الشيخ: أنت أخي إن شاء الله تعالى.

وبعد أسابيع التحق عبد الحقّ بن سبعين بهذه الحاضرة الإسلاميّة، إلاّ أنّ أخبارًا غير سارّة كانت قد سبقته إليها ومن ذلك ما كتبه بعض المترسّمة وافتراؤهم عليه أنّه يقول بوحدة الخالق والمخلوق. وهو كلام مَنْ لا تحصيل عنده ولا يخاف الله. كانت مصر في هذه الأوقات تضيق بالأفكار الغريبة، والمماليك لم يكن لهم عهد بمثل هذه الأفكار، كما أنّ سلطانهم كان في بدايته ولا بدّ لهم من عصبيّة فقهيّة يعتمدون عليها في مواجهة كلّ مخالف لعقائد العوامّ. فالأيّوبيّون يناوشونهم لاسترداد مصر، والفرنجة يتربّصون ببلادهم، والمغول سيبتلعون الكلّ إذا أغفلوا

حراسة البلاد. وعلى الرّغم من شيوع التصوّف في مصر بتأثير شيوخ المغرب، وخاصّة الشاذليّة، فإنّ الناس لم يكونوا على استعداد لتقبُّل أشياء غريبة عنهم. كانت مصر تعجّ بصوفيّة المغرب والأندلس، كأبي الحسن الشاذلي، وأبي عبد الله المعافري الشاطبي، والشيخ عبد الله بن أبي جمرة المرسي، والشيخ ابن سراقة الشاطبي تلميذ السهروردي الذي أخذتُ عنه في بلاد المغرب، والشيخ أحمد الحرار.

اجتمعت بعبد الحقّ وفرحت بلقائه مرّة أخرى وحدّثني عن همومه ومشاكله ومحاصرة بعض الفقهاء له، وذكر لي أنّ أَلَدَّهُمْ عليه هو الشيخ قطب الدّين القسطلاني، نظرًا لأنّه لم يكن فقيهًا وشاعرًا فحسب، بل كان عالمًا عابدًا زاهدًا صوفيًّا، وقد لبس الخرقة من طريق السهروردي. لم يطب المقام لابن سبعين في مصر، وفاتحني في عزمه على السفر إلى مكّة لإقامة وحدة المسلمين، فوافقته إلى طلبه. ثم إنّني وعدته في اللّحاق به متى سَنَحَتْ بذلك الظروف. لكنّه أمضى بعض الوقت يعطي بعض الدروس، فكان له طلبة كثيرون ممّا أحنق عليه بعض الفقهاء فَسَعَوْا به إلى أمراء المماليك. وكان هؤلاء في طور تأسيس ملكهم في مصر ويحتاجون إلى مساندة الفقهاء لهم، فشدَّدوا الخِناق على كلّ الأفكار والمذاهب التي لا تَسَعُ عامَّةَ الناس. واجتمع به في القاهرة صدر الدّين القونوي وعفيف الدين التلمساني. فلمّا سألته

عن القونوي صاحب الحاتمي وربيبه، ومدى رسوخه في علم التوحيد والتحقيق، قال لي: إنّه من المحقّقين، ولكنْ معه شابّ أحذق منه، وهو العفيف التلمساني.

ولم يكن للمماليك أن يسمحوا بظهور مثل هذا التيّار، رغم عنايتهم بالتصوّف وأهله، حيث كان شيخ شيوخ الصوفيّة يساوي في دولتهم منصب قاضي القضاة. وكان بيبرس أشرس المماليك في الفتك بالمخالفين، لأنّه كان يريد أن يقدّم نفسه للناس على غير الصورة التي سبقت في أذهانهم عنه، إذ لم ينس أهل مصر أنّه قتل توران شاه آخر سلاطين الأيّوبيّين في مصر، الذين كان لهم البلاء الحسن في استرجاع القدس من يد النصارى. وكان لهذا الرجل مطامع في حكم مصر.

مكتبة الرمحي أحمد

لمّا علم ابن سبعين بالأمر توارى عن أعين الناس واختفى عند بعض الطلبة. وجَدَّتِ الشرطة في العثور عليه لكنّها لم تفلح. وخلال هذه المدّة كنتُ أخرج للخلوة وأزورُ أديِرَةَ النصارى. ومن بين هذه الأديرة دير الأَنْبَا مَكَارْيُوس ودير طور سيناء.

هذا الدير موجودٌ في صحراء جنوب سيناء أسفل جبل كاترين، أعلى جبال مصر، قرب جبل موسى عليه السلام. وللدير سور عظيم يحيط ببعض الأبنية التي يحيط بعضها ببعض قد تصل إلى أربعة طوابق تخترقها ممرّات ودهاليز. ويبدو من بعيد كالحصن

الممتنع. وتُحيط بهذا الدير منطقة صحراويّة لكنّ الأرض التي يحتلّها عبارة عن واحة خضراء وتجري فيها مياه عذبة. أشجار النخيل تنوء بثقل عراجينها الممتلئة، وأنواع الرياحين والأزهار تعبق في هذا الفضاء. لمّا وصلتُ إلى هذه الجنّة كان بعض الرهبان منهمكين في فلاحة الأرض وتقليب التربة وتشذيب النباتات، وغير ذلك من أعمال الفلاحة والبستنة. ولمّا انتهى بنا الطريق الذي يفضي إلى مدخل الدير قرعتُ الجرس فخرج إلينا راهب ورحّب بنا فسألناه الضيافة، فقال لنا: انتظراني هنا حتى أخبر الشَّمّاس. أقفل خوخة الباب ثم راح إلى ما ذَكَر. وهذا المدخل هو الوحيد للدير، وله باب صغير على ارتفاع ٣٠ قدمًا لا يوحي بالرغبة في استقبال الناس، لكنّ القصد واضح في أنّه صُمِّم بهذه الطريقة لحماية الدَّير من الغرباء والدخلاء والأعراب واللّصوص. وبعد مدّة جاء الشمّاس الذي كان يلبس السواد فرحَّب بنا ثم دَلَّى لنا صندوقًا يحرّكه نظام من الرَّوَافع والبَكَرات، وطلب منّي أن أجلس في الصندوق فجلست فسحبني راهبان قويّا البنية حتى وصلتُ إلى حيثُ يقفُ الشَّمَّاس وصاحباه. ثم دَلّيا بعد ذلك الصندوق حتى رفعا صاحبيّ. اقتادنا الشمّاس إلى جناح الزوّار، ومررنا بعدّة مرافق من بينها بناء عالٍ كأنّه قلعة لا باب لها لكنّها مرتبطة ببناء ملاصق لها بجسر متحرّك. سألت الراهب عن هذا البناء فقال لي: هذا المكان بناه أسلافنا للاحتماء والاختباء

حينما يُهَاجَمُ الدّير. فقلت له: وما حاجة الناس لمهاجمة دير للعبادة. فقال لي: قد حدث في بعض الأوقات العصيبة، وخاصّة عند دخول الإفرنج أن قام بعض الأعراب بمهاجمتنا ظنًّا منهم أنّنا مع هؤلاء. فكنّا ندخل القلعة ونسحب الجسر فلا يصل إلينا أحد. وقد جمعنا داخل هذه القلعة الطعام والماء لتَحَمُّلِ حِصارٍ طويل الأمد.

ثم رأيت كنيستين: واحدة بإزاء الثانية وخلفهما خلوات للعبادة. تفقّدت مرافق الدير وأطلعني الشمّاس على قواعد السلوك داخله، وطلب منّي أن ألتزم الصمت مدّة تواجدي في الدّير مراعاة لقاعدة الرهبان. ثم قال لي: يمكنك أن تبقى في الدّير المدّة التي تشاء بشرط أن تشتغل في الحقول لتكسب قوت يومك. أمّا حضور القُدَّاس فله شروط يجب مراعاتها. فقلت له: سأعمل معكم في الحقول وأقَلِّبُ التربة وأبذر البِذر وأقطِفُ الثمار وأملأ الماء وأسقي الدواب، وأكْنِسُ الحظيرة وأُشْعِل النار وأَخْبز الخبز وأُنظِّف الثياب، وأقوم بكلّ ما يقوم به الرّهبان من الأشغال. فقال لي الرّاهب: هذه همّة صادقة، ويبدو أنّك من الزهّاد. فقلت له: الزاهد هو من يملك وأنا لا أملك حتى نفسي، فكيف أزهد فيما لا أملك. فقال الراهب: فأنت إذن صوفي؟ فقلت: قد أجيبك بصمتي تارة وبكلامي تارة أخرى، فأحرّر لك وجوهه التسعة، وبالفعل مرّة ثالثة. يا أخي في الله، نحن قوم نطلب التحقيق. فقال

الراهب: وما هذا العلم؟ فقلت: مراتبه أيضًا تسع وهي التعليم والتنبيه والتقرير والسيمياء والبراهمة والفصل والمهمل والمكلّم والمقرب. والمقرب هو المحقّق وهو عين الخبر، وكلّ الكون ومالك كلّ كون. فكيف أتكلّم معك في مثل هذا العلم وهو بحر لا ساحل له؟ دعنا ندخل الآن ونسترِحْ وسيكون لنا فيما بعد كلام في هذه المواضيع. اعتذرَ الراهب عن إشغالنا بالمذاكرة قبل الضيافة، فقلت له: نحن معاشر المسلمين نفضّل ضيافة الأرواح على ضيافة الأشباح، لكنّه لا قيام للأرواح من دون أشباح، لذا وجب إعطاؤها حقّها حتى تقوم بعملها.

أخذنا الراهب إلى مكان مُعدّ للضيوف فدخلتُ الغرفة المُعدّة لي، وليس فيها من مظاهر الترف سوى مِلْحَفَة وَطيئة، وحَصِيرٍ من السّمَار الذي ينمو على ضفاف النيل، وجرّة ماء، وشمعة يتيمة. سكن بجواري طالبان كانا يرافقانني في هذه الخلوة. كنّا نقوم في الصباح الباكر فنؤدّي صلاتي الفجر والصبح في مسجد الدّير الذي بناه الفاطميّون، حتى يكفّوا عن أهل الدّير هجمات الأعراب واللّصوص والسفهاء والجهلة من المتشدّدين والغلاة. ثم نبقى في الذكر حتى تطلع الشمس فنفطر على رغيف وزيتون وزيت وجبن مع حليب.

بعد ذلك نقصد الحقول للعمل مع الرّهبان الذين كانوا يشتغلون

في صمت، فكنت أحسّ بسعادة غامرة وأنا أشاطرهم العمل في هذه الخلوة العيسويّة. وأنشدت الكثير من الأشعار وأنا في هذا الدّير فمن ذلك القصيدة التي مطلعها:

تَأَدَّبْ ببابِ الدَّيْر واخْلَعْ بهِ النَّعْلا ... وسَلِّمْ على الرُّهْبانِ واحْطُطْ بِهِمْ رَحْلا

وعظِّمْ به القِسِّيس إنْ شِئْتَ حُظْوَةً ... وكَبِّرْ به الشَّمَّاس إِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلا

ودُونَكَ أَصواتَ الشَّماميس فاستمعْ ... لألحانهمْ واحذَرْكَ أن يَسْلُبوا العقْلا

وأعطوكَ مفتاحَ الكنيسة والتي ... بها صَوَّرَتْ عيسى رَهابينُهُم شكْلا

وقد أنشأتُها حيث إنّ التجلّي الإلٰهي الذي حصل لي في هذا الدّير كان تجلّيًا عيسويًّا محمّديًّا، ولهذا كان اللّسان سريانيًّا والرموز المذكورة من الحقيقة العيسويّة. أَسْمَعْتُ هذه القصيدة شمّاس الدّير فأُعجِبَ بها أيّما إعجاب وقال لي: لقد هداك الربّ إلى دين السيّد المسيح. فقلت له: ليس هناك إلاّ دين واحد، أمّا الشرائع فمتعدّدة ولا تظنّ أنّي دخلت في دينكم لأنّي أستعمل عبارات مسيحيّة من قبيل القِسِّيسِ والشّمّاس والدَّير والكنيسة وغير ذلك. إنّني يا أخي من أهل السماع المطلق، فأُكَنِّي عن الشمّاس لشهودي شمس الأزل، وعن الراهب لخوفه حقيقة القَيُّوم عليه، وعن القسّيس لتحقّقه بمعرفة الروح الأعظم، وعن الخمر إلى التجلّيات الإلٰهيّة إذا تحقّق بها العبد، وبالكأس أُكنّي عن الصورة النفسانيّة إذا تحقّقت بالمتجلّي الحقّ لها. أمّا الكنيسة فهي دلالة

على قلب السالك الذي كَنَسَهُ عن نجاسات الأغيار وطَهّره عن لَوْثِ التصرُّف والاختيار بالقوّة والاقتدار. فهذا هو اصطلاحنا قد بان، وليس لك الآن إلاّ الإذعان. ونحن ورثة جميع الأنبياء السابقين من مِشكاة نبيّنا عليه وعليهم الصلاة والسلام. ثم سألته بلسان الإشارة أن يعطينا من خمرة دَيْرِهِمْ فأبى عليّ ظنًّا منه أنّي سأُعربِدُ زَهْوًا بها في الدّير وقال: ورأسي والمسيح ومريم وديني ما أعطيناك من خمرتنا ولو كِلْتَ لنا التِّبْرَ كَيْلاً فقلت له: أعطيك ثمنًا لها خُفِّي وعُكّازي وشُمَيْلَتي ونَصْلي وقِنْديلي وعُودَ أَرَاكَتي. فقال مزايدًا: شرابنا جَلَّ وصفًا وخمرتُنا أغلى. فقلت له: دع عنك تعظيم وصْفِها، فخمرتُكم أغْلى وخِرْقَتُنا أغْلى، وفيها لنا سرّ عن السِّرِّ قد جَلاّ فقال: عسى تلك العباءةُ هَاتِهَا، فقد أثْبَتَتْ نفسي لها الصدقَ والعَدْلا فقلت له: إن شئت لبْسَ عباءتي تَطَهَّرْ لها بالطهر واضْحَ لها أهلا، وبدِّلْ لها تلك الملابس كلَّها ومَزِّقْ لها الزُّنَّار واهْجُرْ لها الشَّكْلا فقال: نعم إنّي شُغِفْتُ بحبّها وسأجعلها بيني وبينكم وَصلا فَنَاوَلَنِيهَا في أباريقها تُجلى. فقلت له: ما هذه الرَّاحُ مَقْصَدي، ولا أبتغي من رَاحِكُمْ هذه نيلا، ولكنَّها راحٌ تقادمَ عهدُها فما وُصِفَتْ بعدُ ولا عُرِفَتْ قَبْلا أُقِرُّ بأن الله لا ربَّ غيرُه، وأنَّ رسولَ الله أفضلُهُم رُسْلا، عليه سلام الله ما لاحَ بارقٌ، وما دام ذكرُ الله بين الورى يُتْلى.

فما كان من المسكين إلاّ أن سجد وقال لي: لقد أفحمتني

بالحجّة، فخِرقتكم أعلى وسرّكم أولى. فقلت له: لا تسجد يا أخي ففي ملّتنا لا نسجد إلاّ للأعلى. ثم أطلعني على كنوز الدير وأخبرني بقصّة بنائه قائلاً: تقول القصّة إنّ القدّيسة كاترين ـ بنت حاكم الإسكندريّة ـ آمنت بالله في بدايات العصر المسيحي دون بقيّة أسرتها، وكان أبوها حاكم الإسكندريّة، فأراد أن يَصُدَّهَا عن إيمانها بجميع المغريات ومنها محاولته لتزويجها قَسْرًا، إلاّ أنّ جميع محاولاته باءت بالفشل، فأمر بتعذيبها حتى ماتت. فأرسل الله الملائكة فحملت جثمانها واختفت به بعد وفاتها، لكنّه اكتُشف بعد ٥٠٠ عام على قمّة الجبل الذي أقيم عنده الدّير فسُمّي باسمها. فقلت له: هكذا دأب الصادقين في محبّة الله، يقاسون أنواعًا من الابتلاءات ليصحّ لهم القصد إلى مولاهم. سألت الشمّاس عن حقيقة الإيمان عند الأقباط فقال لي: نحن نؤمن بسبعة أسرار، سرّ المعموديّة، وسرّ الميرون أو التثبيت، وسرّ التناول، وسرّ التوبة والاعتراف، وسرّ الكهنوت، وسرّ الزيجة، وسرّ مسحة المرضى. فسِرُّ العماد يتمّ بعد أسابيع قليلة من الميلاد بغطس كلّ الجسم ثلاث مرّات في ماء مصلّى عليه. أمّا سرّ التثبيت، فيتمّ برشّ الجسم بزيت الميرون بعد العماد مباشرة. وبالنسبة لسرّ الاعتراف فيتمّ بصفة دوريّة على كاهن الاعتراف أو الأب الراعي. وعادة ما يعترف أهل الأسرة الواحدة للكاهن نفسه. ثم هناك سرّ الزيجة، ونحن الأقباط لا نقرّ تعدّد الزوجات،

كما لا نقرّ بالطلاق إلاّ في حالة الزنى. هذه بصفة عامّة الأسرار المقدّسة عند الأقباط. ثم سألته عن ركن الصوم، فقال: نحن نصوم أيضًا، ونحن أكثر الطوائف المسيحيّة قيامًا بهذا الركن، إذ نصوم مائتين وعشرة أيّام في السنة.

ثم أطلعني على بعض المخلّفات التي تُنسب إلى سيّدنا موسى، ولا شكّ أنّها من اختلاقات الناس وشدّة اعتقادهم. ثم أوقفني على مَعْظَمَةٍ للرهبان السابقين الذين ماتوا في كمّ هائل من العظام المتراكمة. تقزّزتُ من هذا المنظر وتذكّرت قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. لكنّ أهمّ شيء في الكنيسة هو مكتبتها الزاخرة بنفائس المخطوطات. وقد رضي الشمّاس أن يتركني أزورها وأقرأ في كتبها. وممّا وقفتُ عنده كُتُبُ الهرامسة الذين كان يخبرني عنهم عبد الحقّ بن سبعين، فطَفِقْتُ أَلْتَهِمُ تلك الكتب وأستعين بالقَيِّم على المكتبة لكي يترجم لي تلك النصوص. وكان هذا الراهب من علماء الرهبان ولا يشتغل إلاّ بالمكتبة، فإذا حان وقت الصلاة أغلق المكتبة وذهب للصلاة مع إخوانه. وهو يقضي سائر وقته في القراءة أو التأليف.

أرسلت خطابين مع أحد طلبتي، الأوّل إلى أهل بيتي، والثاني إلى عبد الحقّ لكي يلحق بي في هذا الدّير المنعزل حتى يَسْلَمَ من

مُطالبيه، وألححتُ عليه في الخطاب أن يأتي على عجل متخفّيًا في ثياب الأعراب.

مضت مدّة معتبرة لم أسمع فيها عن عبد الحقّ أو الطالب الذي أرسلتُه. فلم يكن من اليسير وصول الأخبار إلى هذا الدير الذي لا يصله أحد. وذات يوم رأيتُ من شرفةِ غُرفتي كوكبةً ضخمةً من الفرسان تتقدّمُ نحو الدّير. ارْتَعَبْتُ من وصول هؤلاء إلى الدّير، لكنّ الشمّاس كان قد جاء يخبرني بالأمر. وكانت الكُلْفَةُ قد طُرِحَتْ بيني وبينه، فكان يطلعني على أسرار الكنيسة وأخبار الإفرنج وتأكّدَتْ بيننا الصداقة والمحبّة. قال لي: تعال معي يا أبا الحسن، هذا جيش من جيوش الإفرنج قادم لزيارة الدّير. خرجت من غرفتي واصطحبت الشمّاس إلى مدخل الدّير حيث الصندوق الرافع. ولكم كانت فرحتي كبيرة لمّا رأيت عبد الحقّ بن سبعين والطالب مع جيش النصارى. فلمّا رآني عبد الحقّ تهلّلت أساريره وقال لي: لقد أسرني هذا الجيش وأنا في الطريق إليكم.

تقدّم أحد رجال الدّين الذين كانوا يرافقون عظيم الروم إلى المدخل، وحيّا الشمّاس من تحت، ثم طلب الإذن بالدخول إلى الدّير باسم عظيمهم، لكنّ الشمّاس بعد أن ردَّ عليه التحيّة، طلب من ذلك الملك أن يتجرّد من سلاحه إذا أراد الدخول. امتثل الرجل فدلّى له الشمّاس الصندوق الرافع فَحُمِل عليه. فلمّا وصل

إلينا حَدَجَنِي ببصره ثم تقدّم، ورأيته كأنّه يُخفي ألمًا فقال له الشمّاس: لا يمكنني أن أسمح لرجالك بالدخول إلى الدّير، لكن بإمكانهم أن يبنوا خيامهم خارجه. التفت عظيم الروم إلى رجاله وطلب منهم أن ينصبوا خيامهم في الخارج، لكنّه قال للشمّاس أرجو أن لا تمانع في أن تصطحبني زوجتي ومستشاري ريمون مارتي الدومينيكي إلى داخل الدّير. وقتَها طلبتُ من الشمّاس أن يطلب من هذا الرجل أن يترك صاحبيّ يلتحقان بنا في الدّير. فلمّا طلب منه ذلك قال عظيمُهم: إنّهم أسارى. فقال له الشمّاس: أنت في بيت من بيوت الله ويجب أن تُراعِي حُرمةَ المكان، فمن دخل هذا الدّير كان آمنًا، ونحن تركناك تدخل ولم نمنع عنك ديرنا فقال الرجل: إنّه من أكابر علماء مِلّة المسلمين، وسنقايض بأسره في افتكاك أسرى المسيحيّين. فقال الشمّاس: إن هذا الرّجل، وأشار إليّ هو أيضًا من كبار علماء المسلمين وصلحائهم، وهو أخي في الله والإنسانيّة. وذاك الأسير عندكم صاحبُه، فلا يمكنني أن أستضيفك وأنت تَأْسرُ صاحبَه. أنا أعرفه أيضًا فقد حاربنا في المنصورة، وكنتُ من بين أَسْراهم. فلمّا أخبر بهذا تذكّرت سِرّ نظرته إليّ عندما رفعه الشمّاس ووصل إلى مُستَوانا فكَّر عظيم النصارى برهة ثم قال: حسنًا، سنطلقُ سراحَه إيثارًا لك أيّها الراهب. ثم طلب من رجاله أن يَفُكُّوا قيودَ عبد الحقّ والطالب، فبادرتُ مستعجلاً بإنزال الصندوق ورفعناهم إلينا وما إن وصل

إليّ عبد الحقّ حتى تعانقنا عناقًا حارًّا وجرتِ المدامع بالدموع. ثم قال: هل تعلم من يكون هذا الرجل؟ وأشار إلى عظيم النصارى. فقلت له: لا أعلم فقال: إنّه الملك لويس التاسع الذي شاركتَ في معركة المنصورة ضدَّهُ وأسرتُموه، وتلك زوجتُه مارغريت البروفنساليّة. أمّا مستشاره فهو من دير الدومينيك في تونس. تعجّبتُ وتعجَّبَ معي الشمّاس من هذا النبأ وصرتُ أتفرَّس في الرّجل. ثم أضاف عبد الحقّ: إنّه أصرَّ على أسري لأنّه ذاق مرارة الأسر، وافتدى نفسه بمال كثير دفعه عنه فرسان الدَّاوِية، لهذا كان يريد أن يقايضني ببعض فرسانهم وأمرائهم الأسرى عند المسلمين. لكنّه لا يعلم أنّي لا أساوي شيئًا في مصر التي تألَّب عليّ بعض فقهائها فقلت له: لكنّك تساوي الكثير عند من يحبّونك، وفي مقدّمتهم تلامذتك. كما أنّ الخليفة المستنصر يُجِلُّك ولو علم أنّك في الأسر لفداك بمال عظيم. فقال عبد الحقّ: بورك فيك يا أبا الحسن. لكن دعنا الآن من قصّة الأسر واحْكِ لي عن هذا الدير وأهله. اشتغلت بإخبار عبد الحقّ عن الحياة في هذا الدّير وحياة الرهبان وحبَّبتُ إليه البقاء فيه وذكرتُ له أنّ فيه مسجدًا للمسلمين بناه الفاطميّون. والإنسان بإمكانه أن يشعر هنا بالأمان والراحة. فَجَوُّ العبادة مناسب للغاية، وكذلك التأليف. ثم ذكرت له أنّي ألَّفتُ كتاب الرسالة العلميّة في التصوّف. كما تحدّثت له عن مرافق الدّير كالمكتبة والمعصرة والطاحونتين ومخازن الحبوب

والمؤن وآبار المياه، فاستبشر عبد الحقّ خيرًا بهذه الأخبار.

أمّا الملك لويس التاسع صاحب الحملة الإفرنجيّة الأخيرة فقد كشف عن وجهه وبدا حاسر الرأس، وتقدّم في خشوع إلى الكنيسة حيث يوجد رفات القدّيسة كاترين. دخلنا وراءهما ونحن نتحدّث فالْتفتَ إلينا الشمّاس وقال: إخوة الإيمان إنّ لنا قواعد مرعيّة في هذا الدّير، فأرجو أن تلتزما بها  فقال له عبد الحقّ: وما هي تلك القواعد؟ فقال الشمّاس: نحن نمنع رفع الصوت أثناء القدّاس، كما يُمنع الكحّة والتَّفّ والنَّفّ والكلام داخل الكنيسة. كما يُمنع الإسراع في الدخول والخروج. ويُمنع الخروج أثناء قراءة الإنجيل أو التناول، ومن خرج لا يدخل مرّة أخرى. كما لا نسمح بجلوس العلمانيّين داخل صفوف الرهبان، بل يجلسون في مؤخّرة الكنيسة. وهناك قواعد أخرى للسلوك تخصّ خدمة المذبح، وتخصّ الرهبان فقط. فأرجو أن تمتثلا بما ذكرت لكما. وعلى ابن الطاعة تحلّ البركة والمخالف حاله تالِف.

تَرَكْنا الملكَ يؤدّي صلاتَه برفقة الشمّاس والمستشار وخرجْنا من الكنيسة، وخلوتُ بصاحبي عبد الحقّ للحديث والمذاكرة. كما سلَّمني الطالب رسالة من أهلي.

# ٢٨

أخبرني عبد الحقّ عن تبدّل الأحوال في القاهرة عليه وطَلَبِ المعزّ أيبك له، فسألته: ولماذا هو يَجِدُّ في الطلب عليك يا أخي؟ فقال: السبب يا أبا الحسن سياسي وإن تلَبَّسَ بلَبوسِ الدين. إنّ المعزّ أيبك يسعى للتقرّب من الفقهاء حتى ينسجوا عنه صورة مقبولة عند العامّة. وأنت تعلم أنّ المماليك قتلوا توران شاه آخر سلاطين الأيّوبيّين في مصر. ولكنّه يطلب القبض عليّ لمعرفته بدفاعي عن الدولة الحفصيّة ومناداتي ببيعة الخليفة المستنصر. كما أنّه يعلم أنّني خاطبت شريف مكّة في الموضوع وأبدى استعداده لبيعة المستنصر.

فقلت له: لا عليك الآن، فأنت في مأمن من سيفه هنا. وقد مضى عليّ زمان وأنا أتحرّك في هذه الصحراء وأنتقل بين هذه الأديرة من غير أن يتعرّض طريقي أحد.

أقام الشمَّاسُ الملكَ لويس التاسع مع زوجته في غرفةٍ قريبةٍ من غُرْفَتَيْنا. وكان هذا الملك كثير العبادة زاهدًا في الدنيا، ولمحته

مرارًا يدخل الكنيسة الرئيسة ذات الطراز الملوكي التي تتألّف من ثلاثة أقسام، قدس الأقداس والهيكل والرواق. كان الملك يجلس في صدر الكنيسة بإزاء حَنِيَّةٍ مستديرة حُلِّيَ سقفها وجوانبها بالفسيفساء الذي يمثّل السيّد المسيح في الوسط، وعلى يمينه السيّدة مريم العذراء وعلى يساره سيّدنا موسى، عليهم السلام. وتحت سقف هذه القبّة والفسيفساء يوجد التابوت الذي وُضعت داخله بقايا جثّة القدّيسة كاترين، فيبقى الساعات الطوال وهو غارق في تسابيحه.

كما كان يرتاد كنيسة ثانية تدعى العليقة المقدّسة. وتوجد خلف كنيسة الدّير الرئيسة فيبقى ساعات طويلة جاثيًا على ركبتيه في خشوع وتضرّع وبكاء. كنت أتعقّبه لأرى ماذا يصنع، فكان يعجبني صدقه وإخلاصه. ومرّة سقط عنه رداؤه فرأينا ضمادة على جناحه الأيسر، ففهمت وقتها سبب تألّمه. كما كان يراقبنا في جلوسنا للذكر والعبادة بعد صلاة الصبح في المسجد الذي بناه الحاكم بأمر الله الفاطمي، الملاصق للكنيسة الرئيسة. ومرّة التقى بنا في مكان خلف هذه الكنيسة، وهو أقدس مكان فيها، ويمكن الوصول إليه من الجانبين. وقد ذكر لي الشمّاس أنّ هيكل الشجرة هو المكان الذي يُعتقد أنّ سيّدنا موسى وقف فيه عندما تجلّى له الله وخاطبه.

قال لنا الملك لمّا رآنا: أنتما أيّها المسلمان لماذا تختبئان في

هذا الدّير؟ فقلت له: نحن لا نختبئ، وإنّما نحن نقيم هنا للعبادة وسط الصحراء. فقال: أما كان أولى بكما أن تعبدا ربّكما في مكان يديره المسلمون؟ فقال له عبد الحقّ: نحن المسلمين نعبد الله في كلّ مكان حتى في كنائسكم، وقد جعل الله لنا الأرض كلّها مسجدًا، فحيثُما أدْرَكَتْ أَحَدَنا الصلاةُ صلَّى، عدا الأماكن غير الطاهرة. فقال الملك: بل أنا أشكّ في أنّكما تريدان تحويل هؤلاء الرهبان عن دين المسيح. فقلت له: ذلك أمر موكول إلى الله، فإن أراد بعبد خيرًا صرفه إليه. فقال الملك: والله إنّي أتعجّب منكما، تقولان إنّكما لستما خائفين من حكّام المسلمين، وتقولان إنّكما لا تريدان تغيير دين هؤلاء الرّهبان، فلماذا تسكنان بين الرّهبان؟ فقال له عبد الحقّ: يا أيّها الملك، لك الحقّ في أن تشكّ في نوايانا، لأنّكم معاشر المسيحيّين لا تؤمنون إلاّ بالسيّد المسيح. أمّا نحن فنؤمن بجميع رسل الله. ونحن من بلاد الأندلس وقد عشنا هناك مع إخواننا المسيحيّين في وُدٍّ ووئام، وكنّا ندخل كنائسهم مرارًا ويدخلون مساجدنا، وهي عادة مستحكمة بيننا

فقال الملك: حسن، فأنتما إذن من بلد قريب من بلدي وتعرفون عاداتنا وديننا فقال عبد الحقّ: بل إنّ أخي هذا متزوّج من سيّدة مسيحيّة الأصل لكنّها أسلمت. فقال الملك: لقد أتيت إلى هذه البلاد لأحمل رسالة سلم ومحبّة لكنّي وجدت أنّ الممالك المسيحيّة في الشرق قد تناست رسالة المسيح وأقبل

الناس على الدنيا. وقد توسَّمتُ فيكما الخير فهل يمكننا أن نتعاون لتحقيق هدف مشترك. ثم أحسّ بالألم، وصدرت عنه أنّات حاول إخفاءها، فقال له عبد الحقّ: أرى أنّك تتألّم أيّها الملك، فلم يجب. فقال له عبد الحقّ: لعلّ بك جرحًا. ثم ازداد ألمه، وقال بصعوبة: إنّه أثر جرح أصبت به في معركة المنصورة. فقال عبد الحقّ: أستطيع أن أصنع لك علاجًا. فانتبه الملك مسرورًا، وقال: وهل أنت حكيم؟ فقال عبد الحقّ: نعم، وسأخرج للصحراء حتى أقطف بعض النباتات وأحضّر منها لك دواء.

ثم قلت للملك: وما هو الهدف المشترك الذي كنت تحدّثنا عنه أيّها الملك؟ فقال بعد أن استعاد حيويّته: أن تساعداني على أن أقابل الخليفة الحفصي المستنصر في تونس. فقال عبد الحقّ: ولماذا تريد مقابلته أيّها الملك؟ فقال: لقد سمعت أنّه رجل متسامح ويمكن أن يتركنا نمارس ديننا في بلاد المسلمين. فقال عبد الحقّ: نحن معاشر المسلمين لا نمنع المسيحيّين من ممارسة شعائرهم، لكنّنا لا نسمح أن تُغيِّروا دين المسلمين إلى دينكم، فهذا أمر نسمّيه الرِّدَّة، وهي غير مقبولة عندنا إطلاقًا فقال الملك: إنّ البلاد التي يحكمها المستنصر كانت مسيحيّة وأنتم أتيتم ونشرتم دينكم هناك. وكبار علمائنا من تلك البلاد مثل القدّيس أغسطين، والقدّيس تورتليان وغيرهما فقلت له: إنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله. وهذه البلاد فتح لنا أهلها صدورهم بعدما

عانوا من بطش قياصرتكم وحكّامكم. ولمّا جاء الإسلام إلى هنا فتح أهلُه البلاد في وجه الدّين الإسلامي عن طواعيّة، وتبكيتًا لحكّامكم. ثم أردف عبد الحقّ قائلاً: إذا كنت تريد أن تقابل الخليفة المستنصر فأنا قادر على أن أكتب إليه بهذا الأمر فقال الملك: وبأيّ صفة تستطيع أن تكتب له أيّها الرجل؟ فقال: اسمي عبد الحقّ بن سبعين وأنا صديق للخليفة. فقال الملك: ألستَ أنت الذي كتب للإمبراطور فريديريك أجوبة عن أسئلته. فقال عبد الحقّ: بلى، أنا هو. فقال الملك: اِعلم أنّني بنيتُ جامعةً هي أكبر جامعة في أوروبّا لتدريس العلوم المختلفة. ومن أهمّ ما يدرَّسُ فيها كلامُ حَكِيمِكُم ابن رشد، وشروحه على أرسطو مشهورة عندنا وقد استفاد منه علماء مِلَّتِنا مثل توماس الأكويني في التوفيق بين الدّين والفلسفة. كما أنّني استقدمتُ إلى هذه الجامعة علماءَ مثل ألبير الكبير، وسان بونافونتير، وروجيه بيكون وآخرين. وأجوبتك عن المسائل الصقليّة تدرّس في جامعتنا، وبإمكانك أن تأتي للتدريس عندنا. فقال عبد الحقّ: الحمدُ لله الذي جعل العِلمَ مشاعًا بين الناس، وجعل الحكمة ضالَّة المؤمن يلتقطها أنَّى وجدها. لكنّي سمعت أنك شدَّدت على اليهود في مملكتك وألزمتهم أمورًا شنيعة كوضع علامة صفراء على ثيابهم بالنسبة للرجال، وقبّعات معيّنة للنساء حتى تمنع تزاوجهم مع المسيحيين. ثم إنّك حمّلتهم زعم النصارى في قضيّة صلب

المسيح. ونحن معاشر المسلمين نؤمن أنّ المسيح لم يُصلب أبدًا وإنّما رفعه الله إليه، واليهود بُرَاءٌ من قتله. كما سمعتُ أنّك أمرتَ بإحراق التلمود لما فيه من تعريض، كما يزعم بعض علمائكم، بالسيّد المسيح والسيّدة مريم العذراء. وهذه كلّها أمور لا طائل من ورائها، وأنصحك أن لا تنساق مع مَنْ يُزيِّنون لك مثل هذه الأفعال التي تُرضي العَوامّ وتُغضب الرحمٰن. وأنا أشكرك على دعوتك لي للتدريس في هذه الجامعة لكن من يضمن لي أنّ أهل بلدك لن يعاملوني معاملة اليهود. أيّها الملك إنّني أحمد الله على نعمة الإسلام، وبلادُنا، والحمد لله، أعظمُ شأنًا وسلطانًا وعِلمًا من بلادكم التي ترزح في جهالة كبيرة. لكنّي أسأل الله أن يبارك في تلك الجامعة وأن يخرج منها العلماء الذين يعملون على التقريب بين المسلمين والنصارى. إنّ العلم يا سيّدي لا يترعرع إلاّ في محيط الحرِّيّة، فلا تقتل هذه الجامعة بالتضييق على العلماء.

فقال الملك: فهل يمكن أن تُسْدي لي معروفًا على الأقلّ، بالكتابة إلى المستنصر الحفصي حتى لا يتعرّض لي بجيوشه إذا نزلتُ برجالي في بلاده، بل إنّني مستعدّ لأن أسلّم له نفسي حتى يطمئنّ على مملكته. فقال عبد الحقّ: إذا كنت تريد العبور فقط فلا أظنّ أنّ الخليفة سيمنعك من هذا. أمّا إذا كانت لك نيّة أخرى فهو لن يدَّخِر جُهدًا في محاربتك.

لمّا انصرف الملك قلت لعبد الحقّ: إنّي على شكّ من أمر هذا الملك، وإنّي أعتقد أنّه يريد نشر دينه بأيّة وسيلة. وأنت ترى كيف أنّه يمضي وقتًا طويلاً في الكنيسة. وقد أخفى عنّا جرحه مخافة أن يصل الخبر إلى جيش المسلمين فينقلبوا عليه. والرأي عندي أن تخبر الخليفة بعزم هذا الرجل الذي يريد أن يحكم السيطرة على بلاد مصر من جهة الغرب، بعدما فشل أسطوله المكوّن من ألف وثمانمائة سفينة من احتلالها انطلاقًا من دمياط. ولعلّه يريد أن يتحالف مع المستنصر ضدّ المماليك اليوم. والرأي عندي أن تخبر الخليفة بخطر هذا الملك وعدم السماح له بالنزول على الساحل مخافة أن يطمع في تلك البلاد القريبة من بلاد الروم، بحيث يمكن للإمدادات العسكريّة أن تأتيه بسرعة. فقال عبد الحقّ: معك حقّ، وأنا أشاطرك هذا الرأي، لكنّني سايرته في خطّته وصانعته لأنّ المسلمين في حاجة إلى هدنة مع الإفرنج حتى يتفرّغوا لمواجهة خطر المغول وحلفائهم من روم بيزنطة. فإذا استطعنا أن نستفيد من كسب الوقت للمستنصر حتى يقوى عوده ويعيد لحمة الخلافة لجسم الأمّة، فسنكون قد حقّقنا مكسبًا عظيمًا يهون معه أمر هذه الهدنة المرحليّة. ولعلّ مستشاره الدومينيكي هو الذي أقنعه بالنزول في تونس. وقد علمت أنّه زار باريس والتقى بالملك وأقنعه بهذا الأمر

ثم قلت لعبد الحقّ: أنت أعلم منّي بهذه الأمور، وإنّي أريد أن

أصعد إلى جبل موسى وهو غير بعيد عن الدير، فهل لك في مرافقتي؟ فقال عبد الحقّ: نعم، فأنا منذ مدّة في شوق إلى تحصيل ذلك المقام على ذلك الجبل. خرجنا إلى الصحراء في الصباح الباكر وبدأنا تسلّق هذا الجبل الشاهق الذي لا يفوقه في الارتفاع إلاّ جبل طور سيناء حيث يوجد الدّير. أمضينا وقتًا طويلاً في تسلّق الجبل لأنّ عبد الحقّ كان يستوقفني كثيرًا ليتعرّف على النباتات الطبّيّة والنباتات السامّة، وأهمّها السّموة والحبك والزّعتر والشِّيح والعَجرم والعتُّوم والبُثَيْران والطّرفة والسّكران. وكان يحدّثني عن فوائدها العلاجيّة النافعة، وخاصّة لعلاج الملك لويس، حتى وصلنا مع الزوال إلى القمّة. فوجدنا بعض المنقطعين هناك من صلحاء المسلمين والنصارى. وفي أعلى الجبل مسجد وكنيسة صغيران. وهذا رمز للتعايش بين الديانتين. والمنقطعون هناك، سواء من المسيحيين أو المسلمين، يتبادلون الاحترام والمودّة.

تقدّمنا إلى المسجد فوجدنا شيخًا جليلاً يقوم بإمامة الصلاة، فسلّمنا عليه ثم سألناه عن هذا الموضع فأجابنا: يُسمّى هذا المكان جبل موسى، نسبة إلى سيّدنا موسى عليه السّلام لأنّه كان يصعد إلى هذا الجبل لمناجاة ربّه مدّة **أربعين** يومًا، حتى تسلّم الألواح التي جاء بها لقومه الذين كانوا ينتظرونه في وادي الراحة. أذّن المؤذّن لصلاة الظهر فوقفنا في الصفّ الأوّل والوحيد خلف الإمام. ومع تكبيرة الإحرام غبتُ في التجلّي ووجَدْتُني أجوبُ

الأرض بعَصا التَّسْيَار في ليلة شاتية باردة ذات رعد وبرق، مع أهلي، حتى ضَللتُ الطريق ثم أَخَذَ أهلي الطَّلْقُ وطَفِقْتُ أُخْرِجُ زَنْدِي لِأَقْدَحَ نارًا نستضيءُ بها ونصطلي حتى أَعْيَيْتُ. وبينما أنا على هذا الحال إذ رُفِعَتْ لي نارٌ عنْ بُعْدٍ. فقلتُ لأهلي ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾، فإن لم يكن خبرًا، ﴿آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. فحين قصدتها رأيتها نورًا ممتدًّا من السماء إلى شجرة عظيمة من **الآس**. تحيّرت في أمري وخفت حين رأيتها نارًا بلا دخان، ثم رأيت وكأنّ النار تعظم والشجرة تزداد خضرة. فلمّا دنوتُ منها تأخَّرَتْ فَفَزِعْتُ ورَجَعْتُ فَنُودِيتُ منها حتى استأنستُ فعُدْتُ فَسمِعْتُ قائلاً يقول ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ فأصابني خوف شديد وفزع عظيم، وكَلَّتْ قوايَ وصِرتُ حَيًّا مَيِّتًا. وبقيتُ مطروحًا هناك حتى أتاني آتٍ فقال لي «اِخْلَعْ نَعْلَيْ العادة لكي تطأ بساط السعادة. فإذا وصلْتَ فَالْزَمْ، وإذا بَانَ لكَ سِرٌّ فاكْتُمْ، ولا تتوَكَّأْ هنا على ما في يمينك مِنْ **عَصَا العَقل**، وإذا سُئِلْتَ عنها فألْقِهَا عند القوْل، ولا تخفْ مِمَّنْ يبدو لِمَنِ الفعل، وخُذْها ولو عادتْ حيَّة، إن الله يحبّ الشجاعة ولو على قتل حيَّة، وأَقْبِلْ فليس ثَمَّ سوى الله». ثم أنشدتُ في سِرِّي عند هذا الوارد:

**قَدْ ظَهَرْتُ في مِرْآتي ... عند رَمْيي لِمِنْساتي**

ونطقتُ بالعبارة الفاتحة: افتح يا سمسم، فبان لي كنز المعارف والمواهب من وراء الحجب الأربعين في **ليل العين**، ثم قيل لي: إذا كنت تطلب **الليل**، فَمَوِّهْ **بِزَيْنَبِكَ** لتظفر بالسعادة، وكِلْ **بِصَاعِ** ذَهَبَ **الأَنَا**، وقُلْ:

ما للحِجَابِ مَكَانٌ في وُجودِكُم　　　إلاّ بِسِرِّ حُرُوفِ انْظُرْ إلى الجَبَلِ

«فإذا أُرْسِلْتَ إلى فرعون الأوهام فلا تُجاوبه إلاّ بسياسة العلم مع الرفق واللّين واعلم بأنّ هذا الدّين متين، فإنْ تمرَّد أو عَصَى، فحاربه بالتوجّه، يا لها مِنْ عَصَا تَلْقَفُ مَا يَفِكُ مِنْ حِبَالِ خَيال سحَرة الأخبار، وتَرُدُّ الأشياء شيئًا واحدًا وتضمُّها إلى مضمار فيعودُ أَمْسُكَ يومك، ويقظتُك نومك ويحسدك عند ذلك قومك»، وأنشدت:

ألقِ عَصاك أَمُسافر　　　بباب شيخ الحقايق
تُقْبلْ مِنكَ الإرادهْ　　　إن كنتَ بالظَّفر فَايق
حُلّ النطاق الممنطق　　　واخلع نعالك واقْبِلْ
بنعت عاشق مُشَوَّق　　　إلى الحبيب عسى يقبلْ

ثم انْجَمَعْتُ في ذاتي بتجريد وبغير تجريد لأنّي كنت أسمع تكبيرة الإمام وحركة المصلّين، فما زلتُ أُمْعِنُ في الفكر وأستغرق في الذكر إلى أن غشيني شبْهُ سُباتٍ وشَخَصْتُ جهة الباب فأبصرتُ عبد الحقّ كأنّه نزلَ من علوّ الباب يبحث عن **ليْلاه (ليل ـ آه)** وقال

لي: آهٍ، آهْ، عليك بالدائرة فهي قبلتك في صلاتك، وهي الإحاطة المرجوّة. فهل عرفتَ معنى الدائرة؟ فقلت: وَقَرَ في سرّي أنّها رسول الله ﷺ. فقال نِعْمَ الأخ والصاحبُ أنتَ. ثم جمَعَ سبّابتَه إلى وُسْطاه، وقال لي: أنا وأنت هكذا. ثم ضرب صدره وقال لي: لقد كان عليٌّ كرّم الله وجهه يضرب صدره ويقول: آه، إنّ هٰهنا لعلومًا جمّة لوْ وَجَدْتُ لها حمَلة. فَاحْمِلْ عنّي يا أبا الحسن.

ولمّا سلَّم الإمام من الصلاة، كنت عاقدًا أصابعي اليمنى للتشهّد عقدة الثلاثة والعشرين[1] اِلْتَفَتَ إليَّ عبد الحقّ قائلاً قد عقدتَ الثلاثة والعشرين لأنّك نلتَ السمسمة السادسة في مِلَّة الخاتم السليماني المسدّس على جبل الطور. وأسأل الله أن تعقد التسعة والعشرين والثلاثة والخمسين حين تتحقّق بمعانيها. فقلت نعمّ سيّدي، قد ظهرتُ في المرآة حين رميت مِنْسَاةَ الارتقاءِ السليمانيّة والسهوِ الآدميّة، ورفعتُ العصا لأطرق الباب فأُمِرْتُ بطرحها في تلك الشِّعاب. ثم أنشدته هذا الموشح فرحًا بهذا المقام.

دارتْ علينا الأقداحْ    بِرَوْحٍ    وَرَاحْ
فعُجْ على الخمَّارْ    بخلْعِ    العِذارْ

(١) إنّ هيئة عَقْدِ الأصابع في التشهّد تكون على ثلاث صور هي: ٢٣، و٥٣، و٢٩. (انظر المعيار المعرب للونشريسي نقلاً عن ابن عرفة: ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥). ولكلّ من هذه الأعداد رموز تشير إليها.

تُـبْـصِـرْ سَـنَـا الأَنْـوَارْ إِذَا مَـا تُـدَارْ
وعَـالَـمُ الأَسْـرَارْ يَـلُـحْ لَـكَ جِـهَـارْ
والـرَّاحُ رُوحُ الأرواحْ مَـا فِـيـهـا جُـنَـاحْ
دَارَتْ عَـلَـيْـنـا الأَقْـدَاحْ بِـرَوْحٍ وَرَاحْ
جَـمَـالُـهَـا مَـشْـهُـورْ فـي الـدِّيـنِ الـقـديـمْ
لاَحَـتْ ولاحَ الـنُّـورْ فـي الـلَّـيْـلِ الـبَـهِـيـمْ
وَدُكَّ مـنـهـا الـطُّـورْ لِـمُـوسَـى الـكَـلِـيـمْ
حِـيـنْ أَلْـقَـى الأَلْـواحْ بـالـمَـكْـتـومِ بَـاحْ
دَارَتْ عَـلَـيْـنَـا الأَقْـدَاحْ بِـرَوْحٍ وَرَاحْ

هنّأني عبد الحقّ بهذا الفتح الجديد وقال لي: هلاّ أخبرتني عن رؤياك؟ فقلت: أي نعم. كنت في تلك الشعاب أمشي بأهلي وأتوكّأ على العصا. فقال عبد الحقّ: إنّها عيْنُ الصّاد، والعصا عَيْنُ اليد. ومن العين كانت الرؤية، وبالصاد كان الكلام ﴿ص والقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

ثم واصلْتُ حتى وَصَلْتُ إلى البقعة المباركة فَنُودِيتُ من شاطئ الوادي الأيمن من الشجرة المباركة، وهي تعبق بروائح **الآس** الزكيّة. فقال عبد الحقّ: ألستَ من وادي **آش** يا أبا الحسن؟ فقلت: بلى. فقال: فكذلك نوديت من شاطئ الوادي الأيمن من شجرة الآس. لقد استحال شِينُك سِينًا وشَيْنُكَ سَنَاءً. وفي هذه

الليلة الظلماء بدا سناؤك وضّاحًا فتلك هي ليلة قدرك، ولم يبقَ من شينكَ إلاّ هي (آ ـ ش)، فهي الذات في صورة الألف. إنّها الليلة الواحدة بعد الألف يا **عليّ**. وقد فَتَحْتَ **البابَ** وخَرَقْتَ حُجُبَ اللذّات باسم الذات ودَخلْتَ كهف المعارف بسِرٍّ: افتح يا سم سم. فهذه سمسمتك السادسة، وبَقِيَتْ واحدة في أرض الشام، وبتحصيلها ينطفئ شَيْنُكَ تمامًا، يا ابن عبد وادي آش. إنّ الله يجتبي إلى الشام خيرة خلقه، ولعلّك تكون منهم إن شاء الله. ولا تنس أن تعوج إلى حيث خاتم الولاية المحمّديّة، صاحب الفتوحات المكّيّة. فليس هناك فتح أعظم من الفتح المكّي. «فمن فتح عليه بفتح مكّة تمّت له النعمة ورفعت له الدرجة وفاضت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هُدي الرشد وسار على **صراطه** وَرجحَ ميزان ترجيحه على أقرانه. ومن حُرِمَ من هذا فقد حُرِمَ من ذلك والأمر هكذا». وأسأل الله أن يبلغني القصد حتى أَحُلَّ بتلك البلاد ويحصل لي فيها ذلك الفتح. فاحرص على أن نلتقي هناك إن شاء الله.

وبينما نحن في الحديث إذ رفع أحد القوّالين عَقِيرَتَهُ مُنْشِدًا:

طَرِبَ الفُؤَادُ وَعَاوَدَتْ أَحْزَانُهُ        وتَشَعَّبَتْ شُعَبًا بِهِ أَشْجَانُهُ
وبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِمَا انْدَمَلَ الهَوَى        بَرْقٌ تَأَلَّقَ مُوهِنًا لَمَعَانُهُ
يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ        صَعْبُ الذُّرَا مُتَمَنِّعٌ أَرْكَانُهُ

فَبذَا لِيَنْظُر كَيْفَ لاَحَ فَلَمْ يُطِقْ نَظَرًا إِلَيْهِ وَصَدَّهُ سُبْحَانَهُ
فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ وَالمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

فَأَخَذَنَا وَجْدٌ شديد وقُمْنا للعمارة ولحِقَ بنا بعض من كان هناك من مسلمين ونصارى، وتَوَحَّدَ قَصْدُ الجميع إلى الله. وأمضينا مدّة في التَّواجد حتى طلع فجْرُ المعارف في شَرْقِ الهُدى، فبَسْمَلْنا بكأس هذا اليوم.

فلمّا زال الوارد، سألتُ القوّال: لمن هذه الأبيات يا عبد الله؟ فقال: لا أعرف قائلها، ولا أهمِّيّة لهذا، إذ صاحبها الحقيقي هو من تحقّق بها في أحواله، وكلّ ما أعرف هو أنّنا معاشر القوّالين نتناقلها منذ زمان بعيد. وقد سمعها الجنيد مع أصحابه على طور سيناء، كما حصل معنا هذا اليوم، فتواجد هو وأصحابه من سماعها، كما تواجدنا في هذه الساعة. وقد استدار الزمان وتوحَّد المكان واتّصل الإخوان على الرّغم من مرور العصر والأوان.

فقلت لعبد الحقّ: إنّ هذا الرجل ينطق من مَعِينِ الحِكمة، والناس يَنْسُبُونَ لأنفسهم أشياء ويتنافسون في ذلك، ويتّهمون بعضهم بالسرقة في المعاني أو في المباني. والحقّ الذي لا مراء فيه أنّ مَنْ أشرقَتْ في جَنانه فكرة وتحقّق بها فهي له، وهو أحقّ بها من غيره. فقال عبد الحقّ: نعم يا أبا الحسن، ولهذا ترى الصوفيّة يأخذون أشعار المدجَّنين وأصحاب الخلاعة فيُلبِسونها

لباس التقوى فتعود مِلْكًا لهم، فهم أحقّ بها منهم، ولهذا يتغنَّون بالخمرة ويتغزّلون بالأنثى، وقصدهم من وراء ذلك. فقلت: وهذا مِصْداق لقوله تعالى ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. ثم سألتُ ابن سبعين عن سرّ السماع، فقال: السماع يُطْلَبُ به خمسُ فضائل: أوَّلُها ردُّ الفائتِ من الأحوال، والثاني حِفْظُ ما يَحُثُّ المَلَكَةَ. والثالثُ استجلابُ ما لم يُفْهَمْ بالمُدْرِكِ الفقير، وأَقْصِدُ به العقلَ. ورابعُها حديثُ النَّفْس بالأَمْرِ الذي لا مِنْ جِنْسِ المُكْتَسَبِ. وخامسُها إحداثُ راحةِ الفقراء لأنّ القلوب في السماع منشرحةٌ. فقلت: لكن ما هي الفائدة من رَدِّ الفائت من الأحوال، والطالب مُتَوَثِّبٌ لنيل أحوال أعَزَّ منها؟ فقال ابن سبعين: قد تحدثُ للسالك فَتْرَةٌ، فيشتاقُ إلى حُصولِ الأَحوال التي نال بها لَذَّةَ المشاهدة، فيكونُ السَّماعُ عَوْنًا له على استرجاع ما حَصَّلَهُ من تلك الأحوال سابقًا ثم نزلنا من جبل موسى ورجعنا إلى الدير وقصدي أن أسأل عبد الحقّ عن سرّ تلقّبه بابن دارة.

تيليجرام @ktabpdf

## ٢٩

وصلنا إلى الدير فوجدنا الشمّاس مع الملك، فلمّا رآنا سألنا عن رحلتنا فأخبرناه بما حصل لنا فعاتبنا الملك على عدم إخطاره بذلك، إذ كان ينوي مرافقتنا في تلك الزيارة. فقال له عبد الحقّ: إنّك لا تعدم فرصة تقوم فيها بزيارة جبل موسى، ومعك رجال أشدّاء يقفون على الخدمة. ثم ناوله الدواء الذي أعدّه له. فقال الملك: شكرًا يا أصدقائي على لطفكم، أمّا الجبل فأنا لا أريد أن أصعد إليه بصفة الملك، بل بصفة العبد الذليل المقبل على مولاه، عسى أن يهبني الخلاّق نفحة منه. فقلت له: بارك الله فيك أيّها الملك، فهمّتك خالصة، لكنّ تسلّق الجبل شاقّ والوصول إليه ليس بالأمر الهيّن. فقال الملك: ليباركني الربّ حتى أصعد هناك. ثم ودّعناه وجلسنا نستريح ونَأْتَدِمُ. فلمّا صلّينا العشاء سألت عبد الحقّ قائلاً يا أخي، هلاّ أخبرتني بسرّ لقبك الذي طار بين أصحابك، وأقصد لقب «ابن دارة»؟ فقال: لقد تلقّيتَ الجواب عن سؤالك في الجبل بشكل إجمالي، لكنّ هذا أوان التفصيل. لقد

قلتُ لك في خلوة الجبل: عليك بالدائرة فهي قبلتك في صلاتك، وهي الإحاطة المرجوّة. وأجبتني جواب المتحقّق الراسخ بأنّ الدائرة هي رسول الله ﷺ. وقد تسمَّيتُ بهذا اللقب لأفوز بالانتساب إليه طينة وروحًا. وأنت تعلم أنّ النسبة الطينيّة قد ثبتت ولم يبق إلاّ النسبة الروحيّة، وأرجو أن أظفر بها. فابن دارة معناه ابن الدائرة، أي ابن رسول الله ﷺ. وقد مَوَّهْتُ لك **بالليل** حتى تدركَ أنّها إشارة **للسبعين**، وأنا ابن سبعين. ألا ترى أنّه ﷺ كان يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرّة. ثم إنّ زمانه هو زمان الليل لقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ **لَيْلاً**﴾. فهو الليل الأزلي، وما حديث أهل الله عن ليلى إلاّ لهذا السبب، فهي كناية عن حقيقته المكتومة في ليل الذات. وقد وَرِثْتَني يا أبا الحسن، لأنّك **زينبيّ** المقام، وهو لا ينقص إلاّ بدرجة واحدة عن مقام ليلى الليليّ. فأنت الباء وأنا النقطة. هل تذكر الخطاب الإِلّي في جبل موسى الذي وصلَك؟ فقلت: نعم لقد دوَّنتُه. فقال اقرأ عليّ أوَّلَه فقلت: «إذا كنتَ تطلبُ **الليل**، فَمَوِّهْ **بِزَيْنَبِكَ** لتظفرَ بالسعادة، وكِلْ **بِصَاعٍ** ذَهَبَ **الأَنَا**». فقال: كفاك. مَوِّهْ يا أبا الحسن بزينب فأنت حاجب العين الذي ينقص بدرجة واحدة عن عين ليلى. فهناك السعادة، وهي سجن العادة. أنا العين، لأنّي من عين العين، وكلّ ما قيل في ابن سبعين فتفصيل لهذا الإجمال. أتدري ما هو الصاع يا أبا الحسن؟ فقلت: لعلّك تقصد صاع رسول الله ﷺ. فقلت:

كلّنا ندندنُ على تلك المقادير والأوزان. فليس الصاع إلاّ **عصا** التَّسْيَار التي استحالَتْ حيَّة تَلْقَفُ ما يَفِكُون. أيّها المسافر لبلاد **صاد**، عليك **بالعين** لتصل إلى مبتغاك. فأنا **عينُكَ إلى صَادِكَ** (ع ـ صاد = ١٦٥)، فقل: لا إله إلاّ الله. فَغَنِّ على ليلى يا أبا الحسن. فما مَلَكْتُ حتى أنشدتُ:

غيرُ **ليلى** لم يُر في الحيّ حَيْ ... سلْ متى ما ارتبْتَ عنها كلَّ شيْ
هي مثلُ **العين** لا لونَ لها ... وبها الألوانُ تُبدي كلَّ زَيْ
أَسْفَرتْ يومًا لقيسٍ فانْثَنى ... قائلاً يا قوم لم أحْبِب سِوَيْ
أنا ليلى وهيَ قيسٌ فاعْجَبوا ... كيفَ مِنّي كان مطلوبي إلِيْ

ثم سألته عن بعض ما سمعته عن أصل تلقّبه بابن سبعين، فقلت: قل لي يا إمام، هل لهذا اللّقب علاقة مع دارة جلجل عند العرب، أم أنّ أصل لقب ابن دارة له علاقة بلغة اليونان؟ فقال عبد الحقّ: كلّ هذا صحيح، فالحرف اليوناني أوميكرون omikron يساوي سبعين عندهم، وهو يكتب على هيئة دائرة. لكن أصل هذا يوجد في لغات الشرق القديمة، ثم أخذه اليونان عنهم. فالعين في الفينيقيّة القديمة تُكتب دائرة وقيمتها العدديّة سبعون. والعربيّة لم تَشُذَّ عن القاعدة، فرأس حرف العين دائرة مفتوحة، ولها العدد نفسه، والفتح فيها أعلى لأجل الرؤية، وقد تكلّمت معك في هذا عن دائرة الإحاطة فاجعله شرحًا على رسالة المقاليد الوجوديّة التي

مكتبة الرمحي أحمد

أخذتَها منّي. وأنت تعرف حكاية دارة جلجل التي يرويها الفرزدق ويذكر أنّها حصلت لامرئ القيس مع ابنة عمّه عُنَيْزَة، حيث نظم لنا حولها معلّقته الشهيرة، أمّا في عُرفنا، فدارة جلجل هي دارة الذات (الله). و**السمسم** كناية عن اسم الذات، ونسمّيه في بلادنا **جُلْجُلان**، فأنشدتُهُ للحين:

**جُلْ جُلْ** ترى المعاني واففهمني يا فُلان

ما تَنْطِقُ الأواني إلاّ بما سكن

ودَّعْتُ عبد الحقّ الذي غادر إلى مكّة، كما ودَّعْتُ رهبان الدّير وقصدتُ القاهرة لأطمئنَّ على أهلي لمّا بلغتني رسالة والدتي تطلب منّي التعجيل بالعودة إلى قاهرة المعزّ، لأنّ زوجي كانت حاملاً تواعدت مع عبد الحقّ على اللقاء في مكّة بحول الله. أمّا الملك لويس التاسع فقد عُوفِيَ من جرحه وشكر لعبد الحقّ صنيعه وأراد صِلته فامتنع، فزاد ذلك من إكبار الملك لنا. ثم إنّه أخبرنا أنّه عازم على تسوية أوضاع الفرنجة في الشام وتخليص الأسرى من أيدي المماليك. وجدّد طلبه لعبد الحقّ بمكاتبة المستنصر الحفصي.

لمّا وصلت إلى القاهرة أسرعت إلى بيتي فوجدت الطلق قد بدأ صبحًا ولم تمض ساعات حتى وضعتْ أنثى في غاية الرقّة والجمال. فرحتُ بهذه المولودة الجديدة التي جاءتني البشرى بها في جبل موسى.

لم أتردّد كثيرًا، فسمّيتها زينب تيمُّنًا بالمقام الذي حصّلته في الجبل. أقمنا العقيقة وحضرها أصحابنا فكانت ليلة زينبيّة راقية تغنّينا خلالها بكل الشِّعر الذي نرويه عن الزَّيَانِب.

كان الوضع السياسي في مصر مضطربًا بعض الشيء، فالأيّوبيّون لم يستسيغوا بعد قيام دولة مملوكيّة في مصر، وبعض المماليك لم يستسغ قيادة المعزّ أيبك لأمورهم، فتحالف هذا البعض مع الأيّوبيّين في الشام. وكان على رأس هؤلاء أَقْطاي وبَيْبَرس وقَلاوُون.

انصرفتُ مرّة أخرى إلى التدريس والاعتكاف ومساعدة المعوزين وإصلاح ذات البين وتربية المريدين وكلّ أعمال الخير حتى كَبُرَتْ زينب وبَدَأَتِ المشيَ والكلام، فعقدتُ العزمَ على مُواصلة السفر في بلاد صاد وجَنْيِ السِّمسمة السابعة في بلاد الشام.

أمّا عبد الحقّ فقد أرسل لي سلامه مع ولده شهاب الدين، وذكر لي الولد أنّ والده استقرّ أخيرًا في مكّة، وأنّه لقي فيها ترحيبًا كبيرًا من طرف أميرها الشريف أبي نمي محمّد، الذي كان لا يقطع أمرًا بدون استشارته. وكان هذا الشريف بحكم نسبته يميل إلى التشيُّع، فصادف من ابن سبعين قبولاً من حيث تعظيمه لأهل البيت الأطهار، فعوَّل عليه ورضي منه بما أوْقَفَهُ عليه. فلمّا علم

المماليك بهذا وكانوا يَحْذَرُون من قيام دوليّة شيعيّة في مصر، بعد أن انتهى أمرها منذ قضى الأيّوبيّون على الفاطميّين، ناصبوا هذا الشريف العداء، لأنّه أعاد حكم الأشراف في مكّة.

عزمتُ على السفر وأخبرت الطلبة بالأمر، وسلكنا طريق الحجّ المصري الذي يمرّ من السويس. وبدل أن نتوجّه إلى العقبة توجّهنا شمالاً إلى العريش ثم تركنا الساحل لخطورته وقصدنا مدينة الخليل. ولمّا وصلنا هناك شعرت ببرد اليقين وتذكَّرت ما ذكره لي شيخي أبو مروان عبد الملك القيسي في قرية بجانس من أعمال وادي آش، عن مقام اليقين. إنّها سفرة طويلة منذ أن خرجت من الأندلس إلى أن وصلت اليوم إلى مسجد اليقين. لقد كان مقام ذلك الرجل **العصامي** اليقين، وها قد وصلت اليوم إلى حيث ذكر. وسألني أحد الطلبة: ما معنى اليقين يا شيخ؟ فقلت: رؤية العيان بقوّة الإيمان لا بالحجّة والبرهان، ومشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار. فقال الطالب: وما الفرق الذي ورد في القرآن بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين؟ فقلت: علم اليقين ما أعطاه الدليل وهو العلم الأوّل؛ وعين اليقين ما أعطته المشاهدة والكشف؛ وحقّ اليقين: العلم الثاني المتحصّل عليه بعد المشاهدة والكشف، وهو ما حصل من العلم الإلهي بواسطة الشريعة. فلا تقنعوا من اليقين بالعلم الأوّل بل اطلبوا حقّ اليقين بعد تحصيل عين اليقين، فهذا هو علم

التحقيق. فقال الطالب: وما هو التحقيق يا سيّدي؟ فقلت: رؤية الوجود بالحقّ.

تحقّقتُ بالمقام، وبدتْ لي لوامح من بلاد صاد وكدتُ أظفر بالسمسمة السابعة إلاّ أنّها كانت في غاية الدقّة والصغر. وأنشدت في هذا الموطن أُصَرِّحُ عن مقام عين اليقين، وأُكَنِّي عن **عين ابْنِ دَارَةَ المَصُون**:

قَرِّبِ النَّفْس وَلاَ تَبْخَلْ بِهَا إِنْ أَرَدْتَ الشُّرْبَ مِنْ **عَيْنِ اليَقِينْ**
هِمْ بِحَرْفِ **العَيْنِ** واعْشَقْ أَهْلَهُ تَعْلَمِ المَعْنى مِنَ السِّرِّ **المَصُونْ**

ثم يمَّمْنا صوب بيت المقدس فتوقّفنا هناك وأخذنا بُلْغَتَنَا من ذلك المقام. وما زلنا نُعْمِلُ المسير حتى وصلنا إلى دمشق، حاضرة بلاد الشام. وأوّل ما أثارني في هذه الحاضرة روائحها الزكيّة التي ذكّرتني ببلدي، فلمْ أحِسَّ بأنّي غريبٌ عن هذه البلاد، بل شعرتُ بأُلفَة عجيبة. سكنتُ في الصالحيّة قريبًا من بيت آل الزكي. وسكن الطلبة والأصحاب في خَوانِقَ بالمدينة بناها الأيّوبيّون بِرَسْمِ الغُرباء والحُجّاج والصالحين. كانت دمشق تتوجَّسُ من تقدّم المغول إذ كانت الواجهة التي يمكن أن تَصُدَّ هذا الخطر الدَّاهِم الزَّاحِف على بلاد المسلمين. وقد وقف المماليك أمام هذا المدّ رغم خلافاتهم الداخليّة. وبعض هؤلاء تحالف مع أيّوبيّي الشام للاحتماء من المعزّ أيبك. ومن هؤلاء المماليك

البحريّة فارس الدين أقطاي، وركن الدين بيبرس، وقلاوون الألفي. وحدثَتْ معارك بين المعزّ أيبك والناصر يوسف مع حلفائه المماليك البحريّة، لكنّهم انهزموا أمام المعزّ أيبك. لكن زوجته شجرة الدرّ دَبَّرَتْ له مؤامرة قُتِلَ على إِثْرِها، فَخَلَفَهُ ابنه نور الدين علي، الملقّب بالملك المنصور. وعارض بعض المماليك هذا التنصيب فالتحقوا بالكرك عند الأمير الأيّوبي المغيث عمر، لكنّ نائب السلطان، فارس الدّين قطز استطاع أن يوحّد صفوف المماليك الآخرين ليستطيع مواجهة هؤلاء المنشقّين، وأبرزهم بيبرس. وجرت بين الفريقين معارك انتصر فيها قُطُز على خصومه.

وعلى إثر هذه التطاحنات بين المماليك، كان المغول يتقدّمون بخطى ثابتة في قلب بلاد الإسلام، فاحتلّوا العراق وخرّبوا بغداد وأعملوا السيف في كلّ شيء، حتى الخليفة الذي سلَّم نفسه لهم وخرج إليهم قتلوه مع أهل بيته وأولاده. ثم تقدّموا نحو بلاد الشام وسقطت مدنه في أيديهم، ومن أهمّها حلب. أمام موجة الرعب هذه، قام المظفر قطز بعزل سلطان مصر المنصور عليّ واعتلى مكانه عرش البلاد، وسعى لتوحيد المماليك لمواجهة المغول واستعدّ لحربهم. وممّا ذكره له بعض أصحابه قول أحدهم وهو يصف خروج التتر إلى بلاد الإسلام، واصفًا تردّده في تسويد دفاتر كتابه بهذه الفاجعة «لقد بقيت عدّة سنين معرضًا عن هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدّم إليها رِجلاً وأؤخّر أخرى،

فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمّي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها وكنْتُ نِسْيًا منسيًّا».

لمّا سقطت حلب أرسلتُ أهلي إلى مصر مرّة أخرى مع كوكبة من الطلاّب، وخرجتُ من دمشق مع باقي أصحابي في جيش المتطوّعين في هذه المعركة الفاصلة بين الإيمان والوثنيّة. هَجَر أعيان المدينة البلد خوفًا ممّا سيحدث لهم لو أصَرُّوا على البقاء في المدينة. واستطاع جيش هولاكو دخول دمشق من دون مقاومة تُذكر. أمّا السلطان الأيّوبي الناصر يوسف فلم يقم بأيّ شيء للدفاع عنها، بل غادرها وتركها لقمة سائغة لهؤلاء المتوحّشين. ودخل جيش هولاكو المدينة من دون إراقة دماء لكنّ بعض الأشاوس رفضوا تسليم المدينة للغزاة واعتصموا بقلعتها، فقام المغول بهدمها وقتلوا من بها.

وكان اللقاء الحاسم بين المسلمين والمغول عند عين جالوت في فلسطين، وانتصر المسلمون يوم الخميس ٢٦ رمضان الأبرك من عام ٦٥٨ هـ. ثم ما لبث الجيش الإسلامي أن تقدّم داخل بلاد الشام، فوصلنا دمشق بعد خمسة أيّام ودخلناها، والأهالي ينثرون باقات الورود أمامنا ويهلّلون ويكبّرون بهذا النصر الذي أوقف هذا الخطر القاتل.

بعثتُ رسالة لأهلي لكي يلحقوا بي مرّة أخرى في دمشق. ولم تمض بضعة أسابيع حتى وصلوا واجتمع شملنا مرّة أخرى.

كتبت إلى عبد الحقّ وأخبرته بما حصل فأرسل ولده شهاب الدين يحمل رسالة مطوّلة، وأوقفني على نصّ البيعة التي بايع فيها المستنصر إثر اجتماعه في مشهد برزخي، ليلة القدر في غار حراء بديوان الأولياء، فكتب البيعة باسم أهل مكّة وأميرها لمبايعة السلطان المستنصر الحفصي. يقول فيها بعد مقدّمة طويلة «. إنّ الملّة الحنفيّة المضريّة تنصرها السيرة العمريّة المحمّديّة المستنصريّة. ولعلّ الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يُجيرُهُ من المغرب ولا يَنْقُلُهُ عنه». ثم يشير إلى ضُعْف وهَوان وفَقْر المستنصر العبّاسي، الذي قد يتوهّم البعض أنّه هو المقصود بذلك الوصف، بقوله «. والذي يشاركه في الاسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرّة في كرة، ومن نملة رملة، وأفْقَرُ من قصد طالب السراب، ويده مع هذا أيبس من التراب. فصحَّ بالسَّبْر والتقسيم وبتصفّح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت أنّه هو لا شريك له فيها، والمصحّح لذلك كلّه، والذي يَصْدُقُ وينطبق عليه مدلول الحديث». وذكر لي في الرسالة الأسباب وراء تحرير هذه البيعة بعد انهيار الخلافة العبّاسيّة في بغداد وتخريب المغول لها، وهي أوّل مرّة في تاريخ المسلمين يحصل فراغ في الخلافة. ومع أنّ المماليك حاولوا

الحفاظ عليها صوريًا لتعطيهم الشرعيّة أمام الناس، فإنّ الخليفة العبّاسي المستقرّ في القاهرة لم يكن له أدنى سلطة، بل كانت مبايعته والدعاء له مجرّد شكليّات. وذكر لي ضرورة مبايعة خليفة حقيقي للمسلمين له القوّة على فرض سلطانه فأقنع شريف مكّة لكي يبايع مع أهلها هذا الخليفة.

نصحت شهاب الدّين أن يتكتّم على تلك البيعة حتى يسلّمها إلى سلطان إفريقية وتمنّيت له سفارة موفّقة، كما طلبت منه أن يمرّ بي في رحلة عودته ليخبرني بما تمّ.

انصرفتُ مرّة أخرى إلى التدريس والتربية، والتقيت بالشيخ نجم الدين محمّد بن إسرائيل، صاحب الشيخ شهاب الدين السهروردي. جلست إليه وحدّثني عن لبسه الخرقة من شيخه ودخوله الخلوة معه ثلاث مرّات. ارتحت كثيرًا إلى هذا الرجل الذي كان يُؤْثِرُ التجريد على مذهبنا، فقد كان فقيرًا ظريفًا نظيفًا وكنّا نقيم معًا جلسات الذكر والسماع فيشاركنا في الإنشاد بما ينظم من رقيق الشعر. وكان الرجل يقصد أكابر الناس من الرؤساء والقُضاة للمديح وكسب رزقه، فكلّمته في هذا الأمر وطلبت منه أن يترك مديح الخلق وينصرف بكلّيّته لخالقه، فصادف منه هذا القول موقعًا حسنًا، وأنشدني من قصيدة له في هذا الموضوع:

يَا نَاقُ مَا دُونَ الأَثِيلِ مُعرّس جِدّي فَصُبْحُكِ قَدْ بَدَا يَتَنَفَّسُ

وَاسْتَصْحِبِي عَزْمًا يُبَلِّغُكِ المُنى لِتَظَلَّ تغبطُكِ الجَوارِي الكُنَّسُ

وكان يحب أن يقول دائمًا: أنا شاعر الفقراء وفقير الشعراء. وممّا كان يعجبني فيه أنّه كان ينقّح شعره.

قَفَلَ شهاب الدّين من إفريقية وحَكَى لي ما جرى من احْتِفَالٍ بالبيعة التي حرَّرها والدُه، وذكر لي اهتبالَ السلطان الحفصي بها حيثُ حضر قراءَتها الملأ والكافَّة، وقُرئت بمجْمَعهم، وقام القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فَاسْتَنْفَر في تعظيمها والإشادةِ بحُسْن موقعها، وإظهارِ رفْعةِ السُّلطان ودَوْلته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في بيعته.

نَصحْتُ الابن بأن يغادرَ حالاً لِيَلْتَحِقَ بمكّة قبل أن يُمسِك به المماليك. ولم أكد أقول له هذا الكلام حتى دخل عليّ الطلبة مذعورين فقال أَوْجَهُهُمْ: أَدْرِكْ يا أبا الحسن، فإنّ الشرطةَ تَجِدُّ في البحث عن شهاب الدين، فقد وصلت أخبار البيعة واحتفال الحضرة في إفريقية ببيعة مكّة للسلطان المستنصر. وقد نقم بيبرس على ابن سبعين ودعوته أهل مكّة لمبايعة المستنصر الحفصي وتحريره لنصّ البيعة. كما اغتال قطز لانحياشه لهذه البيعة.

فقلت له وكيف وصلتْكَ هذه الأخبار؟ فقال الطالب: لقد أبلغني أحد أصحابنا ممّن يشتغل في الشرطة ببحثهم عن رسول البيعة، شهاب الدين. وما كاد ينهي الطالب كلامه حتى قلت

لشهاب الدّين: تخرج الآن قبل أن يقبضوا عليك، ثم أوعزت إلى الطلبة أن يخرجوا به من الباب الخلفي ففعلوا حتى أوصلوه إلى مشارف المدينة.

لكن بعد يوم جاءتنا الأخبار بأنّ سَرِيَّةً ترابط في الضواحي قبضَتْ عليه ورحَّلُوه إلى مصر حيث أُودِعَ السجن. حَزِنتُ كثيرًا لما أصاب شهاب الدّين.

## ٣٠

سكنتُ الشام ودَرَجْتُ في غُوطَتِهَا وجِنَانِهَا الفيحاء، وأَنِسْتُ لِمَا حَبَاهَا الله بهِ من السَّكينة والرُّوحانيّة. زرتُ جبل قاسيون، وهو إلى الشمال من دمشق والصالحيّة في سفحه. وهذا الجبل المبارك مصعد الأنبياء عليهم السلام. وفيه الغار الذي يقال إنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام وُلد فيه. صلّيت في المسجد الذي بُني عليه. ويقال إنّه من هذا الغار رأى أفول الكوكب والقمر والشمس وحصل له اليقين بوحدانيّة الله. وفي هذا الجبل أشياء تُنسب إلى الأنبياء السابقين، الله أعلم بصحّتها. وفي آخر الجبل الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى سيّدنا عيسى مع والدته سيّدتنا مريم عليهما السلام، وبإزائها مصلّى الخضر عليه السلام. ومدافن الأنبياء هنا لا تُعدّ فهي من سبعين إلى سبعين ألفًا. ومن هذه الربوة منابع مياه دمشق. وينقسم الماء الخارج منها إلى **سبعة** أنهر، فلعلّ الله ييسّر لي في هذه الربوة، السمسمة السابعة التي سيكتمل بها سرّ السفر في بلاد صاد.

كنتُ كثير التردُّد على مقام الشيخ محيي الدّين بن العربي الحاتمي المغربي. والناس يعظّمونه غاية التعظيم. وقد أنهيت قراءة الفتوحات والفصوص عند قبره، فحصل لي من البركات ما قرَّت به عيني. وحصل لكلّ أهل الأندلس والمغرب الحظوة والاحترام والتعظيم، في الشام بسبب هذا الرجل. فكان للمغاربة الصِّيتُ الذَّائِعُ والناسُ يُقَدِّمُونَهُمْ ويُجِلُّونَهُمْ. وبَنَى السلاطينُ لعلماءِ المغرب المدارس وجعلوهُمْ عليها

ومرّة، وأنا في الطريق إلى الضريح، استوقفني أحد الفقراء الأعاجم من طائفة القلندريّة وقال لي: لقد نجوتَ من القَضاء وصَحَّ لنا في الشام اللقاء، فهل تَذَكَّرْتَ الآن سرّ هذا الإبطاء؟

أمعنتُ النظر إلى الرجل فتذكَّرْتُ المجذوب القلندري الذي أشار عليَّ بتخريب الظاهر حتى أنجو من خطّة القضاء في طرابلس. سلَّمتُ على الرجل وشكرتُهُ على نصيحته، فقال لي: ادخلْ إلى الرِّباط. دخلتُ فوجدتُ كثيرًا من فقراء العجم على هيئة واحدة فراعني منظرُهُم. تقدَّمَ بي ذلك المجذوب إلى شيخهم وانصرف، فرحَّبَ بي الشيخُ ودعاني للجلوس في الإيوان الشرقي. ثم قال لي: اسمي الشيخ عثمان كوهي الفارسي، ثم ذكرت له اسمي وبلدي، فقال لي: قد حكى لي صاحبنا عن قصَّة لقائِكُما في طرابلس. وهذا الفقير من عقلاء المجانين، وهو من

المكاشفين. فقلت للشيخ: هلاّ أخبرتني عن طريقتكم؟ فقال: حقيقة القلندريّة أنّهم قوم طرحوا التقيُّد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلَّتْ أعمالهم من الصوم والصلاة إلاّ الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذّات المباحة، واقتصروا على رعاية الرُّخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، والتزموا أن لا يدّخروا شيئًا، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ولم يتقشَّفوا ولا زهِدوا ولا تعبَّدوا، وقنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلُّعٌ إلى طلب مَزيدٍ، سوى ما هم عليه من طِيبِ القلوب. فقلت له: وما هو الفرق بين القلندريّ والملامتيّ؟ فقال: الفرق بين الملامتيّ والقلندريّ، أنّ الملامتيّ يعمل في كَتْمِ العبادات، والقلندريّ يعمل في تخريب العادات، والملامتيّ يتمسّك بكلّ أبواب البرّ والخير ويرى الفضل فيه، إلاّ أنّه يُخفي أحواله وأعماله، ويُوقِفُ نفسه موقفَ العوامّ في هيئته، وملبوسه تستُّرًا للحال، حتى لا يُفطَن له، وهو مع ذلك مُتطلّع إلى المزيد من العبادات. والقلندريّ لا يتقيَّدُ بهيئة ولا يبالي بما يُعْرَفُ من حاله وما لا يُعْرَفُ، ولا ينْعطفُ إلاّ على طيب القلوب، وهو رأس ماله. وهم يَحْلِقُونَ لحاهم وحواجبهم ويخضّبون أطرافهم بالحنّاء، ويلبسون لباسًا عجميًّا معصفرًا.

فقلت للشيخ: كنت قد احْتَلْتُ حتى صَنَعْتُ صَنِيعَكُم في طرابلس لإعفائي من خطّة القضاء بإشارة من صاحبك، وأنشدت

وقتها: راسي محلوق ونمشي موله، نطلب في السوق، أو في دار مرقَّه، حافي نرشوق، نَقُلْ أَعْطِ لله. ولكنّي لا أعرف السرّ في هذه الهيئة؟ فقال لي: نحن معاشر القلندريّة لا نتقيّد بهيئة معيّنة. وسِرُّ حَلْقِ اللِّحَى والحواجب هو تخريب للظاهر. أمّا بخصوص اللحية فأنت تعلم ما ورد فيها عن سيّدنا موسى مع أخيه سيّدنا هارون عليهما السلام. فالإمساك بها دليل المعاتبة وعدم القيام بالواجب. أمّا الحاجب، فهي إشارة إلى رفع الحجاب عن عين النظر وعين البصيرة. وأهمّ هذه الأسباب دفعُ عامّة الناس للومنا، فنحن أهل ملام. وحين يحصل هذا الأمر ويلومنا الناس على مخالفتهم ويشنّعون علينا، فهذا يسقط وجاهتنا عندهم وتذلّ نفوسنا لنا. وأصعبُ شيء في الإنسانِ نفسُه التي بين جنبيه، فإذا استطاع أن يمتهنها تغلَّب عليها وَرَاضَهَا للخيرات. أمّا إذا سايرها وساير الناس اشرأبَّتْ وتكبَّرتْ وسلكت في سِلْكِ إبليس الرجيم الذي أبى أن يسجد لسيّدنا آدم، وخالف الأمر الإلٰهي. فهذا يا أخي هو السرّ في هذه الهيئة. والعبرة بباطن النفوس لا بظاهر الأشكال والصور. فقلت: جزاك الله خيرًا، لكنّي أرى أنّ إصراركم على هذه الهيئة المُسْتَشْنَعَة مخالف للسُّنّة والفطرة، مهما كانت أسبابكم وتعليلاتكم. والأولى أن لا تلتفتوا للخلْق جملة وتفصيلاً فعملكم على مخالفة الناس دليل على حضورهم في نفوسكم، وهذه مرتبة ناقصة عن الكمال الذي تنشدونه.

تفكّر الشيخ قليلاً وقال لي: لعلّك مصيب في ما ذهبت إليه، وسأعمل على إرسال لحيتي وحواجبي، لكنّ الفقراء مُصِرُّون على اقتفاء أثر الشيخ المؤسّس لهذا الرباط.

ثم استضافني في الرباط مدّة من الزمان خَبِرْتُ فيها القوم ووقفت على سلوكهم وآدابهم، وأنشأت بعض البُلْقيات[1] لتخليد مُكوثي بينهم.

كنت أخرج بأهلي في هذه الجنان نَتَمَلّى بجمالها وهدوئها من رحلة السفر الطويلة التي بدأتها مع أهلي وأصحابي من الأندلس، حتى وصلتُ اليوم إلى الشام، ولم أر في أرض الله التي مررنا بها بقعةً تشبهُ بلدي سوى هذه الحاضرة. كانت زوجتي تحبُّ كثيرًا الرَّبوة المباركة التي تُذَكِّرُهَا بما شبَّتْ عليه في صغرها من محبّة في السيّد المسيح وأمّه عليهما السلام، فكانت تُلِحُّ عليَّ في الخروج للنُّزْهة في تلك الرّبوة، وكنتُ أستجيبُ لها، بل أستجيب في حقيقة الأمر لدواعٍ ذاتيّة.

(١) نوع من التواشيح العاميّة كانت شائعة في بلاد الشام.

## ٣١

كنت أفضِّل ذَهَبِيَّاتِ الشُّروق وذَهَبِيَّات الآصال في هذه الجِنان، فيحدثُ لي من العِلم بالله ممّا لم يكن عندي. وفي إحدى المرَّات كنتُ جالسًا مع طلبتي وأهل بيتي نتدارسُ العلوم والرقائق، فاشْتَهَتْ صُبحُ سمكًا وكان بعض الصيّادين يجلسُ في موضع على الربوة ويُلقي شبكتَه في النهر فقلتُ لولدي حسن الذي شَبَّ وطَرَّ شاربُه وبَقَلَ وَجْهُهُ: اذْهَبْ إلى ذلك الصيّاد وانْظرْ إن كان قد اصطاد سمكةً فاشترِهَا منه. ثم أخرجت دينارًا ذهبيًّا ودفعتُه إليه. فقال حسن: سمعًا وطاعة يا أبتي. وكانت أمارات الفرح بادية عليه حيث شعر بالمسؤوليّة لقضاء حاجة والدته. ذهب الغلام يركض في الربوة ويَنِطُّ بين أحجارها كما تفعل وُعولُ الجبال حتى وصل إلى حيثُ يجلسُ الصيّاد.

سلَّمَ عليه وسأله أن يبيعه سمكًا، الْتَفَتَ الصيَّادُ إلى الولد وقال: يا ولدي لقد مَرَّ عليّ ستّة أيّام لم تلتقطْ شبكتي سمكةً واحدة وليس لي عمل غير هذا لكي أَعُولَ أولادي وزوجتي، وهم

بانتظاري لأعودَ إليهم بشيء يأكلونه، فإن أمسكتُ بسمكة فسآخذها إليهم وأُخَفِّفُ عنهم من الجوع الذي انْتَهَبَ أحشاءَهم. فأنا لا أستطيع أن أبيعَكَ شيئًا، فَعُدْ إليَّ في يوم آخر. لكن حسن قال له: أيّها الصيّاد المسكين، إنّ والدي أرسلني في شراء سمكة منك لأنّ والدتي تَشَهَّتِ السمك، ولعلّ بها وَحَمًا، ثم إنّ والدي باستطاعته أن يعطيك ثمنًا عاليًا يُعِينُكَ على شراء ما تحتاجُهُ من طعام لأهل بيتك. ثم أَرَيْتُهُ الدينار. كما أنّني أظنّ أنّ أولادك قَرِفُوا من أكْل السمك كلّ يوم. فقال الصيّاد: ولكنّي لم أُمْسِكْ بشيء منذ ستّة أيّام. فقال حسن: لعلّ الله ييسّر لك سمكًا هذا اليوم السابع. فقال الصيّاد: آمين، ثم أخرج شبكته وأراد إلقاءها في الماء، فقلت له: انتظر فقلت: باسم الله. وبعد ذلك طلبت منه أن يلقيها فألقاها.

جلستُ بجانب الصيّاد وبعد مدّة طلبتُ منه أن يرفعَ الشبكة، فنظر إليّ متعجّبًا وقال لي: وهل تحسنُ الصيد أيّها الفتى؟ فقلت له: اِرْفعِ الشبكةَ الآن، فرفعها وهو يريدُ أنْ يَسْخرَ منّي، لكنّه أحسَّ بأنّ شبكتَهُ ثقيلةٌ فطلب منّي أن أساعدَهُ، فقمتُ مسرعًا والْتَقَطْتُ طرفًا من الشبكة وأخذتُ أجذبُ وكانت الشبكة ثقيلة. أخذنا في جذبها حتى طلعنا بها من الماء وإذا هي ممتلئة بسمك يترنَّحُ في كلّ اتّجاه ويَلْمَعُ إِهابُهُ تحت ضوء الشمس. لم يكد الصيّاد يصدِّقُ ما حصل، ونظر إلى حسن متعجّبًا مسرورًا وقال له: أنت ولد صالح يا ابني، لقد رزقني الله في هذا اليوم السابع بهذه

الكمِّيّة الكبيرة من السمك، الذي لم يسبق لشبكتي أن رفَعَتْهُ مِنْ قَبْلُ. ما اسمكَ يا ولدي؟ فقلت: حسن. فقال لي: سأعطيكَ بعضَ السمك من غير مقابل. فقلت له: إنّ والدي لن يقبل، بل سأعطيكَ الدينار كلَّه لتستعينَ به على شراء ما يلزمُ لأهل بيتك، نظير بعضِ ما اصْطَدْتَهُ اليوم. ثم أخذ سلَّةً من الخُوصِ ملأها بالسمك فأعطيتُهُ الدينار فأخذه وجمع سمكَهُ في سلّة كبيرة ثم حملها على ظهره وانصرف. ثم انصرفتُ في عَقِبِهِ حتى أتيتُ والدي. فلمّا رآني بشَّ في وجهي وقال لي: لقد عدتَ بصيد ثمين يا حسن. فقلت له: نعم، وذكرتُ له حكاية الصيّاد فقال لي: لقد فعلتَ خيرًا يا ولدي. ثم طلب من أحد الطلبة أن يُوقِدَ نارًا وقام هو إلى السَّلّة وأخذ ينظِّفُ جوف السمك ويزيلُ أمعاءَه ثم قِشْرَهُ. وبينما هو ينظِّفُ السمك إذْ أخذَ سمكةً كبيرة ففتح جوفَها فوجد فيه محارةً فأخذها ثم جَهِدَ في فتحها بسكِّينِه فتمنَّعَتْ عليه فتركها جانبًا، ثم وضع السمكة على النار، ولمّا نَضِجَتْ ناولها لزوجته صُبح فأكلتْ منها وطلبتْ منه أن يأكلَ معها. سمَّى الله ثم أَكَلَ من السمكة وأخذ المحارة التي كان قد وضعها جانبًا، فلمّا وضعها في كفِّه صار ينظر إلى بديع صنعتها وحسن انتظامها وانسجام خطوطها البديعة، ثم حاول أن يفتحها مرّة أخرى بسكّينه فَتَمَنَّعَتْ وكاد يرمي بها بعيدًا، لكنّه أحجمَ فجأةً ونطقَ بكلمة السِّرِّ: افتح يا سِمْ سِم، فما لَبِثَتِ المحارةُ أن صوَّتَتْ ثم انْفَتَحَتْ، وإذا نُورٌ عظيم يَشِعُّ من

داخلها، فإذا هي دُرَّةٌ بَيْضَاء. لم يَكَدْ عليّ يُصَدِّقُ ما حصل. أخذ الدرّة البيضاء الفاخرة في يده فأعجبه نقاؤُها وصفاؤُها وجودةُ استدارتِهَا ونورُ بياضها، ثم صار يحدِّقُ فيها فتحَوَّلَتْ إلى مرآة يرى فيها ذاتَه التي تحولَّتْ إلى شكل كُرَوِيٍّ فَأَخَذَتْ تَطُوفُ بالدُّرَّة كما يطوفُ القمر بالأرض وامتزجَ نور الدرَّة بالجرم فأشعَّتْ باطنَهُ وظاهرَه. ثم رأيتُ كأنّ الدرّةَ تخاطبني وتُعَرِّفُنِي بنفسها وتقول: أُنْزِلَ القرآنُ على سبعةِ أَحْرُفٍ، أتذكر قول القائل: أنا القرآن والسبع المثاني؟ فقلت: لقد خمَّسْتُ تلكَ الأبيات، وصاحبُهَا راقدٌ بينَنا حَيٌّ مع الأموات، فما الحرف؟

فقالت: الحرف صورة في السّبخة السوداء.

فقلت: وما السبخة؟

فقالت: الهباء الذي فُتح فيه صور أجسام العالم المنفعل عن الزمرّدة الخضراء.

فقلت: وما الزمرّدة الخضراء؟

فقالت: النفس المنبعثة من الدرّة البيضاء.

فقلت: وما الدرّة البيضاء؟

فقالت: عجبًا لك، أما يكفيك أنّي بين يديك؟

فقلت: أريد زيادة في التعريف.

فقالت: إنّها العقل الأوّل صاحب السمسمة.

فقلت: وما السمسمة؟

فقالت: عجبًا لك، ألم تُسَافرْ من بلدك في طلب السمسمة؟ ورحلتُك كلُّها كانت منك إليك، ولم تَدْرِ بَعْدُ.

فقلت: لقد خرجتُ عنّي وعن صفاتي، وجئتُكمْ أشتهي الوُرود، فهلاّ سقيتِني من ماء اليقين.

فقالت: السمسمةُ معرفةٌ دقيقة في غاية الخفاء تدِقُّ عن العبارة ولا تُدْرَكُ بالإشارة مع كونها ثمرةَ شجرةٍ.

فقلت: وما هي هذه الشجرة؟

فقالت: ما أشدَّ حجابَ نفسِكَ عليكَ، ألم يكفِكَ هذا النور الذي أُمِدُّكَ به لتعرفَ حقيقةَ نفسِكَ؟

فقلت: لا بدَّ من السؤال إلى أن يأذنَ الله ببلوغ دار السلام.

فقالت: الشجرة هي الإنسان الكامل مُدَبِّرُ هيكل الغُراب.

فقلت: وما الغراب؟

فقالت: الجسمُ الكُلّ الذي ينظرُ إليه العُقابُ بواسطة الوَرْقَاء.

فقلت: لقد حيَّرْتِنِي بهذه الرموز يا بنتَ الماء، فما العُقاب وما الورقاء؟

فقالت: العقاب هو الروح الإلٰهي الذي ينفخُ الحقّ منه في

الهياكل كأنّها أرواحُها المحرِّكة لها والمسكِّنة لها. أمّا الورقاء فهي النَّفْس التي بين الطبيعة والعقل. ودون الطبيعة هي العنقاء.

فقلت: وما العنقاء؟

فقالت: الهباء لا موجود ولا معدوم على أنّها تتمثّل في الواقعة.

فقلت: وما الواقعة؟

فقالت: ما يَرِدُ على القلب من العالم العلوي بأيّ طريق كان من خطاب أو مثال أو غير ذلك.

ثم انْتابَني مع هذا التعريف والبيان حالٌ صِرْتُ به عينَ ما ذَكَرَتْ لي دُرَّتِي البيضاء. ثم جاءني خطاب من العالم العلوي: «عبدي دُرَّةٌ عَذْراء، غَضَّة بيضاء، أبرزتُها من قعْرِ بحْر غيبِ ذاتي، ما عَرَفَتْ قَطُّ صِفَةً من صفاتي. ثم خَبَّأْتُها في سَوادِ العين، وما عَرَفَتِ الوصل ولا البين، غَيْرةً مِنْ أَنْ تُنالَ أو تُسَمَّى. .».

وأصابني **صَدًى**، أيْ عطش شديد فرأيتُها تذوبُ في كَفِّي كأنّها شربةٌ بيضاء ظننتُها لبنًا وقالت لي: **أيّها الصَّادِي**: اشْرَبْ، فشربتُها فإذا هي أحلى من العسل. ثم انْجَمَعْتُ حتى صِرْتُ أَدَقَّ من السمسمة في الخفاء وتحوَّلتُ درّة بيضاء، ثم أخذتُ مكان الدُّرَّة البيضاء في المحارة السوداء، فإذا الكون كلُّهُ في قبضتي، وإذا

بالوسع والضيق من سدَى جُبَّتِي. ثم انْبَثَقَتْ من الدرّة البيضاء سمسمةٌ طلعَتْ من شجرة وَارِفَةِ الظِّلال. ثم رأيتُني أنا الشجرة الصَّاديَة في غابة من الشجر الصَّادي إلى شجرة عظيمة رَاوِيَة في بلاد صاد سمسمه. ثم رأيتُ الصَّادَ الكامل، فإذا هو مجموع العالم، فإنّه الإنسان الصغير المختصر للعالم الكبير فدخل فيه من حقيقة كلّ شيء رغم صغر جِرْمِهِ، كدخول الجَمَلِ في سَمِّ الخِيَاط. وليس ذلك محالاً فإنّ الذي أَوْجَدَ الجملَ قادر على تضْييقِ حجْمِهِ إلى حَجْمٍ أَصْغَرَ، كما أنّه قادر على توسيع سَمِّ الإبرة ليصِحَّ دخول الجمل منه. والصِّغَرُ والكِبَرُ لا يُغيِّران حقيقة الشيء ولا يُخرجانِه عن ماهيّته. فالإنسان وإن صَغُرَ جِرمُه فَقَدْ جمَع حقائق العالم. والإنسان هو العالم الصغير، والعالم هو الإنسان الكبير. فهذا هو سرّ إيراد الكبير على الصغير ودخوله فيه مع بقاء الكبير على كبره والصغير على صغره كدخول الجمل في سمّ الخياط، أو كَتَحَوُّلِي داخل المحارة إلى سمسمة ثم إلى درّة بيضاء فإلى شجرة خضراء، لا شرقيّة ولا غربيّة من غير أن تتبدّل حقيقتي الإنسانيّة. وبعد هذا التعريف تَلَوْتُ قوله ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾. هذه أرض صاد سمسمه، فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين. ثم أشهدني الحقّ بمشهد نور الصمت وطلوع نجم السلب فأخرسني. فما بقي في الكون موضع إلاّ ارتقَمَ بكلامي، وما سُطِّرَ كِتَابٌ إلاّ من مادَّتي وإِلقائي، فأنشدتُ:

أنا بالله أنطِقْ ومِنَ اللهِ أسمَعْ
كَيفَ تخفَى الحقيقَهْ وشُموسها تُشَعْشَعْ

ثم سمعت قائلاً يقول: **تخلّقْ بالأخلاق الإلٰهيّة الثلاثمائة** فقد وصلت بلاد **صاد سِمْسِمَه**. لقد جزتَ على صراط الأعراف، ودخلتَ بالجمل في سم الخيّاط بالأوصاف، وسجدت عند التمام سجود من هم **عند ربّك**، من لا يعرفون الاستكبار ولا فيهم ذرّة من ربوبيّة، بل محض عبوديّة. ثم نزلت بالربوة المباركة والدرّة البيضاء الطاهرة وجلست في المحراب وأسدلت الحجاب وأتاك الأمر عند النخلة فأكَلْتَ وشرِبْتَ وصَمَتَّ عن الكلام ثلاثًا حتى نطقت بالله فعلمتَ أنّ لك وللعالمين ربًّا لمّا جُزْتَ الصراط الثاني، ثم سجدتَ لمّا أتتكَ آيات الرحٰمن وذرفتَ دموعَك سبعًا. وتبدّت لك صبح في صورة مريم وقالت لك «إنّ لله سبعين ألف حجاب من ظلمة ونور. . » فأنا زوجتُكَ **صبح** حُجُب الأنوار، وصاحبك ابن سبعين المكنّى **ليل** حُجُب الأسرار، وها قد جمعت حقيقة الأسرار والأنوار، وأنت الأَلْف من شِينِ تَفَشِّيكَ أيّها الششتري الوادي الآشي. ولمّا استوفيتَ الصالحات نزلتَ بحِمى الإنسان الكامل، حبيبِ الله فأكرمَك وأعطاكَ كلّ الحروف من مشكاة الصّاد فأضاء لك نور الشكر دنيا وأخرى وجُزْتَ الصّراط الثالث. وعنده ورِثْتَ معنى الخِلافة وآتاك الله الحكم وأنت في المحراب فحكمتَ بين صاحب النعاج التسع والتسعين وصاحب النعجة

الواحدة فأدركتَ قوله ﷺ «إن لله تسعةً وتسعينَ اسمًا مائةً إلاّ واحدًا من أحصاها دخلَ الجنّةَ»، ثم أدركت أنّ التسعة والتسعين اسمًا مع الاسم الواحد المفرد قد ظَهَرَتْ في حقيقة الصَّاد. فسجَدْتَ السجُودَ الثالث فما رفعتَ رأسك وأَنَبْتَ إلى ربك.

# ٣٢

زال عنّي الوارد فرأيت زوجتي صبح منزعجة من حالي. فلمّا رجعتُ إلى حسّي قالت لي: تَنَحَّ قليلاً عن فخِذي فقد آلَمْتَني، وما عهدتُ مثل هذا الثقل فيك، فماذا حصل لك؟ فقلت لها: ألم تسمعي قوله تعالى مخاطبًا نبيّه عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ لقد رحل بي الحال ونزلتُ في مشهد روحاني عجيب هو **مشهد نور الصمت وطلوع نجم السلب**. فالعبد صامت أمام الحقّ، والصمت صفة سلبيّة، ولهذا طلع نجم السلب. إنّه منزل صاد يا صبح، وكلّ ما حصل فهو من تجلِّيات هذا المنزل وبركاته. وأستطيع أن أقول لك اليوم إنّ الغاية الكبرى من رحلتنا قد تحقّقت، ولله الحمد. فلقد فتحتُ بكلمة السرّ: افتح يا سمسم بلاد صاد وخرقتُ الحجب الأربعين وأعظمها حجابان، الواحد منهما معنوي، وهو حجاب الجهل، والثاني منهما حسِّي، أيْ حجاب الأنا الموهوم.

فقالت صبح: لست متأكّدة من فهم كلامك.

فقلت: إنّ لله سبعين ألف حجاب من ظلمة ونور. وأنتِ حجابٌ على نفسك. أنت صبح، أي النور الحاجب من رؤية حقيقتك. فأنت بنت سبعين، وابن دارة ابن سبعين، فهما سبعون حجابًا من نور وسبعون حجابًا من ظلمة. ولو كشف الله هذه الحجب لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وجهِه ما أدْرَكَهُ بصرُه. ولهذا فنحن نرى الحقّ من غير الوجه الذي يرانا، والاحتراق يقع إذا كانت الرؤية من وجه واحد. فانظري يا صبح بعين السبعين تُدركين معنى الوُسعَ الإلٰهي والسماحة والرحمةَ بالناس. الصاد يا صبح حرف الصّدق والصّون والصّورة والصّادي والصّوم والصّوت والصّلاة والصّراط. و﴿ص﴾ حضرة الجمع، أمّا قوله تعالى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ فهي حضرة الفرق. ومن دخل بلاد صاد أصابه عطش وجودي فيلزمُه أن يَصْمُتَ ويصوم عن الكلام ليظْهَر فيه كلام الحقّ، فَيَلْهَج آنذاك بالصّلاة والصّدق ويظهر منه صوت الحقّ. من دخل بلاد صاد صار ضمن مملكة الولاية وأشخاصها أربعة عشر هم القطب والإمامان والأوتاد الأربعة والأبدال السبعة. فهم سبعة مع سبعة، وهي المثاني السبع في عالم الإنسان.

ثم قالت صبح، وقد بدأ الفتح يسري فيها: وما هي منازل الصّاد في القرآن؟

فقلت: لقد ظهر الصّاد في ثلاث فواتح سور نورانيّة هي

الأعراف: ألمص، وسورة مريم: كهيعص، وسورة ص. وقد تكرّر ٩٨ مرّة في الأعراف، و٢٦ في مريم، و٢٨ مرّة في ص. ومجموعها ١٥٢ مرّة، وهو على عدد من تصدَّر للفتوى من صحابة رسول الله. ثم إنّ الصّاد قد ظهر في فاتحة المثاني في كلمة الصّراط، فهؤلاء هم الذين مشوا على صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيئين **والصدّيقين** والشهداء **والصالحين**. فلهم حظّ وراثة هؤلاء جميعًا لصدقهم وصلاحهم. وقد ذُكر الصّراط في السور الثلاث.

ثم قالت صبح: وما هي ليلة قدرهم يا أبا الحسن؟

فقلت: فتح الله عليكِ يا أمَّ الحسن، نعم إنّ ليلة قدْرِهِمْ محجوبةٌ عن غيرهم كليلة القدْر تمامًا التي تدور في الزمان. ولهذا لم يُذْكَر حرف الصّاد في سورة القدر التي تتحدّث عن رمضان والصيام وليلة القدر، مع ظهوره في لفظة الصوم. لكنّه ظهر محتجبًا بصفة الصمديّة من اسمه الصّمد، وهو الذي يُصْمَدُ إليه ولا يَدْخُلُ جوفَه شيء، فهو الغني. والصائم يمتنع عن الأكل فيحصلُ له ذوقٌ بهذه الصفة خلال صومه.

وما دليل ذلك يا أبا الحسن؟

فقلت: من باب الإشارة فقط أقول لك، إنّ عدد حروف سورة القدر على عدد قيمة (صمد = ١٣٤). فالصمديّة المرتبطة بصفة

الصوم منحجبة في كلّ حروف السورة، وهذا كاف وحده للتدليل على ما قلناه. لكنّهم تحقّقوا بالصمت والصبر والصّدق والصون والاصطفاء والصفاء. فهؤلاء أصحاب الصّاد. وقد قال فيهم رسول الله ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نَصِيفَه». فهم أصحاب كلّ الأَنْصاف فحلاَّهم مولاهم بالصِّدق والإِنصاف.

هكذا كانت المطارحات والمذاكرات والمباسطات تأتي بخير كثير خلال إقامتنا في الشام وتحصيلي لليلة القدر بعد الألف. وتذكَّرتُ أثناء جلوسي مع صبح قول القائل:

على الدُّرَّةِ البَيْضَاءِ كَانَ اجْتِمَاعُنَا وَفِي قَابِ قَوْسَيْنِ اجْتِمَاعُ الأَحِبَّةِ

أو قول من قال: «الدرّة البيضاء التي تَنَزَّلَتْ إلى الياقوتة الحمراء». فاختر لنفسك ما يحلو. أمضينا وقتًا طيّبًا في هذه البلاد، وكنت أسافر إلى مصر ثم أعود، بل وشاركت في ردّ هجمات الإفرنج وجهادهم مع طلبتي. لكنّي كنت بحاجة لرؤية عبد الحقّ بن سبعين في مكّة. فعزمت على زيارته وتركت أهلي في الشام، ورحلت إلى الحجاز.

وصلت إليه وهو في مكّة فلمّا رأيته خاطبته قائلاً:

يا كعبة الحسن، وكنز حياتي وشمسي وبدري، ومحيي رسمي وممدّ ذاتي وكمِّيّة السعادة وإكسير الذوات ومغناطيس النفوس، لقد

تاقت نفسي إلى لقاك واشتاقت روحي للاجتماع بك. ارحموا غربتي يا أهل وُدِّي، فما أعظم الغربة الوجوديّة التي نعيشها بين قومنا أين من يفهم أين؟

رحَّب بي ابن سبعين وفرح كثيرًا ثم قال: أهلاً بالخِلِّ الوفيّ والصاحب التقيّ، من تَأْنَسُ النفسُ إليه وتشتاق الرُّوح سماعَ ما لديه. فهنيئًا لك الفتح الذي حصل، وبلوغ غاية السفر يا بطل.

كانت لابن سبعين حظوة كبيرة عند أمير مكّة وأهلها وكان الناس في مكّة يقتدون به ويُعَوِّلونَ في آرائهم عليه وصار لأهل المغرب به عندهم منزلة عظيمة. كما كان الرجل ينفق بسخاء على الحجّاج والغرباء والمساكين وفقراء الحرم. وإضافة إلى علمه كان الرجل يعالج المرضى والجرحى، وقد صنع لأبي نمي محمّد الأوّل أمير مكّة، غطاء خاصًّا لرأسه بعدما أُصيب بجرح في إحدى المعارك، فشفاه من كسره الذي أصابه في رأسه. وكان الرجل يعتمر ويحجّ كلّ سنة، ولا يزيد على عمرتين في كلّ عام على طريقة المغاربة، لكراهة الزيادة على اثنتين كما هو في مذهب الإمام مالك.

سألت عبد الحقّ عن أحواله، فأجابني: يا أخي، مثلنا لا يمكن أن يَنْعَمَ بالراحة لأنّ الناس يَضِيقُونَ بما قَصُرَتْ أفهامُهم عن إدراكه. فرغم أنّ مقامي في مكّة لا تشوبه شائبة، إلاّ أنّك تعلم أنّ

بيبرس يطلبني وقد حبَس ولدي في مصر حتى مات في السجن. وهو يتعلَّل في طلبي بكوني أميل إلى التشيّع، وهذا غير صحيح كما تعلم. والسبب سياسي محض، لكن هؤلاء المماليك يعلمون أنّهم إذا أرادوا التمكّن من حكم البلاد فما عليهم إلاّ أن يبالغوا في إرضاء مترسّمة الفقهاء، حتى يغتفروا لهم خطيئة القضاء على دولة الأيّوبيّين المباركة التي أعادت بيت المقدس إلى المسلمين. فبيبرس يعلم أنّي قد أنشأتُ نصّ البيعة للمستنصر، سلطان المغرب القوي. والنتيجة الحتميّة لمثل هذه البيعة هي أن تصبح مصر ضمن حكم المستنصر ما دام أنّ مكّة، مهوى أفئدة المسلمين، قد بايعت لهذا السلطان. وقد سمعتُ أنّه يطلبني ويسعى في قتلي وقد أرسل لي زبانيته أثناء مواسم الحجّ لاغتيالي، لكنّ الله سبحانه وتعالى نجّاني من كيدهم. ومنذ ذلك الوقت، أرسل لي أمير مكّة رجاله لحراسة بيتي.

# ٣٣ = مُتَوالِيَةُ جل

دعنا من هذا الحديث المُنَغِّصِ، واحْكِ لي عن فتوحاتك في بلاد صاد وأرض السِّمِسِمَةِ.

فقلت: لقد جمعتُ السِّمسماتِ السَّبْع من كلّ أقاليم الأرض فَالْتَأَمَ الشَّمْل واجتمع الأصل والفروع في أرض الشام. لقد كانت بدايتي من وادي آش، ونهايتي في الشام. وكلتاهما تدلّ على الغاية. أليس الشين آخر الحروف؟ بلى إنّه كذلك. لقد نلت ليلة قدري وهي معي منذ البداية. لقد طوَّفت في كلّ أقاليم الأرض السبعة وجمعتُ منها السمسمات الباقية من آدم في أطراف أرض الله الواسعة، وحُكْتُ ثيابًا وحُلَلاً، فَفتحَتْ لي تلك الأرض **دائرة الإحاطة** فدرجت على تراب من **مسك**. لقد جُلْتُ في أرض العبوديّة وأدركتُ سرَّ المتوالية الذهبيّة، ثم أنشدتُ:

**جُلْ جُلْ** تَر المَعَانِي ... وافْهَمْنِي يَا **فُلانْ**

مَا تَنْطِقُ **الأَوَانِي** ... إلاّ بما سَكَنْ

السرّ في هذه المتوالية الذهبيّة من علم الجَوَلاَن والسَّفَر، في الذات (الله = ٦٦). **والأواني** هي شُعَبُ الإيمان الثَّماني والسَّبعين، **وفلان** المذكور هو الإنسان الكامل، أُسُّ العالم، المتحقّقُ بأسماء الله الحسنى مع اسم الذات. والصّاد مفتاح الأسماء الإلٰهيّة: الصّمد والصّبور والصّادق والصّانع. كما أنّه مفتاح أسماء النبي ﷺ: الصّادق والصّابر والصّالح. وصاد الإنسان الكامل يتحصَّل بمتوالية جل، أي ١ + ١ + ٢ + ٣ + ٥ + ٨ + ١٣ + ٢١ + ٣٤ = ٨٨ (**حبيب الله**). إنّ هذه المتوالية الإلٰهيّة هي قبّة أرين، محلّ الرؤية والاعتدال التامّ والتناسق والانسجام. ويمكن أن نعرِّف متتالية جل بأنّها متتالية الأرقام التي ينتج كلُّ رقم فيها عن مجموع الرقمين السابقين له والتي حدَّاها الأوَّلان يساويان الواحد. أو لنقل، إنّ قسمة كلّ عنصر من عناصر المتوالية على الذي قبله تساوي العدد الذهبي بتقريب جيّد. إنّ كلّ ما في الكون الذي أبدعه الخالق محكوم بهذه المتوالية الذهبيّة، في الإنسان، والحيوان والجماد والنباتات. كما أنّ العين الإنسانيّة ترتاح لمثل هذه النسبة لدى رؤيتها، وتجنح إليها وتشعر بالجمال، وهذه النسبة بين الطول والعرض تعادل تقريبًا ١,٦١٨. ففي الإنسان الذي هو أرض السمسمة وأرض الله الواسعة التي عبَدَ فيها رَبَّهُ، نجد على سبيل المثال فقط، أنّ أربعة أصابع تساوي كفًّا، وأربعة أكفّ تساوي قدمًا، وستّة أكفّ تساوي ذراعًا، وأربعة أذرع أو

أربعة وعشرون كفًّا تساوي قامة إنسان. فإذا باعد الإنسان بين رجليه وفخذيه وبسط ذراعيه، فإنّ سُرَّتَهُ ستكون هي مركز الدائرة الوهميّة التي تلامس أطرافَهُ مع قمّة رأسه بحيث تُشَكِّلُ نِقَاطُ تَمَاسِّ الدائرةِ نجمةً خماسيّةً. كما أنّ ذراعيه المبسوطتين تعادلان قامته، وما بين المرفق وطرف اليد المبسوطة يعادل خمس قامته، أمّا من مرفقه إلى تحت إبطه فالمسافة تعادل ثمن قامته. كما أنّ قدم الإنسان تعادل سُبع قامته. فهذه الهندسة الإلٰهيّة المقدّسة قد وضعها الخالق في الإنسان الذي هو بنيان الله في الأرض، وهي كلّها تحقِّقُ هذه المتوالية الذهبيّة، مصداقًا لقوله تعالى إنّه خلق الإنسان ﴿**في أحسن تقويم**﴾ = ١٠٠٥، وتوجّهت على هذا الخلق الأسماء الإلٰهيّة: **باري مصوّر جميل** = ٦١٩[١] فإذا تأمّلنا في قوقعة الحلزون ذي الحُجَيْرَات، وهو حلزون ذو زوايا متساوية، نجد أنّ منحنى الحلزون يقطع الأشعّة المتّجهة نحو الخارج بزاوية معيّنة ثابتة. والصّاد شكل حلزوني بامتياز، وتشكّل تعريقته تناظرًا مع بقيّة شكله. وهو يُرْسَمُ وفق نموذج رياضي بسيط، ممثّلاً بالمتالية المقدّسة التي أسميناها متتالية جل، التي جَلَّتْ عن أحلام العقلاء. ويمكننا أن نتصوّر أشكالاً لحلزونات رياضيّة لا يقلّ عن

(١) أفادني العالم الأكبري عبد الباقي مفتاح أنّ قسمة ١٠٠٥ ٦١٩ = ١,٦٢. وهو تقريب جيّد للعدد الذهبي س = ١,٦١٨، فتأمّل س وسم سم سمه.

تعدّد الأشكال الحلزونيّة الطبيعيّة. وينتج الحلزون الأوّل عن متتالية عدديّة، بينما ينتج الحلزون الثاني عن متتالية هندسيّة. إنّ الجمال الذي نشهده في الكون أصله من المكوّن. ثم إنّ الصراع في الكون، بين الميل إلى الفوضى والبحث عن حلٍّ، أمثل للحركة باتّجاه الانتظام هو أساس الجمال. ثم إنّنا نجد في خِضَمِّ الفوضى التي تَجْنَحُ الطبيعة إليها إشعاعًا ناظمًا من قوانين التناسب. ولعل هذه الثنائيّة بين ظاهر الفوضى وباطن النظام هي التي أدَّت إلى تَفَتُّحِ الوعي عند الإنسان. والطبيعة، وإن لم تكنْ لتقنَع أبدًا بالأشكال البسيطة، إلا أنها لم تُعَدِّل أبدًا قوانينَها الأساسيّة البسيطة التي تقوم على مفهومي الوحدة والاتّساق. فالهندسة الكونيّة يجب أن تنطلق من هذه الهندسة الوجوديّة العليا.

كان ابن سبعين ينصت إليّ بعناية فائقة، ثم فاجأني قائلاً: إنّ تَنَاظُرَ البِنْيَة الحلزونيّة يقودنا إلى التساؤل حول ما إذا كانت الأشكال المتناظرة يمينًا وشمالاً موجودة أصلاً في الطبيعة؟ فقلت له من غير استقراء لكلّ أشكال الطبيعة: إنّ وجودها في الذهن دليل على وجودها في الطبيعة، فلسنا نتكلّم إلاّ عن موجودات بالإمكان أو بالفعل.

فقال: صحيح، لكنّ العالِم ملزم بالتدليل. فقلت: إنّ كثيرًا من أشكال القواقع وثمار الأشجار تجنح لمثل هذا التناظر. ولكنّ

الأصل هو أنّ الأشكال الطبيعيّة تجنح إلى الاتّساق مراعاة لقانون الجهد الأقلّ.

ثم سألني قائلاً: هل كان للمعرفة الإنسانيّة أن تكتمل ما لم تُتوَّج بقدرة فائقة على اكْتِنَاهِ أسْرَارِ الجمال؟ فقلت له: إنّ الجواب في السؤال. إنّ الإنسان ينجذب إلى الجمال في الطبيعة لأنّه هو أيضًا كائن طبيعي فهو جزء من هذه الطبيعة، أي أنّه جزء من هذا الجمال. إنّنا على تخوم أصل الجمال والمعرفة في الإنسان لا نملك إلاّ أن نقول إنّ المعرفة ليست في النهاية إلاّ أبهى تجلٍّ للجمال في الطبيعة، وهو التّمَاهِي والتَوَحُّد معها

فقال ابن سبعين: هذه يا أبا الحسن هي الوحدة المطلقة التي ننشُدُها. وهذا هو علم التَّحقيق. إنّ الدَّافع إلى المعرفة هو وجود الجمال فينا، وهو الخير المطلق. فما هي قوانين الطبيعة في النهاية؟

قلت: إنّها بكلّ اختصار قوانين جمال الكون، ونحن جزء من هذا الكون، إلاّ أنّنا أدركنا سرّ استِخْلافِنَا على الكون بمَزِيَّةِ المعرفة. وهذا هو السرّ الأعظم في كون الإنسان عالمًا صغيرًا، والعالم إنسانًا كبيرًا. فالإنسان الكامل هو النفس الناطقة للعالم.

ثم قال ابن سبعين: إنّنا كثيرًا ما نختلف على مقاييس الجمال ودرجاته، فهل الجمال شيء نسبي؟

فقلت: إنّ الجمال النسبي الذي قد نختلف على مقاييسه ودرجاته يتبدَّد في ضوء الجمال الطَّبيعي الذي نستَلْهِمُهُ من وعينا للطبيعة؛ ذلك أنّ هذا الجمال هو قانون الطبيعة ذاته. وفهمُنا لهذا القانون لا يمكن له أن يكتمل ما لم نكتمل نحن به. فحياتنا مظهر له، والوجود مظهر له. وكلّما أغرقنا في فهم الطبيعة بعيدًا عن روح هذا القانون جرَّنا فهمُنا هذا إلى متاهة لا مخرج منها

فقال ابن سبعين: إنّ سرّ الاستخلاف الذي أعطاه الوعي والإدراك للجمال هو أصل السعادة والشقاوة معًا. فالمتاهة التي تحدَّثْتَ عنها هي من انتِشَاءِ فِكْرٍ ووَعْيٍ عزَلَ نفسه عن العالم والكون، وبالتالي عن أصل الكون وأصل الجمال وأصل المعرفة ذاتها إنّ ظهور العارف والشيء المعروف أدَّى إلى تَشَظِّي مرآة الجمال. وقد حاول الفكر أن يُميِّزَ نفسه عن الطبيعة بمعزل عن طبيعته، فاختلف الناس حول الجمال، لكنّ اختلافهم لم يكن في حقيقة الجمال وإنّما من وَهْم إدراك الجمال بهذه المعرفة التي عزلت نفسها عن أصلها وطبيعتها. فالسعادة اليوم وفي كلّ زمان هي في التوحّد من جديد. مكتبة الرمحي أحمد

لكن دعنا الآن من هذا الحديث عن الجمال وأخبرني عن فتوح بلاد صاد.

فقلت: إنّ هذا الحديث هو من فتوح تلك البلاد التي تنضح

بالجمال. فلقد دخل الجمل في سمّ الخيّاط، واستحال كلّ شيء إلى كلّ شيء. فبلاد صاد هي بلاد الصورة الأحمديّة الجماليّة، وبلاد النور الأعظم في عالم الغيب والجبروت. ومن دخل هذه البلاد صار من أصحاب الأعراف الذين لهم وجه إلى كلّ جهة. وقد دخلتُ تلك البلاد في حال النوم، فلم أُدركِ السبب الذي من أجله خُصِّصَتْ بالنوم بدل اليقظة، فهل عندك الجواب عن هذا السرّ؟

فقال ابن سبعين: إنّ حرف الصاد حرف الموت، وهو يحتلّ المرتبة الواحدة والعشرين في الترتيب النَّفَسي لمخارج الحروف. وهذه المرتبة مختصّة بالطّين والتراب. لكنّه قد يُنال في اليقظة. والأَوْلَى ما ذكرتُ لك للمناسبة بينه وبين الاسم المميت. فالصّوم والصّمت والصّدى كلّها معانٍ في حكم الموت، وإن كان موتًا معنويًّا والنوم هو الموت الأصغر، فكانت المناسبة بينه وبين الموت أقرب. والصّاد يتجلّى لأصحابه غالبًا في النوم. وهناك سرّ آخر وهو أنّ العالم بفقده لجمعيّة النبي ﷺ، في حالة نوم حتى يأتي يوم البعث. أمّا العبد الميت عن نفسه فقد سمّاه النبي ﷺ: أبا تراب، لكمال تحقّقه بالعبوديّة، فاحرص يا أخي عليها

فقلت: لقد ذكرتَ أنّ الصاد يأتي في المرتبة ٢١ من الترتيب النفَسي. ومرآة هذه المرتبة ١٢، ومجموعهما ٣٣. كما أنّه يحتلّ

المرتبة ١٥ في ترتيب الأبجد المغربي، و١٨ في الأَبْجَد المشرقي، ومجموع المرتبتين ٣٣ مرّة أخرى. ومجموع المجموع ٦٦، عدد الاسم المفرد (الله). ثم إنّ **ص** بالمغربي الكبير يساوي ٦٠، وبالصغير ٦، ومجموعهما ٦٦ مرّة أخرى. أمّا بالمشرقي الكبير فإنّه يساوي ٩٠ وبالصغير ٩ ومجموعهما ٩٩، وهو عدد الأسماء الحسنى. وبإضافة ٦٦ إلى ٩٩ يتحصّل لدينا ١٦٥ وهو عدد **لا إلٰه إلاّ الله**، وعليها نلقى الله. ومرآة هذا العدد ٥٦١ هو عدد كلمة **الصّمت**، التي ينبغي أن يكون عليها مَنْ سرى فيه مدد بلاد صاد. هذه بعض أسرار الصّاد العدديّة وهي فوق الحصر ويكفي ما أشرت إليه ففيه غُنْيَةٌ عن سواه. إنّه يحوم حول الاسم المفرد في كلّ اتّجاه مصداقًا لقوله تعالى ﴿أليس الله بكاف عبده﴾.

فقال ابن سبعين: إنّ الصّاد حرفُ دائرةِ الإحاطة فإذا سرى عدده المغربي الكبير في عدده الصغير أعطانا درجات الدائرة (٦٠ × ٦ = ٣٦٠). وهذا العدد هو عدد اسمه تعالى (رفيع) من قوله تعالى ﴿رفيع الدرجات﴾. ودرجات الفلك ٣٦٠. أمّا منازل الفلك فهي ٢٨ بِعَدَدِ المرَّات التي تَكرَّرَ فيها الصّاد في سورة ص. ثم إنّ منزلتَه ١٥ في الترتيب المغربي هي منزلة غَفَر من منازل القمر، وتناسب الميزان الذي تبلغ دورته ٧٠٠٠ سنة. وعند الميزان ظهر الزمان والمكان والعالم الطبيعي والروح المحمّدي وآدم بين الماء **والطين**. وبعد تمام الدورة لفلك البروج ظهر جسمه الشريف ﷺ

مرّة أخرى عند الميزان فقال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض». ولهذه الأمّة ستّة آلاف سنة روحانيّة، ولهذا ظهر فيها من العلوم الإلٰهيّة ما لم يظهر في غيرها من الأمم. ودورة الأمّة السابقة كانت ترابيّة، فغاية علمهم بالطبائع، وليس فيهم إلٰهيّون إلاّ نادرًا، وحتى مع وجودهم فمعهم مزج طبيعي. أمّا المتألّهون في هذه الأمّة فهم خالصون.

فقلت لعبد الحقّ: هذا بحر لا ساحل له، والأَوْلَى أن نَكُفَّ الكلام عن الإشارات العدديّة لهذا الحرف الشريف، ويكفي أنّه حرف الصّلاة. وفي رجال عالم الأنفاس الثابت عددُهم في كلّ زمان، فإنّه واحد من رجال الغيب العشرة، وهو تاسع رجال الحنان والعطف الإلٰهي الخمسة عشر كما أنّه ثالث رجال الهيبة والجلال الأربعة. وهو أيضًا أحد رجال العُلى السبعة وأحد الرجال الثلاثة الإلٰهيّين الرحمانيّين، وأحد البدلاء الاثني عشر. فهؤلاء ستّة رجال من عالم الأنفاس لهم مدد من هذا الحرف الشريف. كما أنّ له تصريفات كثيرة وهو حجاب من الإنس والجنّ ودواء نافع بإذن الله.

إنّ بلاد صاد هي بلاد الإنسان الكامل المتحقّق بالعبوديّة المحضة، وهي مركز العالم وقطبه الذي يدور حوله.

فقال عبد الحقّ: هل هذا المركز ثابت أم متحرّك؟

فقلت: إنّه ثابت مع الحقّ متحرّك مع الخلق. وقد يُفهَم الثبات والتحرّك بشكل آخر، فالعبرانيّون مثلاً يعتبرون أنّ مركز العالم هو القصر الداخلي أو القصر المقدّس. وفي عالم الإنسان، فإنّ المركز يعني الحضور الإلٰهي في الخيمة التي وضعوا فيها التابوت الذي يضمّ كتاباتهم المقدّسة. إنّه مركز متحرّك بِتِيهِهِمْ في أرجاء الأرض. وكلّ دعوى منهم لتثبيت هذا المركز في بقعة أرضيّة معيّنة يعتبر رِدَّة وخيانة لهذا المبدأ أمّا المصريّون القدماء فإنّهم أطلقوا على أرضهم اسم **كيمي**، أي الأرض السوداء. وهذا هو أصل الكيمياء، أي العلم الهرمسي المقدّس للمصريّين. لقد رمزت كلّ الشعوب الأصيلة التي لها تقاليد وشرائع إلى مبدأ المركز تحت مسمّيات مختلفة، فتارّة نجد الجبل والكهف والجزيرة، وأيضًا القصر والهيكل والقلعة أو الحصن أو الكعبة في علاقة مع قطبيّة العالم. بلاد صاد هي إذن مركز العالم في الإنسان الكامل الحامل لسرّ الوجود والحافظ لكلّ المراتب. أمّا السمسمة فهي الأرض التي خُلقت من بقيّة خميرة **طينة** آدم عليه السلام، بعدما خُلِقَ من فَضْل خميرته أوّلاً أخته النخلة، التي سمّاها لنا الشرع عمّة. ومن فضل خميرة النخلة خُلِقَتِ السمسمة. فالنخلة عين السمسمة، إذ درجاتهما متعادلة، كما تعادلت درجات **آش مع أرض مع** ألف ليلة وليلة. وفي هذه الأرض من العجائب والغرائب ما لا يستطيع المرء حصره. ويحصل للعارفين في هذه الأرض تجلّيات إلٰهيّة

لكنّهم لا يدخلونها إلاّ بأرواحهم لا بأجسامهم التي يتركونها ويتجرّدون منها ومع عِظَمِ هذه التجلّيات فلا يحصل لهم صَعْق ولا فناء، بل يُجْمَعُ لهم بين الرؤية والكلام. فإذا تهيّأ الداخل للدخول إلى هذه الأرض وجَدَ أمامه حُرَّاسًا على هذه الأرض يتحقّقون من أهليّته، فإن نجح خلعوا عليه حُلَلَ تلك الأرض وطافوا به في أرجائها على قدر مقامه. فإذا أراد الخروج منها أوصلوه إلى الباب الذي دخل منه إليها، فَيَنْزِعُ الحلل التي ألبسوه إيّاها ويعودُ إلى عالم الحسّ، وقد حصَّل علومًا جمَّة وزاد علمُه بالله مشاهدة بعد أن كان خبرًا. وفي هذه الأرض أراض من مِسْكٍ أنفاسُها رحمانيّة، وأخرى من ذهب أحمر لَيِّنٍ وأشجارها وثمارها من ذهب تعطيك المعرفة الذاتيّة وما يتّصل بها من العلوم. وزمان هذه الأرض غير زماننا، لأنّ الزمان في أرض المثال تابع للشعور لا لحركات الأفلاك، فهو في قبضة العارف. وفيها ذقتُ علم الاستحالة كإيراد الكبير على الصغير. ودخلت أرض الفضّة البيضاء حيث انبهرتُ بجمال الصفات وتجلّيات الأسماء. ودخلتُ أرضًا من كافور أبيض ذقتُ فيها أنوار السبحات. كما دخلتُ أرضًا أخرى من الزعفران الأصفر فلبستُ هناك حلّة صفراء وأدركت حقيقة صاد. وفي هذه الأرض مدائن تُسمّى مدائن النور، وفيها ملوك يحكمونها. كما رأيت في هذه الأرض بحرًا من تراب، والحجارة فيه تجتمع وتؤلّف سفينة. وهذه الأرض العجيبة

مدَّها الله في البرزخ فيحصل للعارف منها أذواق أثناء النوم وأثناء اليقظة. وقد ذكرتُ لك أنّي دخلت بلاد صاد أثناء النوم.

فقال ابن سبعين: إنّها فعلاً أرض عجيبة غريبة فَصُمْ عن الكلام إلاّ عن الذِّكْر، وجُلْ بالفِكْر، واغْطِسْ في بحر **نون**، فذاك هو **الصوم** الحقيقي. ثم أمسك عن الكلام فإنّ **الصّمت** هو **باطن الحكمة**، فانظرها في كلمة الشهادة والإنسان الكامل. وقد قيل «الصمت حكمة وقليل فاعله». فما كلّ كلام يُقال.

أمضيتُ وقتًا مع عبد الحقّ نتدارسُ العلوم ونتباسطُ في المعارف **ونشترك في الفتوح** ونحيي أيّامنا بالأذكار والخلوات في جوار البيت الحرام، ونعتمر ونحجّ حتى أزِفَ الرحيل وعزمتُ على لقاء أهلي، وكنت قد تركتهم في الشام. فلمّا أعلمتُ عبد الحقّ بمرادي حَزِن لفراقي وأسَرَّ لي برغبته في العودة إلى المغرب بعدما قضى شطرًا من حياته في المشرق. وتواعدنا على أن نعود معًا هناك إن قَدَّرَ الله ذلك، لكنّي كنتُ أحسُّ في قرارة نفسي أنّ هذا هو آخر لقاء لي مع مغناطيس القلوب. لم أُفصحْ له بذلك، لكنّي رأيتُ الحزن الذي صَعِدَ من قلبه فبدا على وجهه، فعلمتُ أنّه علِمَ بما عَلِمْتُ. كان هذا الأمل باللّقاء نوعًا من التعلُّل على الرَّغم من أنّ القلوب أَدْرَكَتْ أنّه لا لُقْيَا بعد اليوم إلاّ في الدار الأخرى. تَعَانَقْنَا عِنَاقًا حارًّا، وهمس لي قائلاً: الله فقط يا أبا تراب، ولا

تنس أنّك ورثت مقام **الطين** (٦٩). وقد ذَكَرْتَ تحقُّقَكَ بهذه المرتبة في قصيدتك النونيّة الشهيرة «أرى طالبًا منَّا الزيادة لا الحسنى» حيث جعلت عدد أبياتها ٦٩ بيتًا فقلت له: يا سيّدي، وهل تصحّ رؤية الحقّ في ظلمة **الطين**؟ فقال عبد الحقّ: ليستْ رؤيةُ الحقِّ عن المحقّق في نور القدس بأظهر ولا أوضحَ من رؤيته في ظلمةِ الطين. فإنّ الذي أعطى تلك يعطي هذه. فكما لا يعزبُ عن الحقّ شيءٌ، كذلك لا يعزبُ هُوَ عنْ شيء. وقد قلتُ لك إنّ مقامكَ طيني، فلا أطلبُ منك أن تخرجَ عن ظلمتك وسِجْنِ هيكلك، وأن تسبحَ في أنوار روحانيّتك لِيَهُبَّ عليك نسيمُ جُودِ مشاهدةِ مولاكَ. فإنّ القولَ بذلك فيه نِسْبةُ العَجْزِ للحقّ، وتعظيمِ الكون في جانبه، وهو القادرُ على كلّ شيء، ويتجلّى لعباده في كلّ الموادّ الظّلمانيّة والنورانيّة والروحانيّة. ثم تركْتُه والعَبْرةُ تخنُقُني، والتعجُّبُ من هذه الكُنية الجديدة يُطربني. إنّها وراثةٌ كبيرة من باب مدينة العلم في كنيتين اثنتين: أبو الحسن وأبو تراب. ثم أنشدت:

إلى حبيبي نترك أوطاني عسى يراني
قطب الهدى روحي وريحاني سكن جَناني
مُجلي **الصَّدَى** عن قلبي العاني غاية أماني

لم أَدْرِ كيف قطعتُ الطريق من الحجاز إلى الشام. ولمّا دخلتُ

بيتي طالعَتْنِي زوجتي قائلةً: ما بك يا أبا الحسن؟ فقلت: بل إنّي بعد اليوم أبو تراب. كان رأسي قد اشْتَعلَ شيبًا. وبعد أن استوفيتُ رحلةَ السَّفر كان لا بدّ من العودة إلى المستقرّ. فأخبرتُ أهلي بِثَنْيِ لِجَامِ خيْلي إلى حيث نشأتُ على جَرِّ ذيلي، ثم أنشدت:

اِعـمَـلْ عـلـى فَـكِّ الـرُّمـوزْ فـالـتُّـوبـا سـبـعـيـن
فـإن فـهـمـتَـه سـتـفـوزْ مـن ذَرْعِ سـبـعـيـن
واسـألْ فـي كـلِّ مـا يَـعُـوزْ عَـبْـدَ ابـن سـبـعـيـن

أبو تراب جاء من الطّين وسيعود إليه، نزل بدرجة عن سبعين. ثم قلت لصبح: لقد احتلم الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله في ليلة واحدة سبعين مرّة، وقام فاغتسل لكلّ واحدة منها. فهذه عبادة لم يُسْبَقْ لمثلها، فسيحشرُ يوم القيامة مع أصحاب السبعين. فقالت صبح: وهل يُعقل مثل هذا من آدمي؟ وهل هناك مَنْ عَبَدَ اللهَ بعبادة لم تحْصُلْ لغيره؟ فقلتُ: أمّا عن السؤال الأوّل، فكلّ شيء ممكن من حيث القدرة، ولا أدري الكيفيّة التي حصل بها ذلك، هل كان يُنزِلُ بالفعل، أو أنّه اغتسل لمجرّد اللذّة المعنويّة، وقد كان سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه مَذَّاءً. أمّا عن سؤالك الثاني، فقد أفتى الشيخ نفسه لأحدِ مُلوكِ زمانه الذي أقسمَ لَيَعْبُدَنَّ اللهَ بعبادة لا يشاركه فيها غيرُه، فأفتى له رضي الله عنه بإخلاء المطاف حول الكعبة بعد وُقُوفِ الكُلِّ دُونَهُ في ذلك. فهذا مَلِكٌ من ملوك

الزمان قد حصل له من الخصوصيّة مع الحقّ ممّا ليس بيد الناس، فكيف بأصحابنا يا صبح؟ فمن كان على هذا القَدَم كان أُمَّةً لوحده وبُعِثَ على ما ماتَ عليه.

دَبَّ الوَهَنُ في العِظام وأحسستُ بَرْدَ دار السَّلام، وتَأَهَّبْنا للسفر الأخير من الطين إلى الطين من غير إعلام. ضربنا في الأرض نقطع المسافة بين الشام ومصر، ووصلتني الأخبار عن دخول المرينيّين مراكش، ثم مررنا مرّة أخرى بمسجد اليقين فأحسستُ بَرْدَهُ بين كَتِفَيَّ وجاءني النَّعْي بالرَّحيل. وأصابني البرد فمرِضْتُ مرضًا علِمْتُ منه أنّ النهايةَ قد دَنَتْ، وأنَّ البدايةَ قدْ أَشْرَفَتْ. فليستِ الدَّارُ مثلَ الدَّار ولا النَّاسُ مثل الناس، بل أولئك قومٌ وهؤلاءِ قومٌ، ولستُ غيري، بل أنا مثلُ أنا في مَحْوِ الأنا.

حملني الطلبة على ملحفة، وكانوا يتناوبون على حملي، وكلّهم يرغب في ذلك ويجاهد للفوز بهذه المزيّة. نظرتُ إلى ولدي فابتسمتُ ثم نظرتُ إلى ابنتي زينب فرأيتُ فيها شعرةً منّي لا صبرَ لها على فِراقِي. فقبَّلتُها بين عينيها، ثم نظرتُ إلى زوجتي صبح فسرى منّي إليها أمري فذَرَفَتْ دموعًا غِزَارًا وهَمَلَتْ مِنْ مَآقِيهَا عَبَرَاتٌ حَارَّةٌ أَجَّجَتْ ما بصدري من بُعْدِ الفِرَاق. ثم نظرتُ إلى أمّي وأنا أُنازع رمقي وأُبْطِئُ على مَلَكِي في قَبْضِ رُوحِي، وقلتُ لها: إذا قُبِضْتُ يأتي إليك رجلان بِكَفَنِي وحَنُوطِي، فمُرِيهِمْ

بتجهيزي وتَكْفِيني، فإذا جهّزوني ووضعوني في المَدْرَج، فأعطِي لكلّ واحد منهما ما طلب منك، وهو الذي أُوصِيكِ به، فالمرقَّعَةُ والجِرَابُ والقَلَنْسُوَةُ وما أشبه ذلك فأعطيهما إيّاهما، وإذا وضعوني في المُصَلَّى وأرادوا الصّلاة عليَّ يأتي أهلُ القرية بأسلحتهم لأنّها على فرَقٍ، فلمّا يُقيمون الصلاة ويُكَبِّرُ الإمام ويَشْرَعُ في الصلاة عليَّ يأتي نعشٌ آخر، فلمّا تَتِمُّ الصلاة ويقول الإمام **السلام عليكم**، فكلّ فِرقَةٍ من القرية ترفعُ نَعْشًا ويُدْفَنُ عِنْدَهم، تَبْقَيْ تَزُورين هذا القبر، وهَذا القَبْرَ، لأنّك لا تدرين أيّهما فقالت لي والدتي: ما السبب في ذلك؟ فقلت لها: لو كُنْتِ حين قُبِضْتُ وأرادوا الصلاةَ عليّ لاقْتَتَلَ الفريقان، لكنَّ الله تبارك وتعالى وَعَدَنِي بعدم حصول هذه الفتنة بين أهل القرية.

وفي يوم الأحد سابع صفر عام ٦٦٨ هجريّة، الموافق **سادس أكتوبر** سنة ١٢٦٩ بالعجمي، أخذني النَّزْعُ وَتَاقَتْ روحي للالتحاق بعالم البقاء، سألتُ عن الموضع الذي أخذني فيه النزع، فقيل لي: إنّ أقرب بلدة إلينا على بعد **ثمانِيَةَ عَشرَ مِيلاً**، واسمها طينة. فقلت للمُخبِر أخاطبُ نفسي: مِلْ إلى الله **مَيْلاً** يا أبا تراب، فلم يبقَ إلاّ **الحي**، وقد **حَنَّتِ الطِّينةُ إلى الطِّينة**. ثم تلوتُ الآية بعد السبعين من سورة صاد، فتذكَّرتُ قولَ ابن سبعين عن الوراثة الطينيّة ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ **طِينٍ**﴾. ثم تذكَّرْتُ وفاة أبي الحسن الشاذلي قبل اثنتي عشرة سنة، في حُمَيْثِرَا

بقلب الصحراء، فهو مِثلي قد دعاه الداعي إلى **حَمِّ الثَّرَى في حُمَيْثِرَا**. حملني الرجال حتى وصلنا إلى طينة، فرأيت أرض المحشر، ورأيت الخلائق في زحمة عظيمة، وتذكّرتُ قول الله ﴿يومَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ وجاءني الجواب عن استشكال أبي يزيد حول هذه الآية لمّا سمع قارئًا يقرؤها يوم جمعة، فطار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وتأوَّهَ وقال: هذا عجبٌ، كيف يُحْشَرُ إليه مَنْ هو جليسُه؟ فإنّه في تعجّبه ذاك كان إبراهيميّ المقام، حيث سأل عن الكيفيّة كما حصل لأبي الأنبياء عليه السلام. وهذا الجليس من المتّقين ولا بدّ أن يتّقي بشيء عن شيء، فلا يتّقي هناك إلاّ باسم إلٰهيّ. فمن كان جالسًا مع اسم من أسماء الجلال فهو في حال يطلب الوقاية، ولا وقاية هناك إلاّ باسم جماليّ مثل الرحمن. وأهل الله صادقون فيما يخبرون به، ولا يتعدَّون ذوقهم في كلّ حال بخلاف عامّة الناس الذين لا يتكلّمون عن ذوق، بل يتطاولون على أحوال غيرهم. أمّا أهل الله فقد يخبرون بأحوال الأنبياء ولكن فقط من باب الترجمة عن أحوالهم حتى يُعلِمُوا المستمِع بذلك. فلهم الكشف الخبري عن أحوال مَنْ هُمْ فَوْقَهُمْ، ولهم الكشف الذوقي عن أحوالهم. وخُلِعَ عَلَيَّ بعد هذا الكشف اسمٌ جديد فَرِحْتُ به غايةَ الفرح هو **صائد** حتى نوديت بالبنوّة إليه بابن صائد، ومعناه عبد الله. نعم لقد مَرَّ شريط حياتي أمامي منذ نزلت إلى هذا الوجود حتى دنا الرَّمَقُ

الأخير يريد أن يَتَخَلَّصَ إلى دار البقاء، وأنا في صَيْدٍ وُجُودِيٌّ حتى ظفرتُ بذلك الصيد الثمين، فَنُسِبْتُ إلى اسم الذات العليّة. ثم عاينتُ أمر الآخرة كشفًا ورأيتُ من أهوالها ونعمائها ما جعلني أحمدُ اللهَ على حُسْنِ الخاتمة والسلوك على الصراط الأوّل المستقيم. ثم رأيت نورًا عظيمًا كأنّه نور صبح فنطقتُ بالشهادة وأَشَرْتُ بسبّابتي إلى أعلى وتنهّدتُ آخر تنهيدة ونطقت باسم الصدر: آهٍ آهْ. ففاضتْ روحي.

ولمّا خَرَجَتِ الرُّوح، عَجَّل الرجلان في غَسْلِ أبي الحسن فَلَفَّ كلّ واحد منهما خِرقةً قبل مباشرة الميت، فَوَضَّآه أوّلاً وبَدَآ بميامنه وعَصَرَا بطنه عصْرًا رفيقًا، فأَخَذَا من ماء زمزم الذي كان الركب يحمله معه فعمَّمُوا جسد أبي الحسن بالماء وبَالَغَا في تنظيفه. وغسَّلوه بسِدْرٍ في الغَسْلة الثانية، وكافور في الثالثة. وبعد الفراغ من غَسْله، وَضَعَا من ذلك في مَغَابِنِهِ ومواضِعِ سُجوده ومَسَامِّ وَجْهِهِ لدفع الهوام. وشُدَّتْ أَلْيَتَاهُ بخرقة بعدما دَسَّ أحد المُغَسِّلَيْنِ قُطْنًا حَلِيجًا عليه حَنُوط وكافور بينهما، حتى تصل الخرقة لحَلْقَة الدُّبُر. كما وضَعَا بين أَكْفَانِهِ الحَنُوط، وهو نوع من الطيب مركّب من صندل وكافور وذَرِيرَة القَصَب. ثم أخَذَا في تكفينه، فحنَّطاه بكافور ومِسْكٍ وشيء من الطِّيبِ، وأدْرَجَاهُ في أكفانِهِ الثَّلاثة إدْرَاجًا، وقمَّصَاهُ وعَمَّمَاهُ. وبعد أن انتهيَا من تجهيزه أتَيَا إلى والدته فطلبَا منها بعض أغراضه فأعطتْهُما ما أوصى به أبو

الحسن. ثم قام أَوْجَهُ أصحابه فنادى في الناس: الصلاة على الجنازةِ، جنازةِ رجل، فصلّوا عليه. وأثناء الصلاة جاء أهل القرية بنعش رجل ميّت فوضعوه إلى جنب نعش أبي الحسن. وبعد أن سلَّموا تطوَّعَ أصحابُه لحمله، واختلط نعشه مع نعش الرجل الآخر فاختار ابنه أربعة منهم فحملوا أحد النعشين على سرير، كما حمل أهل القرية النعش الآخر، وشيَّعَهُمَا من حَضَر، ومشى الناس راجلين أمام النَّعشين، ثم أُلْحِدَا على جانبهما الأيمن وهما مستقبلان القبلة، في قبرين متباعدين. وحَثَا ولده ثلاثَ حَفَنَاتٍ مِنَ التُّرَابِ للمشاركة في مُوَارَاة والده. ونصب أصحابه على قبره اللِّبَنَ ثم قاموا بتَسْنِيمِهِ. وقرأ الحاضرون على الميت سورة يٰس كما قرأوا عليه سورة صٓ، بناء على وصيّته. وانصرف الجمع مَكْلُومِينَ محزونين. وفي صباح الغد عَجَّلَتْ والدتُه وزوجتُه بزيارته فيما يُعرَفُ بزيارة: **صُبُوح القبر**. وكانتا في حيرة من أمر قبره حيث اختلط مع قبر الرجل الآخر، فوقفتا على القبر الأوّل وبَكَتَا ثم وقفتا على القبر الثاني وبكتا. ربّما كانت هذه الحيرة في معرفة قبره عاملَ حزن لأمّه وزوجته، لكن ذلك أدّى إلى تحقيق سِلْمٍ بين سكّان القرية. لقد كان الشيخ، رحمةُ الله عليه، رحمةً للناس حتى في موته. ولمّا كان في القرية أحياء متخاصمة، فقد آثر أبو الحسن أن يدفع فتنة الاقتتال بين الحَيَّيْنِ حتى يَحِينَ الوقتُ الذي يَنْقُلُ فيه أصحابُه جثمانَه إلى القاهرة. وساعةَ كانت والدتُه وزوجتُه تترحَّمَان

على القبرين سمعتَا لحْنًا من وراء حجاب يقول:

بــالله بــالله رُوفْ لْـحَــالِـي        يـا شُـشْـتـري يـا بُـو قَـبْـرِيـنْ
بــالله بــالله اشــرحْ بــالــي        أنـتَ وشـيـخـك ابـن سـبـعـين

الْتَفَتَتِ الأمّ إلى صبح وقالت: هل سمعتِ ما سمعتُ؟ فقالت صبح: نعم لقد سمعتُ أيضًا ما قال القائل. وقبل مرور الأربعين نعمل على نقله إلى القاهرة بعد أن نَتَثَبَّتَ من قبره من الرجلين اللذين غسَّلاه، فمن المحتمل أن يكونا قد أعْلَمَا جُثمان أبي الحسن بشيء مخصوص.

اتّصلتْ والدة أبي الحسن بالرجلين واستعْلَمتْ منهُما عن الأمر فأخبراها أنّهما لمّا وضَعَاهُ في أكفانه انْطَبَعَ من الحَنُوط الذي كان على جسم أبي الحسن في الأكفان شكلٌ عجيب يشبه حرف الصّاد، وهو شكل ظاهر للرّائي بكلّ وضوح على جنبه الأيسر من جهة قلبه. وقبل مرور الأربعين، أَمَرَتِ المرأة بإخراج الجثمان من أحد القبرين. فلمّا أخرجه الرجال تأكَّدَتِ المرأة من العلامة فوجدتْهَا، لكنّها لم تستطعْ أن تصبر عنْ رُؤْية فِلْذَةِ كبدها فأزاحت الكَفَنَ عن وجهه فَرأَتْهُ كما عهِدَتْهُ لم يتغيَّرْ فيه شيء ولم تَأْكُلْهُ الأرض، بل ما زال على نَضارَتِه. فلم تَكَدْ تُصَدِّقُ حتى قَبَّلَتْهُ بين عينيه وجَسَّتْ إِهَابَهُ بأصبُعِهَا فجرى الدم من تحت جلده، كما لو كان حيًّا، وسالتِ الدُّمُوع من عينيها في صمت. ثم أمرتْ بحمله

في صندوق أعدَّتْهُ بهذا الخصوص لأخذه إلى القاهرة. وأهال الرجال التراب على موضع القبر في تلك الصحراء. ثم عادت والدته مع طلبته بالنعش حتى وصلوا إلى القاهرة فدفنوه في الموسكي[1] كان أبو الحسن يسكن في هذا الحيّ وله رباط يتعبّد الله فيه. وهو غير بعيد عن جامع الأزهر ومسجد سيّدنا الحسين. وفي ليلة الأربعين أقام الطلبة والأصحاب حفلاً كبيرًا تُلِيَتْ فيه آياتٌ من الذكر الحكيم، وأَحْيَوْهُ بالأشعار والتواشيح التي كان ينظمها أبو الحسن. ولم يتخلَّف أحد من الصُّلحاء والعلماء والكبراء في القاهرة عن حضور هذه المناسبة. ترأَّس الحفلَ ولدُهُ حسن ورأى رُوحَ والدِهِ تُرَفْرِفِ في المكان وخاطبته من وراء حجاب الحسّ بأبلغ بيان، وأنشد بصوت شجيّ خَنَقَتْهُ العَبَرَاتُ قولَ والده:

| | |
|---|---|
| حَرَّكَ الوَجْدُ فِي هَوَاكُمْ سُكُونِي | وَعَلَيْكُمْ عَوَاذِلِي عَنَّفُونِي |
| خَلَّفُونِي فِي الحَيِّ مَيْتًا طَرِيحًا | وَعَلَى النَّوْمِ بَعْدَهُمْ حَلَّفُونِي |
| كَانَ ظَنِّي رُجُوعَهُمْ لِي قَرِيبًا | فَانْقَضَتْ مُدَّتِي وَخَابَتْ ظُنُونِي |
| أَنَا إِنْ مِتُّ فِي هَوَاكُمْ قَتِيلاً | بِدُمُوعِي بِحَقِّكُمْ غَسِّلُونِي |
| ثُمَّ نَادُوا: الصَّلاَةَ، هَذَا مُحِبٌّ | مَاتَ مَا بَيْنَ لَوْعَةٍ وَشُجُونِ |

---

(١) نسبة إلى الأمير عزّ الدين مؤسك قريب السلطان صلاح الدّين الأيّوبي وهو الذي أنشأ القنطرة المعروفة بقنطرة الموسكي.

وَلِرَوْضِ العُشَّاقِ سِيرُوا بِنَعْشِي ... فَهُمُو جِيرَتِي بِهِمْ أَنْعِشُونِي
يَا غَرِيبَ النَّقَا لَقَدْ جَرَّعُونِي ... بِالصُّدُودِ كَاس الرَّدَى وَالمَنُونِ
اِرْحَمُوا مَنْ قَضَى جَوًى فِي هَوَاكُمْ ... وَقِفُوا عِنْدَ رَوْضَتِي بِالحَجُونِ
وَاسْمَحُوا لِلْمَزَارِ بِالرُّوحِ إِنِّي ... فِي نَعِيمٍ إِنْ أَنْتُمُ زُرْتُمُونِي
وَاشْرَحُوا لِلْوَرَى قَضِيَّةَ حَالِي ... فَعَسَى عِنْدَ شَرْحِهَا يَرْحَمُونِي

مات أبو الحسن الذي شغل الناس شرقًا وغربًا بأشعاره وموشّحاته وأزجاله وسيرته المرضية. مات الأمير الشاعر، مات رجل من المسلمين. خرج مسافرًا وعاش زاهدًا لا يملكُ قوتَ يومِه بعد أنْ كانَتِ الدُّنيا طَوْع يده. لكنّه كان زاهدًا حتى في الزهد، لأنّ هذا هو مقام الرجال الراسخين في المعرفة بالله، لأنّ من زهِد في الدنيا كمن زهد في شيء له بال، ومتى كانت الدنيا ذات شأن حتى يزهد فيها الإنسان أو يطلبها؟ إنّها لا تساوي جناحَ بعوضة، ولهذا استوى التَّرك وعدم التَّرك في أمرها عند العارفين المحقّقين، ورضوا بما يَرِدُ عليهم من مولاهم. إذْ رَدُّ الدنيا حينما يتنعَّمُ بها عليك مولاك سُوءُ أَدَب، وطلبُها حينما يمنعُهَا عنْكَ خِسَّةٌ وسُوءُ أَرَب. والزاهد مال إلى قوله تعالى ﴿وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أمّا المحقّق العارف فمال إلى قوله ﴿واللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
مات أبو الحسن لكنّه لم يمتْ في قلوب الناس، إنّ صوتَه ما زال يُدَوِّي في صدورهم وقلوبهم يُضيءُ لهم الطريق نحو الوجودِ

الحَقِّ، ويردِّدُ: افهمني قطْ، الله فقط. لقد صَمَتَ الرجل صمْتَ الأبد لأنّه لا مُتكلِّمَ على الحقيقة إلاّ الله. لقد صمَت كما لم يتكلّم قطّ. وحين يصمتُ العبدُ ينطقُ الحقّ على لسانه فيقبِضُ على الأكوان ويطويها في طَيِّ الكِتْمان. فَمَنْ كان هذا شأنَه كيف ينقضي كلامُه أبدًا؟ لا زال أبو الحسن وأبو تُراب وابن السمسمة وابن صَائِد يعيش بيننا، في حنايا قلوبنا وأنَّاتِ صدورنا وآهات أفئدتنا وإشراقات أرواحنا يُذَكِّرُنَا بالعهد على الصَّمْت والصَّوْم والصَّوْن، حتى يعلم الناس نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ.

# حساب الجمّل الكبير

| الترتيب | النفسي | الترتيب | المشرقي | الترتيب | المغربي |
|---|---|---|---|---|---|
| | ١ | ا | ١ | ا | ١ |
| | ٢ | ب | ٢ | ب | ٢ |
| ع | ٣ | ج | ٣ | ج | ٣ |
| ح | ٤ | | ٤ | د | ٤ |
| غ | ٥ | | ٥ | | ٥ |
| خ | ٦ | و | ٦ | و | ٦ |
| ق | ٧ | ز | ٧ | ز | ٧ |
| ك | ٨ | ح | ٨ | ح | ٨ |
| ج | ٩ | ط | ٩ | ط | ٩ |
| ش | ١٠ | ي | ١٠ | ي | ١٠ |
| ي | ١١ | ك | ٢٠ | ك | ٢٠ |
| ض | ١٢ | ل | ٣٠ | ل | ٣٠ |

| الترتيب | النفسي | الترتيب | المشرقي | الترتيب | المغربي |
|---|---|---|---|---|---|
| ل | ١٣ | م | ٤٠ | م | ٤٠ |
| ن | ١٤ | ن | ٥٠ | ن | ٥٠ |
| ر | ١٥ | س | ٦٠ | ص | ٦٠ |
| ط | ١٦ | ع | ٧٠ | ع | ٧٠ |
| د | ١٧ | ف | ٨٠ | ف | ٨٠ |
| ت | ١٨ | ص | ٩٠ | ض | ٩٠ |
| ز | ١٩ | ق | ١٠٠ | ق | ١٠٠ |
| س | ٢٠ | ر | ٢٠٠ | ر | ٢٠٠ |
| ص | ٢١ | ش | ٣٠٠ | س | ٣٠٠ |
| ظ | ٢٢ | ت | ٤٠٠ | ت | ٤٠٠ |
| ث | ٢٣ | ث | ٥٠٠ | ث | ٥٠٠ |
| ذ | ٢٤ | خ | ٦٠٠ | خ | ٦٠٠ |
| ف | ٢٥ | | ٧٠٠ | | ٧٠٠ |
| ب | ٢٦ | ض | ٨٠٠ | ظ | ٨٠٠ |
| م | ٢٧ | ظ | ٩٠٠ | غ | ٩٠٠ |
| و | ٢٨ | غ | ١٠٠٠ | ش | ١٠٠٠ |

**ملحوظة**: للحصول على الجزم الصغير تخصم الأصفار من قيمة كلّ حرف. مثال: قيمة **ص** بالجزم الكبير المغربي ٦٠ فتصبح ٦ بالجُمّل الصغير أو الجزم الصغير. وبالمشرقي الكبير ٩٠، فتصبح ٩ بالصغير.

لمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

تيليجرام @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تحكي هذه الرواية قصة الأمير الشاعر، الفقيه، الفقير المتجرّد، أبي الحسن الششتري الذي هاجر من الأندلس والمغرب إلى الشرق، ليحقّق حلم السفر. وفي هذه الرواية يختلط التاريخ والواقع بالخيال. ولإدراك الفرق لا بدّ للقارئ أن يسلك على أثر بطل هذه الرواية ويسيح في أقاليم الأرض ليَجمع السمسمات السبعَ ويدخل بلاد الصاد الواسعة التي هي أعظم أرض للعبادة.

وعلى الرغم من أنّ هذا العمل الأدبيّ يستلهم التاريخ وأعلامه، إلا أنه يقدّم قراءة للحاضر العربيّ والإسلاميّ، واستشرافًا لمستقبلهما، من خلال الأسئلة الوجوديّة الكبرى حول الإنسان والخالق، والغاية من الخلق وحقيقة المعاد، والخير والشرّ، والمعرفة والحبّ...

ISBN: 978-9953-89-102-6

9 789953 891026

دار الآداب

هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رفيق الجندي